الحب في العذاب

رواية أدبية تاريخية

مي زياده



مؤسسة نوفل

الحبُّ في العذاب

مي زيادة

الحب في العذاب

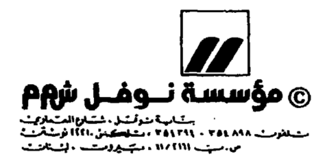
رواية
أدبيّة تاريخيّة

معرّبة عن الإنكليزيّة

للروائي الشهير
آرثر كونن دويل



الطبعة الأولى
١٩٨٩



مقدمة

إلى سيديّ الوالدين العزيزين

هذه إحدى ثمار نشأتكما الوحيدة التي عنيتما بتربيتها أكبر عناية، عانيتما ما عانيتما من المشاق، وأنفقتما ما أنفقتما من المال، لوقايتها وتهذيب أخلاقها وترقية مداركها واعلاء منزلتها بين لداتها، وغرس روح الفضائل في نفسها، كما أنكما قمتما خير قيام بما تستلزمه منكما الأبوّة والأمومة. فمن أقدس ما تستلزمه منّي البنوة القيام بمفترض الشكر لكما دائماً وإظهار ما يكنّه قلبي لكما من عواطف الحب البنوي الراسخ فيه إلى آخر العمر. فاقبلا هذه الهدية الصغيرة بمثابة طاقة زهر يسرُّ بها قلباكما وتقر بها أعينكما من ابنتكما المخلصة.

ميّ

الفصل الأول

كان شاب وفتاة جالسين في غرفة بأحد البيوت في شارع سان مرتان وكل منهما يخالس رفيقه النظر من وقت إلى آخر، على أن تبادل هذه النظرات بينهما كان يترجم من اشتداد حبهما حتى أن الواحد منهما لم يكن يود النظر إلى غير وجه حبيبه وهو يحسب ذاته من السعداء. كانت الفتاة تناهز العشرين من سنيها وهي بيضاء اللون جميلة المحيا نجلاء العينين سوداء الشعر، مقاطع وجهها متناسبة وهي في غاية الوسامة، وكانت سيماء الطهر والعفاف مرسومة على جبهتها وهي مرتدية بثوب في غاية السذاجة قاتم اللون أشبه بثوب حداد لو لم تكن تعلو الصدر نوطة ذهبية دقيقة الصنعة، وسوار ذهب يحيط بذلك المعصم الأبيض. تلك كانت ادال كاتينا ابنة ذلك الكالفينست المتعصب والتاجر المشهور، وكان ذلك الشاب يكبرها بعشر سنوات تقريباً، تلوح على وجهه علامات الإخلاص

والشجاعة. وكان يبدو صافي اللون أسود الشاربين حلو العينين. يلبس رداءً مزركشاً بالفضة يحمل على كل من كتفيه رمانة فضية، يكسو الرجلين طاقمان أبيضان حتى الركبة دالاً بلبسه على أنه جندي من حرس (لويس الرابع عشر) ذلك الحرس الخصوصي المسمى بالحرس الأزرق. ذلك الشاب المحكى عنه كان يدعى «أموري دي كاتينا» وكما يظهر من اسمه يرى القارىء أنه ابن عم «أدال كاتينا» المذكورة، وكان فقد والديه صغيراً ولم يبق له من يحن عليه سوى عمه هذا والد أدال الذي كان نسخ من ألقابه ما يدل على شرف عائلته وهو لفظة (دي) عند الفرنسيين وذلك لما كان يلحق بالبروتستان في المملكة الفرنساوية من الاضطهاد.

وكان والد ادال يقطن باريس مع ابنته هذه وقد أضحى بجده واجتهاده مثرياً ونال شهرةً عظمى بين تجار عاصمة فرنسا. وفي الوقت الذي تبتدىء فيه هذه الرواية كان أموري جالساً بقرب ادال ممسكاً يدها الناعمة ضاغطاً عليها بيديه القويتين ناظراً إليها بعين تدل على الحب والحنان.

ـ قولي لي يا ادال، لماذا أنت حزينة؟

ـ أنا لست كما تقول يا أموري.

ـ بل أنت حزينة وها أن الدمع يترقرق من عينيك وعلامات

الانزعاج ظاهرة على محياك! ألا تعلمين أن أفكارك تقرأ من مقلتيك كما يراقب الراعي النجوم في السماء؟

ـ لا شيء يكدرني يا أموري... لكن...

ـ لكن ماذا؟

ـ إنك تتركني هذا المساء.

ـ نعم لكن أعود غداً.

ـ هل لا بد لك من الذهاب هذه الليلة؟

ـ نعم لأني ملتزم بحراسة غرفة الملك صباحاً، وبعد انتهاء الصلاة يقوم مقامي في الحراسة الماجور دي بريساك، وبعد ذلك أكون حراً.

ـ آه يا أموري، لعمري أني أظنك تشعر بانذهال عظيم عندما تتكلم عن الملك والبلاط الملوكي والسيدات العظيمات.

ـ ولماذا أنذهل؟

ـ كيف لا وأنت الذي تعيش في تلك القصور الشاهقة ـ وبين تلك السيدات اللواتي فقن غيرهن جمالاً وحسناً بينما انك هنا ترى نفسك في غرفة حقيرة...

ـ ولكن مع أني أنا في هذه الغرفة.

ـ آه لعمري أن الاندهال يأخذ بك كل مأخذ وأني لأخاف كثيراً من أن ذلك يضرّ بحبك لي، لأني أكاد أشبه فأراً أمام عينيك إذا ما قابلتني مع أولئك النساء اللواتي تراهن دائماً في البلاط ـ نعم إني أخاف يا أموري خوفاً عظيماً.

ـ إن أذواق الناس تختلف في الحب والبغض والنساء كالأزهار، فمن الناس من يحب الزهرة لأن رائحتها قوية، ولونها يروق النظر. أما أنا فلا أحب إلّا البنفسجة الصغيرة التي يواريها العشب الأخضر وترتاح إلى رؤيتها عيناي وتثمل من شذاها روحي.

وأنت، أنت هي بنفسجتي الصغيرة ولا أريد وردة بدلاً منك ولو أنها هبطت إليّ من السماء!. وها أنذا لا أفتأ أرى إشارات الكدر والإنزعاج ظاهرة على محياك البهي.

فلم ذلك أيتها الحبيبة؟

ـ لأني أود أن يكون أبي قد عاد.

ـ وإلى أين ذهب والدك؟

ـ لا أعلم: ذهب يسعى وراء وسيلة للتخلّص من الجنود المزمعين على القيام عندنا.

ـ ما هذا الخبر؟ إنك لم تعلمني بذلك قبل الآن.

ثم نهضت من مكانها وتوجهت نحو الطاولة وتناولت ورقة صغيرة زرقاء مختومة بالشمع الأحمر أعطتها لابن عمها وقالت:

«ها هو الأمر».

فتناولها وقرأ فيها ما يلي:

اعلم يا تيوفيل كاتينا التاجر في شارع سان مرتان أنك لملتزم بضيافة فرقة الجنود تحت رئاسة القبطان «دالبيو» وعددهم عشرون رجلاً، وذلك لحين ورود أمر آخر لك.

الإمضاء

دي بوبدي رسول الملك

كان أموري دي كاتينا عالماً بأنواع الظلم التي كان يقاسيها البروتستان في كل جهات فرنسا، غير أنه كان يظن أن أسرته مستثناة من ذلك نظرا لمركزه في بلاط الملك. فرمى الورقة بغضب وقال:

ـ متى يأتون؟

ـ قال لي أبي إنهم يأتون في هذه الليلة.

ـ لن أدعهم يقيمون أكثر من هذه الليلة في هذا البيت وسأستصدر غداً أمراً بسفرهم من هنا على الفور! أرى الشمس قد مالت إلى المغيب فأستودعك الله لأني لا أقدر على البقاء هنا.

ـ لا، لا تذهب الآن! انتظر فترة أخرى.

ـ لو استطعت لبقيت هنا لحين وصول أبيك، ولكن لا عذر لي عند الملك إن لم أكن في فرساي بالوقت المعيّن. انظري إني أرى فارساً أمام الباب قد ترجل، أرى عليه ثوب الجندية ربما كان رسولاً من عند أبيك

فنظرت الفتاة من النافذة إلى الشارع وقالت: لا بل هو الضيف الأميركاني.

ـ الضيف الأميركاني؟ ومن هو هذا؟ إني قضيت مدة في الخدمة العسكرية بكندا ولي أصحاب كثيرون هناك ربما كان هذا الشاب منهم.

ـ هو من الأقاليم الانكليزية يا أموري. لكنه يحسن لغتنا الفرنسية وكانت أمه فرنساوية.

ـ وما هو اسمه؟

ـ أظن أن اسمه أموس جرين وأبوه صديق أبي الحميم وشريكه في التجارة. وعلمت أن هذا الشاب قضى حياته في الغابات والجبال وكان أبوه أرسله إلى باريس ليرى شيئاً من مدنيتها ويقف على أخلاق أهلها ويقابل بعضهم.

لم تكن لحظة حتى دخل الضيف الأميركاني يحمل هدايا

كثيرة منها جلد ثمين فوضعها بين يـدي أديل قائلاً:

- اقبلي هذه يا سيدتي فقد أتيت بها من بلدي، لك.

فتناولتها منه أديل وسرت من نعومة الجلد الحريرية وقالت شاكرة: ما أجمل هذا الجلد يا سيدي جلد أي حيوان هو؟

- جلد ثعلب أسود قتلته في إحدى الغابات قبيل سفري.
ثم تقدم نحو أموري وقال مسلماً:

- لا شك أنك مسيو تيوفيل كاتينا صديق والدي الحميم.

- لا يا سيدي إن عمي خرج إلى المدينة ولم يعد بعد، فأنا القبطان دي كاتينا ولي الشرف العظيم بمعرفة حضرتك.

قالت أديل: إن والدي غائب لكنه لا يلبث أن يعود وأنا أرحب بك أيها الضيف العزيز. إن غرفتك مهيأة والخادم ينتظر الإشارة ليدلك عليها.

- غرفتي ولماذا؟

- كي تنام فيها يا سيدي.

- وهل من الواجب أن أنام في غرفة؟

- وضحك دي كاتينا طويلاً وقال: إن كنت لا تريد ذلك فلا تنم فيها.

فمشى الأميركاني في الغرفة حتى دنا من النافذة وكانت تطل على بستان مملوء بالأشجار فنظر منها وقال هوذا أشجار كثيفة يا سيدتي فاسمحي لي أن أحمل سريري إلى تحت واحدة منها وأنام في ظلها الظليل لأني معتاد على سكن الخلاء ورؤية المناظر الخضراء.

ـ فسأله دي كاتينا قائلاً: ألم تقطن حتى الآن في إحدى المدن؟

ـ إن أبي يقطن نيويورك أما أنا فقد قضيت غابر حياتي في الغابات.

قالت أديل: إننا لا نتمنى سوى إشراحك فنم حيثما أردت واصنع ما بدا لك.

ـ أشكرك يا سيدتي إنني خارج لربط فرسي واعداد سريري تحت تلك الشجرة.

ـ لا تتعب نفسك فإن الخادم بطرس سيفعل ذلك.

ـ إنني في غنى عن الخادم. وقد تعودت خدمة نفسي.

فقال له دي كاتينا: أنا أرافقك لأن عندي كلمة أقولها لك.

ـ إلى غد أيتها العزيزة أديل!

ـ إلى غد يا أموري.

خرج الشابان معاً ولما وصلا إلى البستان سأل أموري رفيقه:

ـ هل جئت من مكان بعيد؟

ـ جئت من «روان».

ـ وهل أنت تعب؟

ـ قليلاً.

ـ امكث مع الفتاة ريثما يعود أبوها.

ـ ولماذا هذا؟

ـ لأني مضطر إلى الذهاب وربما احتاجت الفتاة إلى أمر ما في غياب أبيها.

فلم ينبس «آموس» ببنت شفة بل انحنى قليلاً مشيراً إلى أنه مستعد للخدمة.

في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي كان أموري واقفاً يحرس باب القاعة المؤدية إلى الغرفة الملوكية وكل من الخدم والحرس في شغل شاغل لقرب موعد نهوض الملك من النوم. هذا يحمل الملابس الفاخرة وذاك المناشف الحريرية وآخر بقرب حلاّق الملك يحمل طبقاً كبيراً من الذهب الخالص والجميع متجهون نحو القاعة التي تحاذي غرفة الملك لويس الرابع عشر. وما هي إلا لحظة حتى فتح الباب وخرج منه رجل

يمشي على أطراف أصابع رجليه وأصبعه على شفته.

فقال: الملك لا يزال نائماً.

فتناول الحشم هذه الكلمة بصوت خفي. وكان ذلك الذي خرج من الباب، خادم الملك الخصوصي، ويدعى «مسيو بونتمس» فسار حتى اقترب من أموري فسلّم عليه:

- نهارك سعيد أيها القبطان «دي كاتينا».

- نهارك أسعد يا «بونتمس» هل نام الملك جيداً؟

- أجل.

- لقد أزف وقت استيقاظه.

- بل مضى.

- ولماذا لا تنبهه من نومه؟

- سأفعل بعد سبع دقائق ونصف.

- ومن يحرس الباب الكبير؟

- الماجور دي بريساك.

- وكم من الزمن تبقى هناك؟

- أربع ساعات.

- إعلم أن الملك أمرني بإنكار الدخول على مسيو دي فيفون فإذا أتى وحاول الدخول فبلغه أمر الملك.

ـ سأفعل.

ـ وأما تلك ـ أتفهم ما أعني بكلمة تلك؟ ـ الجديدة.

ـ أي مدام دي مانتنون.

ـ هي بعينها ـ لكن لا يذكر هذا الاسم بصوت عال كهذا ـ فإذا أرسلت كتاباً باسم الملك، فخذه وقدمه له بأسرع ما يمكن.

ـ سأفعل ذلك.

ـ وإذا أتت الأخرى. . . هل تفهم؟.

ـ أي مدام دي مونتبان؟

ـ لله درك خفض صوتك إذا أتت تلك فابعدها بكلام لطيف وعبارات رقيقة وافهمها أن الملك لا يريد حضورها. وإياك إياك أن تدعها تدخل إلى غرفته.

ـ حسناً يا بونتمس.

أزف الوقت ولم يبق سوى ثلاث دقائق.

ـ قال ذلك واقترب من كل واحد من الحشم سائلاً إذا كان تمّ إعداد كل شيء. ثم فتح الباب الذي خرج منه ودخل الغرفة الملوكية وكانت هذه واسعة للغاية وفي صدرها نافذتان تحيط بهما سجوف حريرية ثمينة ينفذ النور منها إلى الغرفة. أما عن

تلك المفروشات والرياش فحدث ولا حرج ولندع وصفها ولنعد إلى الخادم الذي اقترب من الملك وقال:

ـ صارت الساعة الثامنة والنصف يا مولاي...

ففتح الملك عينيه السوداوين وبعد هنيهة رسم شارة المسيحي على جبينه ثم قبّل ذخيرة صغيرة معلّقة على صدره بسلسلة ذهبية وجلس على فراشه ونظر حوله كمن يستجمع أفكاره.

ـ هل بلغت أوامري للحارس يا بونتمس؟

ـ نعم يا مولاي.

ـ ومن هو الحارس الآن؟

ـ القبطان دي كاتينا.

ـ دي كاتينا؟ أما هو ذلك الشاب الذي لجم فرسي في فونتينبلو؟ إني أذكره؛ أعط إشارة الدخول للخدم يا بونتمس.

فأسرع هذا إلى الباب وفتحه وأشار إلى الخدم فهبوا من مكانهم ودخل أربعة منهم بملابسهم الرسمية وتبعهم آخرون وانهمك كل واحد بالعمل المناط به.

حينئذٍ دخل اثنان عمر أحدهما ١٢ سنة تقريباً عليه ثوب من المخمل الثمين يزين صدره وسام مار لويس. والآخر كهل

يناهز الأربعين، عظيم الهيبة يرتدي الملابس السوداء ويلمع القصب على صدره وكميه. وما كان أشد شبه هذين الوجهين بوجه الملك حتى أن الناظر إليهما لا يلبث أن يؤكد أن ذلك الولد الفتى هو ابن الملك لويس الرابع عشر وولي العهد والثاني أخو الملك الأصغر.

وقد تبع هذين الداخلين بعض الوجهاء والأشراف الذين كثيراً ما كانوا يفتخرون بهذا الشرف المعطى لهم وهو امتثالهم أمام الملك عند نهوضه من النوم.

نهض الملك من سريره وجلس على كرسي بالقرب من النار ووقف الباقون حوله، فنظر إليهم شزراً وقال إني أشم رائحة عطرية في هذه الغرفة فمن هو ذاك الذي يستعمل الطيب هنا مع أنكم تعلمون أن ذلك ينافي ذوقي!

أخذ كل من الحاضرين ينظر إلى رفيقه مستفهماً وكان بونتمس يسير بينهم باحثاً عمن تطيب منهم إلى أن وقف أمام الكونت دي تولوز فانحنى قائلاً:

- هل الرائحة العطرية منك يا سيدي؟

وكان هذا الكونت ابن الملك وأمه مدام دي مونتبان وهو حديث لا يبلغ من العمر عشر سنوات فلما سمع كلام بونتمس

احمرَّت وجنتاه خجلاً واعتذر قائلاً: لعلّ الآنسة دي جرامون وضعت شيئاً من العطر في ملابسي على غير علم مني. . عفواً يا مولاي! . . .

فصاح الملك:

ـ خذوه من أمامي. أخرجوه من هنا للحال!

وبعد فترة دعا الحلاق وقال: لماذا لا تبدأ بعملك يا هذا قد فات الوقت المعيّن! . .

بعد مضي نصف ساعة ارتدى الملك حلته وخرج إلى قاعة الاستقبال حيث كان كثيرون من الوزراء والأعيان والشعراء والمصورين بانتظاره، فجلس وأخذ يحدّث بعضهم في شؤون المملكة بينما كان الشاعران الافرنسيان راسين وبوالو يتحدثان مع المهندس مانسار وكان هؤلاء الثلاثة من محسوبي الملك ولهم عنده معزّة وحظوة.

قال بوالو: لا أرى علامات السرور بادية على وجه الملك فلعله لم ينم في هذه الليلة.

فأجابه راسين: إن طباعه أضحت خشنة بعد ذاك اللين ولديّ أمر بالذهاب إلى غرفة مدام دي مانتنون في الساعة الثالثة بعد الظهر إذ يكون الملك هناك فأتلو على مسامعه بعض

منظوماتي الحديثة.

فقال المهندس: ألا تظن يا صاح أن حديث مدام دي مانتنون أشهى إلى قلبه وألذ في مسمعه من أشعارك؟

لله در تلك المرأة! ما أرق قلبها وأسمى فكرها إنها لامرأة عجيبة.

ـ وماذا ينقصها؟

ـ الشباب...

ـ الشباب!... لعمري أنها تكاد تظهر شابة لأن الناظر إليها يخالها ابنة ثلاثين سنة فقط.

لا تنس ملاحة عينيها ونعومة يديها، ولا تنس أن الملك تجاوز زمن صباه أيضاً.

ـ قال بوالو: ليس هذا كهذا.

ـ راسين: ولماذا؟

ـ مانسار: لأن تقدم الرجل في السن ليس إلا عارضاً ضعيفاً، أما كبر عمر المرأة فمصيبة عظيمة.

ـ راسين: إني أوافقكما على هذا الرأي لكن لا يبرح من بالكما أنه إذا كانت لذة الشاب بالنظر فلذة الشيخ بالسمع. وعلى أي الأحوال إن الحديث يسكر الأرواح ويفتح أبواب

القلوب «إن من البيان لسحر»، وما جمال الوجه وملاحة العينين سوى مسألة ثانوية.

إذاً فأنت متأكد من أن الملك يفضل الثانية التي تجاوزت الخامسة والأربعين من سنها على الأولى التي لا تتجاوز التاسعة والثلاثين وأنه لا يعبأ بجمالها وصغر سنها إزاء فصاحة الثانية ورقة حديثها وسلامة ذوقها.

إنك لفي خطأ مبين يا راسين.

ـ المستقبل خير شاهد ومن يعش ير.

ـ لكن إذا أتى المستقبل بعكس ما تعتقد يخشى عليك عند ذلك.

ـ ولماذا يخشى عليَّ يا بوالو؟

ـ لأن مدام دي مونتبان تتذكر أنك كنت من حزب منافستها فتنتقم منك.

إن أيام دولتها قد ولت وانقضت ولم يعد لها تأثير على الملك. أما تلك التي تدعوها منافستها فهي أهم امرأة في فرنسا وهي وحدها لها سطوة على قلب الملك الآن.

ـ إنك سليم القلب يا راسين أتظن أن لويس الرابع عشر الذي عرف أسرار الحب على اختلاف أنواعه وأشكاله يمكث

سحابة يومه جاثياً على ركبتي امرأة تكاد أن تكون عجوزاً ليسمع من فيها نصائح وعظات لا نهاية لها على حين يرى أجمل نساء فرنسا تنظر إليه بتلك العين التي تأخذ بالألباب وتفتن القلوب متوسلة إليه أن يتنازل ويرمقها بعين الرضى. كن على ثقة إن ملكنا تائب عن حب مدام دي مانتنون وانه عما قليل سيعود إلى مدام دي مونتبان أم أنه يعلق بإحدى الفتيات الشريفات اللواتي يلازمن قصره.

ـ يا عزيزي بوالو قد قلت لك وأعيد على مسمعك أيضاً إن شمس مدام دي مونتبان مالت إلى الغروب. ألم تسمع الخبر الجديد؟.

ـ لا لم أسمعه وأي خبر تعني؟

ـ قد أنكر على أخيها مسيو دي فيفون الدخول إلى غرفة الملك بأمر خصوصي من الملك نفسه طبعاً!

نهض بوالو من مكانه وقال بحماسة هذا أمر مستحيل.

ـ فقال راسين: ليس ذلك بمستحيل لأنه جرى.

ـ متى؟.

ـ في هذا الصباح عند نهوض الملك من النوم.

ـ ومن أخبرك بذلك؟

ـ القبطان دي كاتينا الحارس الخاص الذي بلغ هذا الأمر من الملك بواسطة بونتمس.

ـ مسكينة مدام دي مونتبان انها أقامت على العهود زمناً طويلاً وربما كانت تحب الملك حباً شديداً. . . مسكينة هي . . .

لكن أنظر إلى هذا الرجل الواقف عند الباب. هل تعرفه؟ من هو؟

فنظر راسين إلى حيث أشار بوالو فرأى رجلاً قد تجاوز الشبيبة طويل القامة تلوح على وجهه سيماء الهيبة والرجولية واقفاً بقرب الباب وقبعته في يده ينظر بكبر وازدراء إلى من حواليه من الناس، وما لبث لوفوا وزير الحربية أن أشار إليه بالدخول فمشى بقدم ثابتة ومثل أمام الملك وكان لويس الرابع عشر ذا ذاكرة غريبة فنظر إليه طويلاً ثم وجّه كلامه إلى وزير الحربية قائلاً:

رأيت هذا الشخص لآخر مرة منذ سنتين ومع ذلك لم أنسَ وجهه أما هو الكونت دي فرونتناك؟

أجاب لوفوا: نعم يا مولاي هو بعينه لويس دي بواد كونت دي فرونتناك حاكم كندا سابقاً.

فوجّه الملك كلامه إلى الكونت وقال إنّا سعداء بأن نشاهدكم من جديد وفي اعتقادنا أن برد كندا لم يؤثر على عواطف قلبكم نحونا ولم يقلل حرارة إخلاصكم في خدمتنا.

فانحنى الكونت احتراماً وقبّل يد الملك وأجاب:

ـ مولاي الموت وحده يزيل شعور قلبي نحوكم ويفقدني الاستعداد لخدمتكم.

ـ إننا لا نشك بأمانتكم وصدقكم وقد دعوناكم لنقف منكم على سير الأحوال في كندا وتهمنا معرفة الأحوال الدينية أكثر من الأحوال السياسية.

قل لي هل ارتد كثيرون إلى الدين الكاثوليكي؟

مولاي. إن دعاة الدين هناك من اليسوعيين وغيرهم يتلهبون غيرة على شريعة الله السامية حباً به تعالى، وقد اهتدى كثير من الناس على أيديهم غير أنهم لا يقتصرون على وظيفتهم الروحية بل كثيراً ما يتداخلون الأمور الخارجية التي ليست من شأنهم.

فالتفت الملك إلى مرشده اليسوعي الذي كان حاضراً وسأله: بماذا تجيب على هذا الكلام أيها الأب.

أجيب يا مولاي بأن من الحوادث الخارجية ما يكون له

علاقة بالأمور الدينية، ويجب على كل كاثوليكي صالح ولا سيما على كل راع غيور أن يتداخل فيه.

فبدت دلائل الغيظ على وجه الكونت دي فرونتناك وعلا وجهه الاحمرار لكنه ملك نفسه وقال: هذا صحيح ولكن بما أن جلالة الملك شرفني بتعييني حاكماً لتلك البلاد ومديراً لشؤون سياستها فأود أن لا يتداخل أحد بالأشغال التي لا تعنيه.

فقال الملك: كفى. كفى أنا سألتك عن الرسالات فقط.

مولاي إن الرسالات في تقدم يزداد مع الأيام والدين المسيحي، ينتشر بسرعة في تلك البقاع. فلا ترى غابة إلا نصب الصليب بين أشجارها الكثيفة ولا تقع عينك على ساحل نهر إلا وتنظر راية النصرانية خافقة عليه.

هذا ولا ينفك دعاة الدين من التجول في سائر الجهات حاملين إليها التعاليم الإنجيلية ناشرين بين تلك الشعوب الجاهلة اسم الله عزّ وجلّ.

قال الأب لاشيز اسمح لي يا مولاي أن أزيد على كلام حضرة الكونت، أن بين حملة الانجيل من يفقدون حياتهم بين المتوحشين في تلك الأصقاع.

فقال دي فرونتناك هذا صحيح يا مولاي فإن كثيرين من هؤلاء الأبطال يذهبون شهداء غيرتهم.

ـ فصاح الملك بغضب: كيف ذلك؟ كيف تدع أولئك المتوحشين القتلة الأشرار يعيشون بعد هذه الأعمال الفظيعة؟

ـ لقد طلبت منك نجدة يا مولاي.

ـ وقد أرسلتها لك.

ـ إنك لم ترسل لي سوى فرقة واحدة.

ـ نعم أرسلت لك الكارينيان سالير، وهي أحسن فرقة عندي.

ـ لكنها لا تكفي ويلزمني غيرها أيضاً.

ـ خذ من الكنديين أنفسهم ألا يمكنك إيجاد قوة كافية تلحق بهؤلاء القتلة ـ قتلة الكهنة الأبرار؟ وتذيقهم أمر العذاب جزاء ما أتت أيديهم.

أنا أعلم حق العلم أنك جندي باسل فحتام هذا التواني؟

فقال دي فرونتناك: ليس لمولاي إلا أن يتنازل ويسأل أولئك الذين رأوني في معركة سالزياخ «وفي بعض الحروب الأخرى ليتحقق إذا كنت هماماً باسلاً أم جباناً متوانياً».

ـ لا حاجة للسؤال إني لا أنسى شجاعتك.

ـ أنا جندي يا مولاي ولي بعض الخبرة في كيفية تنظيم الجيوش وإشهار الحروب، ولذلك أرى أنه يستحيل عليّ محاربة قوم يشبهون الأسود بطشاً وقوةً بعدد قليل من الجنود لا يستطيعون أمراً إزاء تلك الملايين من الرجال. فأسألك متجاسراً يا مولاي أنت الذي لك المعرفة التامة بأحوال الجندية والحروب.

ـ هل كان إشهار الحرب عليهم مناسباً؟

ـ لا، لا الحق معك أيها الكونت إن الحرب في ظروف كهذه لا تناسب أبداً لكني أعدك بأن أفكر في هذه المسألة.

ـ آه يا مولاي ما أشد السرور الذي أشعر به عند سماع كلامكم هذا، وكم يكون عظيماً فرح سكان سان لورانس عندما يعلمون أن أباهم المحبوب وملكهم العزيز يفتكر بهم رغماً عن نزوح المكان واتساع البراري والبحار الحائلة بينه وبينهم.

ـ ولكن لا أستطيع إرسال عدد كبير من الجنود إلى هناك لأن كندا قد كلفتنا كثيراً من الرجال والمال. ولا تنس أيضاً أننا بحاجة إلى جيش كبير لحروبنا في أوروبا.

ـ آه يا مولاي أتمنى من صميم الفؤاد لو ترى البقاع الجميلة، وما ثمّ من الأراضي الواسعة الخصبة فإذا حاربت

جنودنا في أوروبا ماذا تكسب يا ترى؟ وهل لها أن تحتل إلا بلاد قليلة مثل: «لوكسمبور وستراسبور» تضيفها إلى ملك ملكك السعيد.

أما هنالك يا مولاي. فعالم جديد ينتظرك. ويلوح لي أن أصواتاً عظيمة تخرج من تلك الغابات والآكام والأنهار تناديك وترجو منك أن تجعل اسم تلك الأرض فرنسا واسم ملكها «لويس» وتجعل رايتها زهرة الزنبق أي الراية الافرنسية.

فسرّ الملك لدى سماعه هذا الكلام وظهر حب الطمع على محياه وقال:

أيها الكونت: إنك بدون شك قد اكتسبت شيئاً مما اشتهر به الهنود من النصاحة، لكن قل لي: ألا يوجد بعض الأنكليز في تلك الأصقاع؟

- نعم يوجد. منهم من يحرث الأرض، ومنهم من يصطاد الأسماك.

- وما هي ديانتهم؟ أليسوا «كالفينست»؟

- أكثرهم «كالفينست».

- وهم يقطنون فيما أذكر بلدة تدعى «نيويورك».

- «نيويورك» كيف تدعونها؟

ـ «نيويورك».

نعم نيويورك ويوجد بلدة أخرى...

ـ ما اسمها هي؟

ـ «بوسطن» يا مولاي.

ـ صدقت وميناء تلك البلاد تفيدنا كثيراً فضلاً عما تكسبنا إياه من النفوس التي سنردها إلى المذهب الكاثوليكي. فقل لي الآن كم يلزمك من الجنود لفتح تلك البلاد وجعلها تابعة للمملكة الفرنساوية؟.

ـ بعد أن فكّر دي فرونتناك طويلاً قال: مولاي إن تلك الأرض لهي انكلترا الجديدة ولكي أجعلها افرنسية يلزمني خمسة عشر ألفاً من أحسن الجنود وعشرون بارجة.

ـ فنهض الملك وهو يقول: سأفتكر في هذه المسألة.

ثم التفت نحو الأب لاشيز وقال: قد أزف وقت الصلاة أيها الأب المحترم فلنذهب ونقدم واجباتنا لله تعالى. قال هذا وخرج من القاعة وتبعته حاشيته تمشي الهوينا نحو كنيسة القصر.

بينما كان لويس الرابع عشر يتجاذب الحديث مع أعوانه كان دي كاتينا يحرس باب القاعة. ودي كاتينا هذا قضى خدمته

العسكرية في كندا وأتى إلى فرنسا بالإجازة، وفي ذات يوم إذ كان يتنزه في ضواحي «فرساي» رأى فرساً على وشك السقوط في حفرة أمامه، وكان راكب الفرس الملك نفسه. فأسرع دي كاتينا وأمسك لجام الفرس بشجاعة غريبة غير مبال بالخطر الذي يتهدده فأنقذ الملك ونجا هو أيضاً. وكوفىء بجعله حارسا في البلاط. وفيما كان دي كاتينا يفكر في تقدمه السريع اقترب منه شخص هتف عند رؤيته قائلاً:

ـ آه يا سيدي دي فرونتناك هل تذكرني؟

ـ دي كاتينا أنت هنا. وكيف ذلك؟ إنك من زمن قصير كنت جنديا بسيطا وأراك اليوم بين حرس الملك فقد تقدمت تقدما عظيما.

ـ نعم، تقدمت يا سيدي. لكنني لست سعيداً أكثر من الماضي، بل إني أتلهف على الأيام التي قضيتها على شواطىء تلك الأنهار ذات الخرير الشجي وبين هاتيك الأشجار الخضراء.

ـ فتنهد فرونتناك وقال: بينما أنت ترتقي إلى أوج السعادة أهبط أنا إلى الحضيض: فإني دعيت من كندا وعيّن مسيو دي لابار حاكماً فيها بدلاً مني. وأنا أعرف أن ذلك الرجل ضعيف الإرادة غير ذي معرفة بالشؤون الإدارية فلا تمضي مدة قصيرة

حتى يحصل هنالك انقلاب عظيم، فأعاد إليها ثانية لإصلاح الأحوال هناك. هذا لا بد منه في المستقبل. أما الآن فها أنذا داخل على الملك لعلّي أقنعه بأخذ كندا آه لو كان تاج الملك على رأسي لغيرت تاريخ الكون بأسره...

ـ صه لا تخن ملكك أمام حرسه.

قال دي كاتينا هذا ضاحكاً وأشار إلى دي فرونتناك بالدخول إلى غرفة الملك، ثم نظر فإذا أمامه آخر يريد الدخول من الباب الذي دخله دي فرونتناك فمانعه قائلاً:

ـ سيدي أمرت أن أنكر عليك الدخول إلى جلالة الملك. وكان ذلك الرجل عظيم الهيبة يلبس ثياباً سوداء تلمع عليها الزركشة وهو مسيو دي فينون فلما سمع هذا الكلام حنق وقال: أينكر الدخول على مثلي أم اعتراك جنون؟

ـ هذا أمر الملك يا سيدي.

ـ هذا مستحيل! دعني أدخل.

ـ لا أقدر على مخالفة أمر الملك.

ـ دعني أكلمه كلمة واحدة.

ـ لا أستطيع يا سيدي.

فصرف مسيو دي فينون أسنانه وضرب الأرض برجله غضباً

وانقلب راجعاً في البهو المؤدي إلى غرفة شقيقته مدام دي مونتبان. وبعد هنيهة اقتربت من دي كاتينا فتاة سمراء اللون جميلة الهيئة وقالت:

ـ نهارك سعيد أيها القبطان.

نهارك أسعد أيتها الآنسة ناتون، ما الذي أراه في يدك؟

ـ هذا كتاب من مدام دي مانتنون إلى الملك أرجو منك أن تسلمه إياه بيدك.

ـ سمعاً وطاعة كيف حال سيدتك دي مانتنون؟

ـ الحمد لله على ما يرام.

لم يستطع دي كاتينا أن يتمم حديثه مع الفتاة لأنه رأى شبح امرأة تسرع نحوه. وكانت هذه الإمرأة طويلة القامة لم يرَ عمره مثل جمالها الرائع وعينيها السوداوين الزرقاوين الساحرتين. فرفع يده وأدى التحية العسكرية فابتسمت له مدام دي مونتبان وقالت بلطف:

ـ أنت الحارس الآن أيها القبطان؟

ـ نعم يا سيدتي.

ـ يسرني ذلك لأني أعرف أنك لي... اعلم أن الحارس الذي تقدمك غلط وأنكر على أخي مسيو دي فينون الدخول على الملك.

ـ بل أنا هو ذلك الحارس التعس الذي بلغ هذا الخبر إلى سيدي شقيقك.

ـ أنت؟ أنت القبطان دي كاتينا تجاسرت على ذلك.

ـ ذلك أمر الملك يا مولاتي.

ـ الملك لا يمنع أحداً من آل «مورتمارت» من الدخول عليه، ومن بلغك هذا الأمر؟

ـ بونتمس عن لسان الملك نفسه.

ـ هذا كلام ربما سمعته في الحلم أيها القبطان.

ـ حبذا لو كان ذلك!...

ـ لكن اعلم أن أحلاماً كهذه قد تأتي بالويل على الذي يحملها... اذهب وقل للملك إني هنا وأرغب في أن أكلمه.

ـ لا أستطيع يا سيدتي.

ـ ولماذا لا تستطيع؟

ـ لأن الملك أمرني بذلك.

ـ بماذا أمرك؟

ـ أن لا أحمل إليه مهمة تأتيه منك.

ـ ما هذا؟ ماذا أسمع؟ الملك يسمح لك أن تحمل له كتباً تأتيه من مدام دي مانتنون خادمتي وخادمة أولادي... وينهيك

عن نقل كلامي إليه. أنا... أنا فرنسواز دي مورتمارت مركيزة دي مونتبان.

ـ مولاتي: الأمر لمن له الأمر ولست موجوداً هنا إلا لأعمل بإرادة الملك.

ـ لا أحب أن أسمع كلاماً كثيراً ولكن أسألك لآخر مرة هل ترفض نقل كلامي إلى الملك؟

ـ أرفض بالرغم عني يا سيدتي.

ـ فإذاً أنا أكلمه بنفسي.

قالت هذا وتقدمت نحو باب القاعة فأسرع دي كاتينا وسدّ الباب بذراعيه وقال: أرجو يا سيدتي أن تفكري في ما أنت فاعلة!.

ـ دعني أدخل أيها السافل! إنني أريد مخاطبة الملك.

ـ لم تجر العادة بأن تدخل سيدة على الملك في وقت كهذا.

ـ أنا أكون أول من فعل هذا.

ـ فارتبك دي كاتينا ولم يدرِ ماذا يفعل كي يمنع تلك الامرأة، وقد أبرقت أسرته عندما فكر بأن وقت الصلاة قد حان وأنه لم يبقَ لخروج الملك من القاعة إلا بضع دقائق فانحنى

أمام دي مونتبان باحترام وقال: ألا تنتظرين قليلاً يا سيدتي فترين الملك حين يخرج إلى الكنيسة.

ـ لا أريد أن أنتظر هنا كخادمة في هذا البهو.

ـ إذاً سأحمل مهمتك إلى الملك: ماذا تريدين أن أقول له؟

ـ لقد رجعت إلى صوابك والحمد لله! فبلّغ الملك أني أريد مقابلته.

ـ هل أقول له ذلك بواسطة بونتمس؟

ـ لا بل قل له ذلك بنفسك.

بصوت عال لا بصوت منخفض.

ـ وهل أظهر له سبب هذه المواجهة؟

ـ ويحك تكاد تخنقني! اذهب وقل له أريد أن أراه لا غير.

إذ ذاك فتح الباب وخرج الملك فقال لدي كاتينا:

ـ هل من كتاب لي؟

ـ نعم يا مولاي.

فأخذ الملك الكتاب وخبأه في جيبه ومشى قليلاً فوقع نظره على مدام دي مونتبان فظهرت إمارات الضعف على وجهه ولكنه لم يلبث أن قال: لم أكن أنتظر هذا الشرف أيتها السيدة.

ـ وأنا لم أكن أتوقع هذه الإهانة يا سيدي.

ـ أية إهانة تعنين، إنك تنسين نفسك.

ـ بل إنني بريئة يا مولاي ولا ذنب لي.. وإن كنت مذنبة فمن العدل أن أجازى بغير إساءتكم لماذا تهين أخي؟

ـ وأي إثم ارتكبت يا مولاي سوى إني أعطيتك قلبي وأوقفت على رضاك حياتي؟

ـ ليس الآن وقت كلام كهذا.

ـ أين أراك إذاً يا مولاي؟

ـ في غرفتك.

ـ متى؟

ـ الساعة الرابعة بعد الظهر.

ـ لا أريد تصديع خاطر جلالتكم بالكلام الطويل الآن.
نظرت إليه نظرة طويلة عقبتها ابتسامة فتانة وذهبت بعد أن انحنت احتراماً والفرح ملء قلبها، والبشر باد على وجهها لا ترتاب في استرجاع قلب لويس الرابع عشر.

ذهب الملك إلى الكنيسة لتأدية فريضته الدينية. ولكن أنّى له ذلك وشخص مدام دي مونتبان ممثل في خاطره بهيئة عدوة متهكمة، وهو عليم بمقدرتها ودهائها ومكرها ودرابة

لسانها فخشي أن تحول هذه القوى الغريزية فيها ضده للانتقام منه إذا تحققت أنها لم يعد لها منزلة في فؤاده، وحذر أن تجعله موضوع هزء وسخرية ليس فقط في فرنسا بل في سائر جهات أوروبا.

جثا الملك على ركبتيه ووضع رأسه بين كفيه وأخذ يفكر في وسيلة تنقذه من شر لسان تلك الامرأة الهائلة. ثم رجع يفكر إلى ماضي حياته فذكر نسوة أخر أحبهن وأحببنه ثم رغبن عنه عندما رأينه خائناً بعهوده، ثم ذكر أن مدام مونتبان لا تشبه هؤلاء النساء إذ إنها لا تحبه فلا يصعب عليها الابتعاد عنه وإنه لم ينزلها في هذه المنزلة الرفيعة إلا لانعطافه نحوها. فكل أهل البلاط من الملك نفسه إلى أدنى حارس، أمسى يهابها ويظهر لها الاحترام والاعتبار لأنها كانت منذ ١٥ سنة السائدة الحاكمة في فرنسا، ولا أمر للملك إلّا بعد استشارتها. فصمّم النيّة على إبعادها عنه بأقرب وقت وأن يجعل لها راتباً سنوياً يقيّض لها أن تعيش عيشة رغيدة كما لو كانت مقيمة في البلاط الملوكي.

وذلك لأن نظرات مدام دي مانتنون نفذت إلى أعماق قلبه، وكاد سحر لحظيها يذهب بلبه كما أن رنات صوتها كانت أثملته.

كانت مدام دي مونتبان قد أحضرت مدام دي مانتنون

لتربية ولديها الدوق دي مان والكونت دي تولوز، وكان الملك في بدء الأمر، يذهب إلى غرفة الدوق ليرى كيفية تلقينها العلوم. وعندما وقع نظره على وجه تلك الامرأة شعر بانعطاف شديد إليها. ففاتحها بحبه فعفت ولم تعر كلامه جانب الاصغاء وأفهمته بعبارات لطيفة أن أحاديث كهذه لا تزعجها فقط بل ربما حملتها على تقديم استعفائها من وظيفتها ومغادرة القصر. فكانت نتيجة هذا التعفف والتمنع أن ازداد شغف الملك بتلك الامرأة الباسلة وتحقق أنها من النساء اللواتي يحترمن أنفسهن ويعرفن كيف يحملن الغير على اعتبارهن. فأطاعها ولم يعد يعارضها بذلك. لكن ذكرها أضحى شغله الشاغل، وكان يعتبر الساعات التي يقضيها بقربها في غرفة التدريس أسعد ساعات حياته ـ ولما رأى ما هي عليه من سعة المعارف وسمو القدر وطلاوة الكلام عظمت ثقته بها وأصبح يستشيرها في أموره عاملاً بمشورتها ونصائحها إلى أن اطلع الأب لاشيز مرشده على سره، فحثه على الابتعاد من مدام دي مونتبان، ونصحه بأن يترك أوهام الشباب وملاهيه ويذكر أنه قضى ستاً وأربعين سنة من سنيه فيجب عليه أن يفكر قليلاً في الحياة الأخرى؟

فخرج الملك من الكنيسة وهذه الأفكار تدور في خلده.

وقد جرت العادة بأن يأتي إليه بعض المتسولين في مثل

تلك الساعة فيتصدق عليهم، واتفق أن جاءه عندئذ ثلاثة نفحهم بما تيسّر ثم أتى رجل آخر فارتمى على قدميه وأخذ يقول: إرحمني يا مولاي إرحمني.

ـ من أنت وما الذي تطلبه؟

ـ أنا من باريز يا مولاي، وقد نزل عليّ عشرون جندياً من «الدراجون الأزرق» فأكلوا خبزي وأتلفوا أشجاري وجلموها وضربوا خدمي، ولا منجد لي.

ـ فقال الملك ولم لا تدعو رجال الشرطة؟

ـ إنهم يأبون إغاثتي يا مولاي.

ـ أيمكن حدوث أمر كهذا في مملكتي؟ أين العدل إذاً؟

ـ فقاطعه الأب لاشيز وقال: تنازل يا مولاي وسل هذا الرجل عن اسمه ومهنته ولماذا يضيفه «الدراجون الأزرق».

ـ أجب يا هذا على سؤال حضرة الأب.

ـ اسمي يا مولاي دي كاتينا وأتعاطى التجارة وقد احتلت الجنود منزلي لأني كالفينست.

ـ فقطّب الملك حاجبيه وقال: دواؤك في يدك أيها الرجل.

ـ كيف وما هو دوائي يا مولاي؟

ـ الرجوع إلى الدين الحقيقي الكاثوليكي.

ـ أنا عضو منه يا مولاي.

ـ فضرب الملك الأرض برجليه غضباً وقال: أراك كافراً جريئاً، اعلم أنه لا يوجد في فرنسا إلّا ديانة واحدة وهي ديانتي فإن كنت خارجاً عنها فعبثاً تطلب مني عوناً.

ـ مولاي. إن مذهبي لهو مذهب آبائي وأجدادي.

ـ أولئك كانوا جهلاء ولا ينبغي أن تكون جاهلاً مثلهم.

ـ إذاً أنت تأبى أن تساعدني يا مولاي؟

ـ عليك أن تساعد نفسك أولاً.

فنهض الرجل عندئذ وعلامات الحزن والقنوط بادية على محياه، أما الملك فأعرض عنه ومشى ودنا منه الأب لاشيز فقال:

ـ خيراً صنعت يا مولاي.

ـ فقال بوسويه الذي كان يتبعه: لله درك يا بطل الكنيسة الكاثوليكية وخليفة مار لويس. على أن الملك ما برح سائراً ودلائل الامتعاض بادية على وجهه فقال:

ـ ألا تظنان أن عيشة هؤلاء المساكين أضحت لا تطاق،

وقد قيل لي إنهم يهاجرون من مملكتي زرافات، زرافات.

ـ لا تغضبك مهاجرتهم يا مولاي إذ أي خير تبتغي من هؤلاء الجاحدين ومن لا يكون مخلصاً لك وكيف ترجو منه الأمانة. دعهم يذهبون يا مولاي إلى حيث شاءوا.

ـ لكن لا يبرح من بالك أن جدي وعد بحمايتهم في ذلك القرار المعروف بقرار «دي نانت».

ـ إن ذلك القرار يتعلق بجلالتكم الآن.

ـ ماذا تعني بقولك هذا؟

ـ أعني أنك إذا ألغيت ذلك القرار ألغي الوعد الذي يتضمنه.

ـ لا. لا أفعل ولن أفعل هذا أبداً فبالغائي هذا الأمر ألغي راحة ملايين من شعبي وأعرّض حياتهم لأخطار الأقدار... وإن ما قاله دي فرونتناك صبيحة اليوم من أنه لا يجب أن نمزج الأشياء الدينية بالأشياء السياسية لهو قول صائب فيما أرى.

ـ فقال لوفوا إنني على رغم احترامي للكنيسة لا أستطيع أن أقول إلا أن هؤلاء الكالفينست هم خيرة الشعب والجنود الأشد أمانة وإخلاصاً وبسالة. وكان الملك وحاشيته قد وصلوا إلى القاعة الكبيرة حيث كان بعض الوجهاء بانتظار الملك

فذهب لويس الرابع عشر تواً إلى مانسار يحدثه بأمور تتعلق بتنظيمات بستانه الجديد. واقترب حينئذ الأب لاشيز من بوسويه وقال له بصوت منخفض:

ـ لا أعلم ماذا يجب أن نفعل لكي نؤثر على فكر الملك في طرد البروتستان من فرنسا.

ـ يجب أن نستجير بمدام دي مونتبان.

ـ تلك قد ذهبت أيامها أما الآن فالدولة لمدام دي مانتنون.

ـ إسمع. إنها على جانب عظيم من التقوى.

ـ نعم وأظن أن حب الملك لها سيفضي إلى زواجه بها.

ـ ماذا تقول هذا لا يمكن؟

ـ لماذا، للملك أن يتزوج بمن يريد ما دام أن الملكة توفيت.

ـ الملك يتزوج بأرملة الشاعر المخلع «سكارون».

ـ لكنها من عائلة عريقة في الحسب والنسب وجدها وجد الملك كانا مرتبطين بصداقة متينة العرى.

ـ أقول وأكرر إن هذا لا يمكن أبداً.

ـ وأنا أعيد على مسمعك أن هذا سيحدث قريباً.

ـ لا أقدر أن أصدق هذا الكلام.

ـ إن لم تصدقه الآن فأنا أدع المستقبل يقنعك بصحته.

ـ ظل تيوفيل دي كاتينا بعد ذهاب الملك واقفاً بدون حراك يفكر في وسيلة يتخلص بها من الجنود النازلين في بيته، وكان حزين النفس يناجي ذاته ويسأل الله المساعدة. وإنه لكذلك إذ رأى رجلين يقتربان منه وهما الحارسان الموكولة إليهما حراسة تلك الجهة من القصر وكانا قد سمعا كل ما دار من الحديث بين الملك وبينه فدنا منه أحدهما وقال له بغلظة:

ـ إن لم يكن لك من مهمة بعد فاذهب إلى عملك.

ـ وقال رفيقه عد إلى عملك أيها الأحمق الذي لا يبالي بسخط الملك، من أنت يا هذا حتى تكون على مثل هذه العجرفة والتمسك في ديانتك؟

فغلى دم تيوفيل كاتينا في عروقه ونظر إليهما نظرة ظهر فيها ما في قلبه من البغض والكره والحنق، وقال بصوت عال وغضب لولا تقدمي في السن وابيضاض شعري لعاقبتكما على هذا الكلام أيها النذلان.

فقال أحدهما أتجسر على محادثتنا بهذه اللهجة وتهديدنا بهذه العجرفة نحن جنود الملك... ـ ثم التفت إلى رفيقه وقال: ـ هيا بنا نقبض عليه ونطرحه في السجن.

قال هذا وهجم الإثنان على ذلك الشيخ فدفعهما بيديه

بقوة شديدة جداً كادت تعفر وجهيهما بالثرى، ولكنهما عادا فهجما عليه ثانية فقاومهما بشجاعـة.

وظل الشجار والقتال دائراً بينهم إلى أن سمع وقع أقدام بالقرب منهم وكان ذلك القادم القبطان دي كاتينا. فلما رأى هذا ما رأى انتضى سيفه من غمده وشهره على الحارسين وصاح بصوت ملؤه الغضب:

ـ ارفعا أيديكما عن هذا الرجل خسئتما أيها النذلان.

ـ فامتثل الحارسان ورفع كلّ منهما يده مؤدياً التحية العسكرية وقال أحدهما معتذراً:

ـ هذا الرجل يا سيدي يتهدد حرس الملك.

ـ وقال الثاني أبى الملك أن يصغي إلى كلامه وهو مع ذلك يأبى الانصراف.

ـ فقال القبطان وهو يتميّز غيظاً: إذاً فالجرم الفظيع الوحيد الذي ارتكبه هذا الرجل هو أنه أتى يلتمس من ملكه منة وسافلان سويسريان مثلكما عاقباه على ذلك بالضرب والإهانة.

ثم أخرج من جيبه صفارة صغيرة فضية نفخ فيها فإذا بستة جنود أقبلوا مسرعين تحت امرة أحد الضباط فقال لهم دي كاتينا: اقبضوا على هذين الرجلين وخذوهما من أمامي.

وبعد ذهاب الجنود دنا العم من ابن أخيه فشكره وقال لم آمل أن أراك هنا يا أموري، ولا أنا أيها العم.

ـ ما الذي أتى بك إلى فرساي؟

ـ حاجتي التي لا يستطيع قضاءها إلاّ الملك.

ـ الملك طيب السريرة جداً لكنه لا يعرف من العالم إلاّ ما يحيط به ولا يأتي بعمل إلاّ بعد استشارة أصدقائه. فثق بكلامي ولا ترج منه شيئاً.

ـ لقد رفض طلبي ونبذني.

ـ وهل سألك ما اسمك؟

ـ أجل وقد أوقفته عليه. لكني أعجب يا أموري كيف تستطيع أن تعيش في هذا القصر بدون أن تغيّر دينك!

ـ إني أحفظ ديانتي في قلبي.

فهز تيوفيل كاتينا رأسه وقال: كيف يمكنك أن تكون مع الله يا أموري إن كنت تخدم الذين يضطهدون شعبه؟.

ـ إني جندي من جنود الملك يا عماه، فعليّ أن أعيش بشرف وأموت بعد تتميم واجباتي، وكل شيء آخر لا يهمني.

ـ أجل لا يهمك أنت الذي تعيش في القصور الشاهقة

وتجلس على الموائد الملوكية، لا يهمك خراب بيوت أصدقائك وخلانك ولا دموعهم ولا توسلاتهم، آه يا أموري.

ـ ماذا حدث أيها العم؟ أناشدك الله أخبرني ماذا جرى؟

ـ عشرون جندياً من فرقة «الدراجون الأزرق» نزلوا بيتي تحت رئاسة القبطان داليبر، وهم يأكلون، ويشربون ويلعبون غير مبالين بي فتحملت منهم كل شيء بلا تذمر وقد ضربوا الخدم وكسروا الأواني فلم أتذمر أيضاً ولكن لا أحتمل أن أراهم يهينون أديل ويسمعونها تلك العبارات التي لا يليق أن تسمعها فتاة.

فصاح أموري من شدة الألم الذي أحدثه في نفسه هذا الخبر وشعر أن الأرض تميد به وسار مع عمه مسرعاً فاقداً الرشد لا يعي إلى أن بلغ باب القصر الخارجي فسأله:

ـ كيف أتيت؟

ـ أتيت في عربة.

ـ وأين هي الآن؟

ـ إنها تنتظرني بين تلك الأشجار.

ـ أسرع بنا إليها.

ـ وهل أنت ذاهب معي؟

ـ لا شك في ذلك.

ـ ولماذا؟

ـ لي كلام مع القبطان دالبير.

ـ بارك الله فيك إني أخطأت عندما اتهمتك بأنك لا تحب ديانتك وشعبك.

ـ أنا لا أعرف ما شعبي وديانتي. ولكن أعلم أمراً واحداً فقط وهو أني إذا رأيت أديل تعبد الشمس، أو البحر أو الأصنام عبدتها مثلها، وجعلت إلهها إلهي. ووطنها وطني.. وويل لذاك الرجل الذي يضع يده على يدها الطاهرة. نعم ويل له وألف ويل.. ها هي العربة سر أيها السائق بسرعة وإذا أوصلتنا إلى باريز بعد ساعة كافأتك.

قطع المسافران نصف الطريق تقريباً دون أن ينبسا ببنت شفة وكان كل منهما مستغرقاً في هواجسه ثم إن أموري رفع رأسه وقال:

ـ متى جرى كل هذا؟

ـ مساء أمس.

ـ وأين هي أديل الآن؟

ـ في البيت.

ـ والقبطان دالبير؟

ـ هنالك أيضاً.

ـ وكيف تركتها في قبضة ذلك اللعين وأتيت إلى فرساي؟

ـ أقفلت عليها باب الغرفة وأخذت المفتاح معي... ها هو.

ـ وهل أموس جرين هنالك؟

ـ أجل وهو رجل شجاع للغاية. تركته مع القبطان داليير يمجان لفائف التبغ معاً وكان أموس يقص عليه أخباراً غريبة عن أمريكا.

ـ أخطأت بترك أديل وحدها يا عماه.

ـ إنها في حماية الله.

ـ آه إني على أحر من الجمر.

لم تمض برهة وجيزة حتى وصلا إلى البيت فوجداه محاطاً بجمع غفير. كان على شرفة الدور الثاني رجلان يتعاركان. عرف دي كاتينا أنهما القبطان داليير وأموس جرين. وكان هذا الأخير ممسكاً القبطان برجليه يحاول أن يرمي به إلى الشارع وداليير يصيح من فرط الفزع ويستغيث بمن حول البيت ويقول:

ـ هل تقصد الفتك بي ألا تعلم أني من جنود الملك وأن الذي يهينني يكون مذنباً كما لو أهان الملك نفسه؟

ـ كرماً أتركني ساعدوني أيها الناس!

ـ فقال أموس وهو يضحك هل تريد أن تحيا؟ وهل تروم خصوصاً أن أترك الحرية لرجليك؟

ـ الأمان، الأمان.

ـ إذن مر جنودك بالذهاب من هنا.

ـ سمعاً وطاعة: ويحكم أيها الجنود اخرجوا من هنا للحال إذا أردتم أن لا تروني مقطعاً إرباً.

ـ هون عليك يا صاح هل ترى نفسك عصفوراً في مهب الريح.

ـ ارفعني استحلفك بالآلهة.. أكاد أسقط...

ـ لا تخف أيها البطل إن يدي قوية.

ـ ارفعني إذاً.

ـ انتظر قليلاً فلي كلام أقوله لك قبل أن أراك واقفاً على رجليك.

ـ ويحك إنك تريد قتلي.

ـ بل عزمت على إبقائك.

ـ بارك الله بهذه الهمة.

ـ لكن على شرط

ـ كل الشروط التي تطلبها مني أوقع عليها سلفاً فقط ارفعني قبل كل شيء.

ـ يجب أن تخرج من هذا البيت حالاً في هذه الدقيقة أنت ورجالك دون أن تمس أحداً أو شيئاً بأدنى ضرر.

ـ سأفعل... سنفعل فقط ارفعني.

ـ أتقسم بشرفك.

ـ بدون شك. فقط ارفعني.

رفعه أموس وأوقفه على قدميه دون أن يظهر تعباً كأنه ريشة في يده، ولم يكد القبطان داليبر يقف حتى ضرب باب الغرفة برجله. ووثب إلى الداخل وعيناه تقدحان شرراً من شدة الغيظ.

وكان دي كاتينا قد دخل مع عمه إلى البيت فوجد الخادم الذي صاح مستغيثاً بهما وقال: آه يا سيدي إنهم سيقتلونه بلا شك.

ـ من! يقتلون من؟

ـ الشاب الأمريكاني إنهم سيقتلونه لا محالة.

ـ عند ذلك سمعت جلبة وصليل أسلحة في الدور الأعلى فأسرعا إلى الجهة التي خرج منها الصوت، وفيما كانا صاعدين وجدا أربعة جنود يحاولون تنزيل أموس، وهم يوسعونه ضرباً ولكماً غير قادرين على تحريكه من مكانه. فتواثب دي كاتينا

درجات السلم ثلاثاً ثلاثاً وصاح بأحدهم ويحك أيها الوغد اللئيم، ثم التفت إلى القبطان وقال: عندي كلام أقوله لك.

ـ قال داليبر أنا موجود هنا بأمر الملك.

ـ إذن جرد سيفك واتبعني.

ـ ما من سبب عندي لمبارزتك.

ـ فاقترب منه دي كاتينا وصفعه على وجهه وقال أظن أن هذا سبب كاف فاستشاط داليبر غضباً وصاح: اسرعوا أيها الجنود واقبضوا على هذا الرجل، أقبضوا عليه باسم الملك. فضحك دي كاتينا وقال متهكماً لا تحاربني بجنودك بل حاربني بيدك، كجندي باسل.

ـ أأتنازل وألطخ يدي بدم رجل دنيء مثلك أنت ابن بائعة الثياب...

ـ ويحك يا نذل! سأكتب اسمك بسيفي. هل تعلم ما هو اسمك؟ اسمك جبان، نذل لئيم!.

قال هذا وهجم على داليبر بسيفه ولو لم يحل الجنود بينهما لكانت هذه الضربة القاضية. ثم أراد أن يهجم عليه ثانية لكن يداً أوقفته وسمع صوتاً يكلمه فنظر إلى صاحب الصوت فإذا هو بطل «روكروا» أي كوندي الكبير ذلك القائد الباسل والجندي الشجاع، فرفع دي كاتينا سيفه وسلّم عليه: فقال له

كوندي يخال لي أني رأيتك قبل الآن، أظن أنك كنت من جنود تورين لا من جنودي.

ـ نعم يا مولاي واسمي دي كاتينا.

ـ نعم، نعم.

ثم التفت إلى داليبر وقال ومن أنت؟

ـ القبطان داليبر يا مولاي من فرقة الدراجون الأزرق.

ـ بينما كنت سائراً في مركبتي نحو فرساي رأيتك في حالة غريبة رأسك إلى أسفل ورجلاك إلى فوق فضحكت كثيراً ثم سمعت ما دار بينك وبين هذا الشاب مشيراً إلى أموس من الحديث ووعدك له بالانصراف.

ـ فقال أموس وعدني بالانصراف للحال، وحينما تخلص من الخطر وثب عليّ هو ورجاله.

ـ فقال كوندي علامَ تنكث بعهدك أيها القبطان؟

ـ أنا لا أعد من كان عدواً للملك.

ـ بل تعد وليس في طاقتك أن تفي.

ـ ثم التفت إلى أموس وقال: ولماذا تركته أيها الشاب؟

ـ لأني صدقت وعده.

ـ فإذاً أنت تعرف قيمة الوعود، وان كلام الرجل وشرفه سيان.

ـ نعم يا مولاي. وقد شبّيت على هذه المبادىء واعتدت عليها مع الهنود.

ـ هل تظن أن الهنود يفضلون جنود الملك في هذه المسألة؟

ـ غدوت أعتقد هذا بعد أن حدث لي ما حدث مع هذا الرجل.

ـ وهل أنت من كندا؟

ـ تجولت فيها وعرفتها جيدا، إنما أنا من «نيويورك».

ـ أهي جزيرة؟

ـ لا بل هي مدينة يا مولاي.

ـ في أي ولاية؟

ـ في ولاية نيويورك.

ـ وما اسم عاصمة هذه الولاية؟

ـ اسمها «الباني».

ـ وكيف تعلمت إذاً اللغة الفرنسوية؟

ـ كانت أمي فرنسوية.

ـ وهل أنت في باريس من زمن طويل؟

ـ منذ اليوم فقط.

ـ فقط. وكيف تجاسرت على المشاجرة مع ضباط الملك؟

ـ كان هذا الضابط يتكلم كلاماً بذيئاً أمام الفتاة ابنة صاحب هذا البيت ـ فسألته أن يمتنع عن ذلك فأبى ، فعاملته كما رأيت يا مولاي ، وبعد أن وعدني بالذهاب وثب عليّ هو وجنوده ولولا مساعدة صديقي القبطان دي كاتينا لفتك بي .

ـ حسناً سمعت أنك شجاع . ثم التفت إلى داليبر وقال : وأنت ماذا تقول أيها القبطان؟

ـ أقول إني عملت بأمر الملك .

ـ وهل أمرك الملك أن تهين هذه الفتاة؟

ـ لا! إنما أمرني باتخاذ سائر الوسائل أنا وجنودي لإرجاع هؤلاء الجاحدين إلى ديانة الملك .

ـ بارك الله في هذه الهمة ، وهذه الوسائل التي تتخذها .

أنا آمرك الآن أن تخرج من هنا بسرعة أنت ورجالك دون أن تضع رجلك ثانية في هذا البيت .

ـ لكن أمر الملك يا مولاي .

ـ سأقص عليه كل ما جرى وأخبره بأن جنوده ليسوا سوى لصوص ، وقطاع طرق . اخرج حالاً من هنا واحمل عارك على جبينك وجر شرفك وراءك .

قال كوندي هذا بخشونة وعنف ولم يستطع القبطان داليبر

إلا أن يطيع فخرج مع رجاله دون أن يفوه بكلمة.

فاقترب تيوفيل كاتينا من كوندي فشكره وقال إنك انقذتني وأنقذت أهل بيتي وحميت شرفي يا سيدي الأمير فتنازل واقبل كأساً من الخمر الجيدة عندنا قبل أن تغادرنا. فأشار كوندي إشارة قبول ودخل إلى غرفة الاستقبال ونظر إلى ما حوله فرأى من الأثاث النفيس والرياش الفاخر ما يجعل هذه الغرفة شبيهة بقصور الملوك ثم قال: إن مركبتي تنتظرني ولا أستطيع المكوث هنا إلا قليلاً ومن عادتي أن لا أغادر قصري في «شانتيلي» إلا نادراً فأحمد الله على هذا الاتفاق أي اتفاق مروري من هنا في الساعة التي كنتم فيها متضايقين وقد خدمتكم من صميم قلبي، أظن يا مسيو كاتينا أنك لا ترتاح ما دمت في فرنسا.

ـ حقاً يا سيدي إن القانون شديد علينا جداً.

ـ وربما يكون في المستقبل أثقل، ولِم لا تغادر فرنسا؟

ـ لأن أشغالي وواجباتي تتطلب مني أن أبقى هنا.

ـ أنت أعلم مني بما يوافقك غير أني أرى الفرار وقت الخطر أمراً واجباً على كل إنسـان . . . والآن قل لي أين الفتاة التي سببت المعركة؟

ـ فقال كاتينا لخادمه: أين أديل ألم تفتح لها باب الغرفة بعد؟.

ـ فتحته.

ـ أين هي إذاً؟

ولم يكد ينتهي من عبارته حتى سمع من الخارج صوتاً يقول ها أنذا يا أبتاه ثم دخلت الفتاة مسرعة إلى أبيها وارتمت إلى عنقه وقبلته وقالت:

ـ هل أصابك سوء؟

ـ لا أيتها الحبيبة، إننا سلمنا جميعاً بفضل الأمير «دي كوندي».

ـ فنظرت إلى الأمير وقالت بلهفة كافأك الله عنا خيراً يا سمو الأمير.

ـ فقال: «دي كوندي» أقسم لك بشرفي أيتها الآنسة إنني عندما وقع نظري عليك الآن وددت لو كان عمري أقل مما هو الآن بأربعين سنة، لو كان هذا لكان حظ فرنسا عظيماً جداً.

قال دي كوندي أرى ابنتك سريعة الخاطر يا مسيو كاتينا فأهنئك بها وإنها لجديرة أن تكون في البلاط الملكي. ثم التفت إليها وقال: ألا تحبين عيشة القصور حيث المجد والعز دائماً.

ـ حيث يكون والدي أكون سعيدة ولا أطلب من الدنيا غير هذا.

ثم نهض دي كوندي وشيعه الجميع إلى الباب بعد أن كرروا له عبارات الشكر وآيات الامتنان. ولمّا سارت المركبة به في الطريق المؤدية إلى فرساي انقلبوا راجعين إلى البيت حيث ضغط كاتينا على يد أموس جرين وقال:

إننا مدينون لفضل الأمير لكني مدين لك أكثر أيها العزيز لأنك خاطرت بحياتك من أجلي، فثق أنني لا أنسى هذا ما دمت حياً. بارك الله فيك يا أموس لأنك لو كنت ولـدي لما دافعت عن بيتي وشرفي أكثر مما فعلت.

ـ حار أموس في أمر الجواب على هذه التشكرات واحمرّت وجنتاه حتى غدتا كوجنتي فتاة حية وقال بسذاجة: لي أم وشقيقتان في بلدي.

ـ فهمت ما عنيت أنك تدافع عن السيدات لأن لك ممن عندك دافعاً لصيانة الأعراض.

ـ إننا نكرم السيدات كثيراً في وطننا وربما كانت هذه المزية الوحيدة المحمودة فينا.

ـ فقالت أديل كاتينا حقاً إنه لفرض واجب عليّ شكرك على همتك.

ـ وقال أموري إلى متى تمكث في باريس؟

ـ إلى أن يأتي افرام سافاج.

ـ ومن هو هذا؟

ـ نوتي في سفينة لوالدي ذهب إلى بريستول وعاد منها إلى روان لقضاء بعض أعماله وسيأتي إلى هنا فنذهب معاً عائدين إلى البلاد.

ـ هل تحلو لك الإقامة في باريس؟

ـ قيل لي إنها كثيرة الحركة واتضح لي مما رأيته فيها هذا الصباح أنها أعظم مدينة تكثر فيها الحركة إلى حد نادر.

ـ هل جلت في المُدينة؟

ـ قليلاً، ولكن أعرف كيف يقدر السكان على معرفة الطرق إن ذلك يسهل في الغابات حيث يرى الإنسان الأشجار والأنهار بقدر ما يصعب في المدن حيث أكثر الشوارع متماثلة وسائر المنازل متشابهة الشكل والبناء، ولا أعلم أيضاً كيف يفعل السكان ليحفظوا صحتهم إذ إن العيشة في المحال الضيقة تضر كثيراً بالصحة.

ـ فقالت أديل: وكيف تفعل لتجد طريقك بين أشجار الغابات؟ ولا سيما متى سرت هنالك ليلاً. إن هنا المصابيح كثيرة تنير الشوارع وتريك اسماءها.

ـ هنالك أرى النجوم.

ـ إن النجوم هنا وهنالك واحدة لا تتغير.

ـ أجل إنها لا تنتقل من أماكنها في القبة الزرقاء، غير أني هنا أرفع رأسي كثيراً ويكاد يحصل لي صداع أليم وكثيراً ما أحملق بعيني ولا أرى النجوم لأن البيوت الشاهقة تحجبها.

فقهقه الجميع. ثم قال دي كاتينا إني ذاهب الآن إلى فرساي وبودي أن أكون دليل أموس في مدينتنا يا عماه فاعطنا فرسيك لنركبهما ولا ريب في أن ذلك يسرك يا مسيو جرين؟

ـ يسرني جداً ولكن هل تستطيع مغادرة هذا البيت بدون خطر؟

ـ كن مطمئن البال من هذا القبيل إذ إن أمر البرنس دي كوندي لا يخالف.

ـ شرع أموس بارتداء ملابسه في حجرة أخرى بينما خلا أموري بأديل وما أدراك ما قاله كل واحد من الحبيبين للآخر بعد نجاتهما من الخطر!

أخيراً أتى الخادم وأعلم أموري بأن الجوادين أعدّا وأحضرا فأهاب هذا بأموس الذي عند دخوله أخذ دي كاتينا يقلب نظره فيه من الرأس إلى القدمين ثم قال له:

ـ من أين هذه الملابس؟

ـ اشتريتها من نيويورك قبل سفري.

ـ قال دي كاتينا ضاحكاً: إن هذا اللون القاتم يوافق الذوق العصري لكن هذين الشكل والزي غريبان.

ـ أنا لا أبالي بثوبي وحسبي منه أن يستر الجسم.

ـ فلننظر الآن إلى القبعة.

ـ فقاطعه أموس وقال: أناشدك الله دعنا من الانتقاد والمزاح وهلّم بنا نذهب. هل آخذ بندقيتي معي؟

ـ علام؟ ذلك يوهم أننا لصوص فيقبض الشرط علينا.

ـ إذاً لا بد من أخذ الخنجر؟

ـ دعنا من الخناجر والبنادق فما نحن ذاهبان إلى حرب بل للتجول في المدينة.

ـ خرج الإثنان ممتطين جواديهما وقد امتاز كل منهما عن الآخر فكان دي كاتينا حسن البزة طويل القامة، نحيف الجسم يمثل الشاب الباريسي المتأنق في ذهابه وإيابه وكلامه وهيئته وكل حركة من حركاته. أما أموس فكان عريض الكتفين تلوح عليه إمارات الرجولـة والشجاعة، وكان الناظر إليه يدرك لأول وهلة أنه لم يقطن المدن الكبيرة. وكان أموس يصغر دي كاتينا

بخمس سنوات تقريباً يناهز الخامسة والعشرين من عمره. وبعد أن سار قليلاً: سأل أموس، ما هذا البناء الفخم الذي أمامنا؟

ـ هو اللوفر أحد قصور الملك.

ـ وهل الملك هنا؟

ـ لا أظن لأنه أكثر ما يقطن في فرساي. واللوفر، سان جرمن، مارلي، فونتنبلو، كلوني.

ـ لكن ما الغرض من كل هذا، هل يمكنه أن يكون في كل هذه المحال بوقت واحد؟

ـ كلا بل إنه يذهب إلى كل منها عندما يحلو له ذلك.

ـ ما أضخم هذا البناء إني شاهدت مدرسة سان لويس الاكليريكية في مونتريال وظننت إذ ذاك أنها أعظم بنايات الدنيا وأرى الآن أنها ليست شيئاً بالنسبة إلى اللوفر.

ـ إذاً قد زرت مونتريال، وهل تذكر قلعتها؟

ـ أذكر القلعة والمستشفى، والشوارع، والبيوت، وكل شيء، وأنت كيف عرفتها؟

ـ قضيت خدمتي العسكرية فيها ولا تظن أنك مفرد هنا فإني قضيت أياماً كثيرة في الغابات والبراري نظيرك.

فسر له أموس عندما سمع أن دي كاتينا يعرف وطنه ويحبه

وأراد أن يسأل عما يتعلق به، لكن وقع نظره على جنود كانوا هنالك فقال: من هؤلاء الجنود؟

ـ جنود الملك.

ـ إني أرى عدداً وافراً منهم فهل ينتظرون عدواً محارباً؟

ـ لا إننا في صلح وسلام مع سائر الدول والحمد لله.

ـ إذاً علامَ هنا كل هؤلاء الجنود؟

ـ هم دائماً مستعدون هكذا؟

ـ فهزّ أموس رأسه وقال: يستطيعون أن يستعدوا أو يكونوا دائماً على استعداد وهم في بيتهم كما نفعل نحن في بلادنا. فلا ترى رجلاً إلا بندقيته بالقرب منه أينما كان.

ـ إن ملكنا عظيم وله أعداء كثيرون.

ـ ومن سبّب هذه العداوات؟

ـ الملك ذاته.

ـ الأولى إذاً أن تكونوا بدون ملك؟

ـ فهزّ دي كاتينا كتفه بملل وقال: إن كنت لا تريد أن نساق إلى الباستيل أو إلى فانسين، فاخْفض صوتك. فأراد أموس أن يسأله عن هذين الاسمين اللذين ذكرهما كاتينا لم يدع له وقتاً فسبقه وقال: ان أعداءه يبغضونه لأنه يحب فرنسا، فمنذ خمسة أعوام طلبت اسبانيا منه الصلح وأعطته بدلاً من ذلك جزءاً من

أراضيها ثم وضع يده على «ستراسبور» و«لوكسمبور».

ـ ولماذا فعل كل هذا؟

ـ لأنه ملك عظيم جداً يريد عظمة فرنسا ومجدها.

ـ منذ عامين تقريباً كان في وطني رجل عظيم من أقوى الرجال وأشجعهم فاتفق ذات يوم أن كنت مع ثلاثة من رفقائي في إحدى الغابات فصادفناه على حين غفلة، فقبضنا عليه بلا سبب وشنقناه في فرع شجرة غير مبالين بأنه كان رجلاً عظيماً.

ـ ويحك يا هذا قلت لك خفض صوتك. لكن قل لي إلى أين أنت ذاهب؟

ـ لم يسمع أموس هذه الكلمة لأنه كان أطلق العنان لجواده. فأخذ ينهب الأرض نهباً! أما دي كاتينا فتجاذبه الضحك والغضب وقال متمتماً رحمة الله على عقل هذا الأمريكاني، فإن مشاهد باريس ذهبت برشده. ثم لحق به وصاح: قل لي باسم الشيطان ماذا تفعل هناك وإلى أي شيء تنظر هكذا كالمختل؟

ـ فقال أموس بتأسف: رأيت ظبياً يعدو هنا، فلو أحضرت بندقيتي ولم أذعن لاشارتك لأطلقتها عليه فتأتينا الصيدة،

والحق كل الحق عليك أيها القبطان.

ـ هل جننت أم تتعمد أن توقعنا في مصيبة؟ عد بنا إلى البيت وأرحني من رفقتك؟

ـ وأي ذنب جنيت الآن بل أي شر صنعت. ولماذا تخاصمني؟

ـ ويحك إن هذه الأراضي خاصة الملك فكيف تدخلها للصيد؟

ـ انقبضت نفس أموس لدى سماع هذا الكلام وظهر الاستكراه على محياه فوخز جواده دون أن يفوه بكلمة وأخذ يركض في الشارع فتبعه دي كاتينا وقال: بالله عليك يا هذا. دعنا نصل إلى البيت بلا حادث مكدر. إن جري الجواد في الشارع على هذه الصفة مغاير للعادات والقانون فحذار من ذلك.

فتحير أموس وقال: يا لها من بلدة عجيبة! عاداتها غريبة وقوانينها أغرب!

فقل لي يا صاح هل يسمح للإنسان في بلدكم هذا أن يصلي أو يتنهد أو يرفع نظره؟

ـ فضحك دي كاتينا وقال: الركض ممنوع في الشوارع

التي تكثر فيها الحركة فقط. لكن دعنا من فرنسا. ولنتكلم عن بلدك: قد قلت لي إنك قد قضيت عمرك في الغابات.

ـ أجل ولما كان لي من العمر عشر سنوات ذهبت مع عمي للمتاجرة في «مسولت لاماري» حيث تمتزج مياه البحيرات الثلاث بعضها ببعض.

ـ إن التجارة هناك تختص بفرنسا.

ـ أعلم ذلك. وقد قبض علينا وسجنا في «مونتريال» ثم أطلقوا سراحنا لأنهم لم يدروا ماذا يفعلون بنا. ومنذ ذاك الحين تركت التجارة.

ـ وكيف تركك والدك بدون صناعة؟

ـ لأنه غني جداً وليس له سواي. وقد أرسلني مرَّة إلى نيويورك مع «أفرام سافاج».

ـ وهل أفرام سافاج هذا من نيويورك؟

ـ لا بل من «بوسطن».

ـ لا أذكر هذا الإسم وليس بوسعي أن أعرف كل أسماء تلك القرى.

ـ فقال أموس بأنفة: ومع ذلك ستكون أسماء هذه القرى شهيرة كاسم باريس بعد زمن قريب.

ـ فضحك دي كاتينا وقال: أين تعلمت النبوءة، أفي الغابات أيضاً؟ لكن ثق أني أحب تلك البلاد بقدر ما تحبها أنت، وكثيراً ما يطير قلبي شوقاً إليها. وأما الآن إذا أردت أن ترى قصر الملك الجديد فانظر إلى يمينك.

ـ فنظر أموس إلى ذلك القصر العظيم الشاهق البناء، الناصع البياض، تكتنفه الجنائن الغناء، وتحف به النوافير ذات الخرير الشجي، وظل أمام هذا المنظر مفتوح العينين والفم إلى أن سأله دي كاتينا: بماذا تفكر يا أموس؟

ـ أظن أن أحسن مخلوقات الله في أمريكا كما أن أنفع شغل للإنسان يوجد في أوروبا.

ـ لكن في علمي أنه لا يوجد قصر في أوروبا كهذا كما أنه لا يوجد ملك عظيم كالساكن فيه.

ـ هل أقدر أن أراه؟

ـ ترى من؟ القصر أو الملك؟

ـ الإثنين معاً.

ـ أظن أنك ما ولدت لتعيش في البلاط الملوكي.

ـ لكنك سترى كيف أمجد الملك إذا قيض لي أن أراه.

ـ ماذا كنت تفعل إذن؟

ـ لو رأيته لضغطت على يده باحترام وسألته عن صحته

وصحة عائلته.

- فضحك دي كاتينا حتى انقلبت شفته وقال: لا تنتظر عمرك ذلك يا ابن الغابات. لكن ماذا أرى هنالك؟ يخيّل لي أني أرى عربة من عربات البلاط.

عندئذٍ علا الغبار من جانبي الطريق وتنحى الفارسان للمركبة فمرت ونظرا فيها يداً بيضاء أشارت بالسلام عليهما. فقال دي كاتينا:

هذه مدام دي مونتبان أكثر نساء فرنسا دهاءً واقتداراً وهي تشير إلينا بالاقتراب منها، فتعالى معي وافعل نظيري.

فلما صارا بقرب المركبة رفع دي كاتينا قبعته وانحنى احتراماً وهكذا فعل رفيقه فقالت له مدام دي مونتبان وعلامة الغضب تمازج كلامها: ها إننا نلتقي ثانية اليوم أيها القبطان.

- ذاك من حسن حظي يا سيدتي.

- لكن حسن حظك لم يخدمك في هذا الصباح.

- هذا صحيح يا سيدتي. فقد أمرت بخدمة ممقوتة.

-. وقد تممت خدمتك بنوع ممقوت أيضاً.

- لم يكن بوسعي أن أصنع خلاف ذلك.

- فظهرت إشارات الغضب والغيظ على وجه مدام دي مونتبان وقالت: ظننت أنه لم يعد لي سلطة على الملك، وأن

يومي قد مضى.

- مولاتي!!

- لا تدافع عن نفسك كثيراً: أنا لاأبالي بالكلام ولا أنظر إلا إلى الأعمال وقد رأيت معاملتك لي في هذا الصباح، فهل ظننت أن جمالي اضمحل وأن شمسي مالت إلى المغيب؟

- وهل عمي بصري لأظن مثل هذا الظن؟

- فقال أموس إن كنت لا ترى هذا الجمال، فأنت أكثر عمي من البومة التي تنظر إلى شمس الظهر.

فنظرت إليه مدام دي مونتبان وقالت: إن صديقك أيها القبطان يتكلم بما يشعر به. وسأقابل الملك في الساعة الرابعة بعد الظهر، ولا أنسى أن أذكر أمامه الذين أساءوا إليّ.

قالت هذا وأمرت السائق بأن يسرع في سيره. ورجع دي كاتينا إلى الوراء، وبعد برهة نظر إلى أموس فرآه لا يتحرك من مكانه وهو فاغر فاه وكل أعضائه أنظار تشيع مركبة «مدام دي مونتبان» فدعاه دي كاتينا وقال: ألم تر امرأة قبل أن ترى هذه؟

- لا لم أرَ قط في زماني امرأة بمثل هذا الجمال!

وصل الفارسان إلى قرب باب القصر، فرأى دي كاتينا على حين غفلة الآنسة نانون عن بعد فخف إليها وسلم عليها فردت السلام قائلة:

ـ علمت أنك ذهبت إلى باريس أيها القبطان وها أنذا أنتظرك هنا من زمن طويل لأقول لك إن الملك سيذهب إلى غرفة مدام «دي مانتنون» في الساعة الثالثة بعد الظهر، وهي تريد أن تحدثك قبل تلك الساعة. وها أن الساعة الثالثة الآن تدق:

قال إني آت.. ثم نظر إلى شاب آت من بعيد بملابس تشبه ملابسه لأنه كان في حرس الملك أيضاً: فناداه دي كاتينا وكان «الماجور دي بريساك» صديقه الحميم فقال له إني مضطر للدخول إلى القصر لشغل يستدعيني، فأنا أستودعك رفيقي «أموس جرين» وهو شاب غريب أمريكاني وصل أمس إلى بلادنا، فخذه وأره باريس ثم عد به إلى بيت عمي بشارع «سان مارتن». إني متكل عليك أيها الصديق.

قال هذا وبعد أن ضغط على يد صديقه «أموس جرين» والماجور دي بريساك دخل وراء الآنسة نانون إلى القصر بعد أن اجتازا البهو المؤدي إلى غرفة مدام «دي مانتنون».

وقفت الفتاة أمام أحد الأبواب وقالت لدي كاتينا تود سيدتي أن تسألك عما جرى، فأشير عليك كصديقة مخلصة أن تقص عليها الحقيقة البحتة وإياك أن تخبرها بأنك غير كاثوليكي لأنها تكره البروتستان كرهاً شديداً: ثم قرعت الباب وفتحته

وقالت: سيدتي قد أتى القبطان دي كاتينا.

ـ دعيه يدخل.

دخل القبطان فإذا به في غرفة صغيرة قليلة الرياش نصب في صدرها تمثال للعذراء نضدت أمامه الزهور والشموع ووضع عن يمينه كرسيان كبيران الواحد إزاء الآخر، جلست على إحداهما مدام دي مانتنون جلوس ملكة على عرشها بمهابة وجلالة وكانت مخائل الذكاء تبدو على كل مقاطع وجهها ودلائل اللطف والرقّة والوداعة تنطق من ملامحها.

ولما وقع نظره على عيني مدام دي مانتنون الخضراوين رآهما تنظران إليه ثم سمع صوتها الرنان يقول له: أظن أني نظرتك قبل الآن أيها القبطان؟

ـ نعم يا سيدتي وقد حصلت على هذا الشرف مرّة أو مرتين.

ـ إني أعيش بعيدة عن ضوضاء البلاط، رغماً عن سكناي فيه، ولهذا تراني أجهل أكثر المقيمين فيه إلا الذين يدنون مني والآن قل لي هل تممت خدمتك العسكرية؟

ـ نعم يا سيدتي تممتها في «ران وكندا».

ـ في كندا؟ آه كم أحسد أولئك الراهبات الشريفات

الورعات اللواتي كرسن حياتهن لخدمة المرضى والجرحى في «مونتريال».

فعجب دي كاتينا لعواطف تلك الامرأة التي تحسد الراهبات على عيشتهن الشريفة المرّة، وهي الساطية على قلب ملك فرنسا العظيم. لكنه ما لبث أن ذكر ما قالته له الآنسة «نانون» فأراد الإبتعاد عن هذا الموضوع وقال بسذاجة:

ـ إنهن نسوة طيبات القلوب. كريمات العواطف.

ـ لا شك أنك نظرت الأسقف «لافال»؟

ـ نعم نظرته يا سيدتي.

ـ ومن أكثر شهرة هنالك اليسوعيون وكهنة «سان سولبيس». الأولون في «كيبك» والآخرون في «مونتريال».

ـ من هو مرشدك الروحي؟

ـ لا مرشد لي يا مولاتي.

وشعر دي كاتينا كأن ماءً بارداً سكب على ظهره.

ـ إن كثيرين من الكاثوليكيين يعيشون من غير مرشد، وأنا لست من هؤلاء إذ إن نفسي ضعيفة للغاية فلا استغني عن نصائح مرشد حكيم.

ـ فقل لي إذاً من هو معرفك؟

ـ لا معرّف لي يا مولاتي إني من الكلفينست.

ـ فصاحت مدام دي مانتنون والعجب والإنذهال آخذان منها كل مأخذ. كالفينستي؟ ثم تعيش في البلاط بقرب الملك ليلاً ونهاراً إني أسأل الله من صميم قلبي وأتوسل إليه أن يهديك ويردك إلى التوبة. قالت هذا وجثت على ركبتيها أمام شخص العذراء واضعة رأسها بين كفيها. عند ذلك قرع الباب ودخلت الآنسة نانون وقالت الملك يحضر إلى هنا بعد خمس دقائق يا سيدتي.

فنهضت مدام دي مانتنون عند سماعها هذا الكلام وقالت: انتظريه قرب الباب وعندما تشعرين بقدومه أخبريني ثم التفتت إلى القبطان وقالت: قل لي أيها القبطان، هل أوصلت كتابي إلى الملك صبيحة اليوم؟

ـ نعم يا مولاتي.

ـ وهل فهمت أيضاً أنه أنكر الدخول على مدام دي مونتبان؟

ـ أجل يا سيدتي.

ـ ألم تنتظر مدام دي مونتبان مرور الملك في البهو؟

ـ أجل يا سيدتي إنها انتظرته وكلمته.

ـ ووعدها بأن يزورها اليوم؟

ـ أجل يا مولاتي.

ـ اعذرني إن أكثرت عليك الأسئلة. إني أحارب في شخص هذه الإمرأة عدوّاً الد. هل تفهم؟

ـ فانحنى دي كاتينا مشيراً بالإيجاب.

ـ إذا ماذا أعني؟

ـ إنك تحاربين هذه السيدة لتبعديها عن الملك.

ـ تشهد السماء أني لا أفكر في منفعة نفسي قط. ولا أقصد في كل ما أصنع سوى خير الملك والمملكة. قل لي متى يذهب الملك إلى غرفة مدام دي مونتبان؟

ـ في الساعة الرابعة اليوم.

ـ أشكرك كثيراً على هذه الخدمة التي قدمتها لي وإني لن أنساها أبداً، عند ذلك فتح الباب، فقالت الآنسة نانون وصل الملك يا مولاتي.

ـ إذهب الآن أيها القبطان من الباب الآخر لئلا تلتقي بالملك، وخذ هذا الكتاب الذي ألفه بوسويه فإنه يتكلم عن الدين الكاثوليكي، وربما أفادك بعض الفائدة. اذهب بحراسة المولى.

خرج دي كاتينا من الباب الآخر وبعد أن سار بعض

خطوات التفت فرأى مدام دي مانتنون تدير عقرب ساعة كبيرة معلقة على الجدار، لكنه لم يدرك عندئذٍ سر ما فعلت.

لم يكد دي كاتينا يخرج من الباب الذي أشارت إليه مدام دي مانتنون حتى فتح الباب الثاني، ودخل الملك.

فنهضت لمقابلته مبتسمة وانحنت أمامه احتراماً لكنه ظلّ مقطب الحاجبين، وإمارات الغضب بادية على وجهه، فجلس على الكرسي المقابل لكرسي مدام دي مانتنون دون أن يفوه بكلمة.

ـ فقالت مداعبة: إن رؤيتك اليوم وأنت مقطب الحاجبين لا تشجعني يا مولاي. ولعلّ منظر هذه الغرفة الحقيرة يكدرك؟

ـ لا بل إن الأب لاشيز والأسقف بوسويه أسقف «مو» ضايقاني اليوم مضايقة شديدة سبب كدري وانزعاجي.

ـ وماذا يطلبان من جلالتك؟

ـ أن أنكث عهد آبائي وأخلف الوعد الذي وعدت به يوم ارتقائي إلى سرير الملك، وأطرد البروتستان من المملكة الفرنساوية.

ـ لا تزعـج نفسك لهذا الأمر يا مولاي ولا تفعل ما يكدرك.

ـ قد يكون أنك لا تزالين تحبين ولو قليلاً الدين البروتستاني دين آبائك الذي كنت تدينين به في (طفولتك) أيتها السيدة.

ـ كلا يا مولاي بل إني أكره البروتستان كرهاً شديداً.

ـ ربما كان ذلك ولكنك على ما أرى، لا تريدين أن أطردهم من المملكة.

ـ إني أقول في نفسي ربما ردهم الله يوماً إلى دينه الحقيقي القويم. ألا تثق بالله يا مولاي؟ ولِمَ لا تلقي عليه همك؟

ـ فأبرقت أسرّة لويس الرابع عشر وأجاب متهللاً: نعم هذا ما عليّ أن أفعله. بل ما يجب عليّ أن أجيب به الأب لاشيز الذي يقول لي: إني أعاقب في العالم الآخر إن لم أعاقب الجاحدين. وإن أنا أطعته وعاقبتهم وطردتهم من المملكة أكون فعلت على خراب فرنسا.

ـ ولماذا تخاف يا مولاي؟ ألم تكن دائماً ابن الكنيسة الأمين ومساعدها وبطلها العظيم؟

ـ إذاً تظنين أني غير مجرم؟

ـ لست بمجرم البتة يا مولاي.

ـ لكني أثمت كثيراً في حياتي الماضية.

ـ لكنك رجعت عن غلطك فسومحت، ومن لم يخطىء قط؟

ـ آه لو كانت الملكة حية الآن لرأت كم تغيرت عن الماضي، وكم أصلحت حياتي بالابتعاد عن الآثام...

ـ حبذا لو كان ذلك.

ـ آه يا فرنسواز إنك بلا شك ملاك أرسلته السماء لحراستي متجسماً بشكل إنسان ليكون دائماً معي. ويمد لي يد المساعدة في احتياجاتي ويردني عن هفواتي.. آه لو تعلمين كم أشكرك وكم... قال هذا واقترب منها وأمسك يدها بقوة. وكانت عواطفه تبدو على وجهه فنهضت عن كرسيها وابتعدت إلى الوراء وهي تقول بتأنيب: ... مولاي..!

ـ إنك محقة، نعم. تعالي واجلسي ولن ألمس يدك بعد، استمري في شغلك اليدوي وقولي لي ما الذي تطرزينه؟

ـ فجلست وأخذت تشرح له أن ما تزركشه مشهد صيد في «فونتينبلو» ثم قالت مشيرة إلى النسيج: ها هم الوزراء والأمراء وها هو الملك.. ألم تخرج للتنزه في هذا الصباح يا مولاي؟

ـ لا لم أخرج. قولي لي يا فرنسواز أليس لكِ قلب؟ أو هل صنع قلبك من الثلج، أو من الفولاذ؟

ـ يا حبذا لو كان ذلك!

ـ ألم تعشقي في زمانك يا فرنسواز؟ ألم تحبي «سكارون» قيل لي إنه كان عجوزاً.

ـ لا تذكره يا مولاي، كنت أعتبره وأحترمه.

ـ ولكن ألم تحبيه؟

ـ ولماذا تسعى في اكتشاف أسرار قلبي!

ـ ألم تحبيه يا فرنسواز؟

ـ لقد فعلت واجباتي نحوه.

ـ ألم يصب سهم الحب فؤادك هذا مرّة؟

ـ لا تسألني يا مولاي.

ـ أجيبي يا فرنسواز ألم تشعري قط..؟

ـ مولاي ارفق بي بحقك لا تسألني.

ـ ألم تشعري قط بشعلة نار في أحشائك كالتي أشعر أنها تلتهب في صدري وتفني حياتي. فرنسواز قولي.. أجيبي؟

ـ فنهضت فرنسواز ومشت بعض خطوات في الغرفة إلى أن اقتربت من النافذة وأجابت بدعة تامة: مولاي هب أني أحبك حباً لم تشعر به امرأة لرجل قط من قبلي ولكن ألا يسهل عليّ الموت ألف مرّة أكثر من أن أبوح لك بكلمة واحدة من ذلك؟

ـ ولماذا يا فرنسواز؟

ـ لأني أفتخر بأن أصرف أنظارك وأفكارك إلى الأشياء السامية العظيمة الشريفة تلك التي لا يعرفها أحد أحسن مني.

ـ وهل الحب أمر سافل بهذا المقدار؟

ـ إنك قضيت أكثر حياتك يا مولاي في الحب والملذات فأود ألا تفتكر بعد الآن إلا فيما يعود عليك وعلى فرنسا بالنجاح والفلاح والعظمة والافتخار.

ـ آه إنك لم تتغيري يا فرنسواز بل ربما امللتني أكثر من «بوسويه» و «الأب لاشيز».

ـ فقالت بلطف مستسمحة: أعذرني يا مولاي واصفح عن معاملتي هذه، فإنك تنازلت وشرفت غرفتي الحقيرة وليتك تعلم كم يضمر قلبي من الشكر لانعطافك هذا، وحقاً إن معاملتي هذه تستحق أن تمنع عني زيارتك في نهار غد، لكني واثقة تماماً من أنك لست بفاعل ذلك نظراً لما أعرفه من كرمك، وجودة أخلاقك. لكن أرجو منك يا مولاي أن تقول لي كيف الأشغال في «مارلي» ومتى تجري مياه النوفيرة الجميلة التي يعدها المهندسون هناك؟

ـ رأيت «مانسار» هذا الصباح فقال لي: إن الأشغال تنتهي بعد قليل.

ـ وكم تكلف هذه الأشغال؟

ـ بعض الملايين.

ـ ولِمَ لم تذهب للتنزه اليوم يا مولاي؟

ـ لأني تعب من ذلك.

ـ وهل أنت تعب من الصيد أيضاً؟

ـ من الصيد ومن كل شيء. كنت في صباي غير آمن على عرشي ولا على حياتي نظراً للحروب التي كانت تشغل فرنسا في الداخل وفي الخارج، ومع ذلك كنت أحب الحياة، وكل شيء. والآن لا خطر عليّ وغدوت أبغض كل شيء وما من شيء يروق لي.

ـ لا شك في أن الإنسان كلما تقدم بالسن ملّ من الحياة وليست السعادة الحقيقية إلّا في الضمير المرتاح والقلب السليم.

عند ذلك قرع الباب ودخلت منه الآنسة نانون فسألتها مدام دي مانتنون ما وراءك أيتها الآنسة؟

ـ جاء مسيو «كورناي» «Corneille» الشاعر.

ثم دخل الرجل المشار إليه. وبعد أن أفهمت مدام دي مانتنون الملك أن «كورنال» آت عوضاً عن «راسين» الذي سقط

عن جواده في أثناء تنزهه أخذته المشاعر في قراءة بعض منظوماته.

ولم تمض برهة حتى دخل «لوفوا» وزير الحرب وسلّم فقالت مدام دي مانتنون إني سعيدة اليوم برؤية أعظم رجال القصر والمملكة عندي في هذه الغرفة الحقيرة. تفضل يا سيدي واجلس على هذا الكرسي وقل ما بدا لك لجلالة الملك. وها أنا أنصرف وأدعكما وحدكما.

ـ فقال الملك: كلا بل أبقي هنا.

ـ ما تشاء يا لوفوا؟

ـ مولاي أتى وفد من قبل اللورد «ساندرلان» بإنكلترا يسأل جلالتكم عما إذا كان في الإمكان مساعدة إنكلترا إذا اشهرت الحرب على الألمان، ونظراً لعلمي بأميالكم وأفكاركم وعدته بالمساعدة.

ـ فظهر الغضب على وجه الملك وصاح: من أذن لك بالجواب من غير أن تسألني. هل أنت الآمر في هذه المملكة؟

ـ عفواً يا مولاي.

ـ كيف تجاسرت،على ذلك وكم مرّة قلت لك إن شؤون المملكة لا تعني غيري، وانك لست سوى آلة في يدي

أستخدمك كيفما شئت. كيف جسرت على ما فعلت؟

ـ فأخذ لوفوا يتمتم ويعتذر وهو متأثر من إهانة لويس الرابع عشر له، وبعد أن أطرق الباب طويلاً قال لـه بصوت تفارقه الحدة شيئاً فشيئاً:

ـ أكرم الوفد القادم من إنكلترا وفي اجتماعنا غداً ننظر في هذه المسألة.

ـ هل عندنا جنود؟

ـ إن جنودنا مستعدة للحرب يا مولاي.

ـ وهل يوجد مال في الخزينة؟

ـ توجد كمية قليلة. ولكن عندنا وسيلة لجمع مال كثير وذلك إذا أمرت جلالتك بطرد البروتستان من المملكة فتستولي حينئذٍ على أراضيهم وأموالهم، فإن أكثرهم أغنياء.

ـ ما بالك تشير عليّ الآن بما نهيتني عنه في الصباح، ما غيّر أفكارك في بضع ساعات. نعم أعلم حق العلم أنكم جميعاً هنا لا تنظرون إلّا لمصالحكم الشخصية. كما أني أعلم أيضاً بأن ليس لي سوى صديق واحد يريد خيري وينصحني من غير أن يكون مدفوعاً بغاية. قال هذا ونظر إلى مدام دي مانتنون مبتسماً.

ـ قال لوفوا: ظننت أنه من الواجب عليّ أن أذكر لجلالتك كل ما يمكننا فعله لاكتساب بعض المال اللازم لإعانة الجنود، أما الآن فأستأذن جلالتك بالذهاب. قال هذا وانحنى إلى الأرض وخرج.

ـ فقال الملك: آه من هذا الرجل إن بغضي له يزداد دائماً. صارت الساعة الرابعة الآن ويجب أن أذهب في هذا الوقت.

ـ إن ساعتي متأخرة نصف ساعة يا مولاي فالساعة الآن الرابعة ونصف في الحقيقة.

ـ فضحك الملك وقال: حيث إن الوقت قد مضى فأنا أبقى هنا. فإذا كنت أخلفت وعدي مع الشخص الذي وعدته بالمقابلة في هذه الساعة فالحق ليس عليّ بل على ساعتك المتأخرة.

ولم يكد يتم جملته هذه حتى فتح الباب بعنف وظهرت منه مدام دي مونتبان تنتفض من شدة الغضب. فنهضت مدام دي مانتنون وقالت: أهلاً بك يا سيدتي إنني مسرورة بزيارتك. وكان الغضب آخذاً على مدام دي مونتبان كل مأخذ، وكل عضو من أعضائها يرتجف غيظاً. فوقفت بدون حراك شاحبة اللون مقطبة الحاجبين وعلامات التأثر والإنزعاج والغضب بادية

على محياها ثم التفتت إلى الملك وقالت بصوت يشف عن غيظ شديد:

ـ ربما صدعت خاطرك يا مولاي.

ـ إن دخولك إلى هنا بهذه الحالة وبدون اخطار قبل الدخول لمن أغرب الغرائب.

ـ عليّ إذاً أن أستسمح من جلالتك بخصوص هذا. ولكن من حين استحضرت هذه السيدة مشيرة إلى مدام دي مانتنون لتربية أولادي اعتدت الدخول إلى غرفتها من غير أن أستأذن.

ـ فقالت مدام دي مانتنون بصوت لطيف لا يخامره غيظ إني لم أفكر قط في لومك وأنا أرحب بك دائماً.

ـ وأنا لم يخطر ببالي استئذانك.

ـ فقال الملك بحنق: لكنك ستستأذنين بذلك منذ الآن وأنا آمرك بأن تبرهني عن احترامك لهذه السيدة.

ـ «هذه السيدة»!..!

ـ فهذه السيدة! إن أوامر جلالتك شرائع.. لكن عليّ أن أذكر أيضاً أن «هذه السيدة» التي تدعى اليوم مدام دي مانتنون وكانت تدعَى أمس فونتانك وستدعى غداً.. يعلم الله ماذا ـ هذه السيدة كما تقوُل يا مولاي ليست إلاّ خادمتي.

ـ إنك لا تربحين شيئاً من وقاحتك.

ـ ليست الوقاحة من شيمي يا مولاي.

ـ لكني أرى كلامك ممزوجاً بها وأرى أنك تنسين نفسك، فأرجو أن تذهبي من هذه الغرفة للحال.

ـ دعني أذكّر جلالتك بأنك ضربت لي موعداً في الساعة الرابعة من هذا اليوم فالأمل أن تقوم بوعدك رغماً عمّا تجده هنا من الوسائل الجاذبة.

ـ لو لم تكن الساعة متأخرة كما ترين لكنت أتيت أيتها السيدة.

ـ لا فرق عندي بين الساعة الرابعة والخامسة وها أنا ذاهبة إلى حجرتي التي أؤمل أن تشرفها بعد نصف ساعة.

ـ أشكرك أيتها السيدة: إن مقابلتي لك في هذا الوقت لا تسرني كثيراً وأود أن أراك في غيرها.

ـ إذاً لست بآت يا مولاي؟

ـ كلا لن أذهب.

ـ رغماً عن وعدك لي بهذه المقابلة؟

ـ أيتها السيدة..

ـ أتنكث بوعدك؟

ـ أصمتي واخرجي من هنا للحال فلا طاقة لي على احتمال أكثر من هذا.

ـ فأجابت مدام دي مونتبان بصوت كأنه الرعد القاصف: وأنا أيضاً لا طاقة لي باحتمال أكثر من هذا إني لا أخشاك يا مولاي. وقد أحببتك كثيراً، لكني لم أخفك قط وها أنا ذاهبة وأتركك مع هذه السيدة. «هذه السيدة» معرفك ـ لكني أنطق بكلمة واحدة كلمة صدق، قبل أن أغادر هذا المكان. قد خنت امرأتك قبل وفاتها وخنتني أنا، وها أنت تخلف وعدك وتنقض كلامك فبارك الله فيك يا مولاي!

قالت هذا وهي سائرة نحو الباب ثم خرجت رافعة رأسها تجر ذيول التيه والكبرياء ولا تلوي على شيء.

ـ لم يكن لويس الرابع عشر، متعوداً مثل هذه المعاملة الخشنة لا مع الوزراء ولا مع أعاظم الرجال الذين كانوا يقربون منه ولا من النساء اللواتي أحبّهن. بل كان الجميع يطأطئون رؤوسهم أمامه ويثنون على كل عمل يأتيه حسناً كان أو رديئاً وتكتفي النساء بأن يلقي نظره السامي عليهن. ويبذلن جهدهن لاسترضائه واستمالته اليهن، ويشعرن بكل كلمة يقلنها وبكل حركة يأتينها. فكان الملك العظيم والسيد المطلق، وما كن إلاّ أماء له لا حبيبات وكان ذلك شرفاً لهن، ولهذا أثرت كلمات،

مدام دي مونتبان ومعاملتها عليه تأثيراً شديداً، وكانت كل كلمة من كلامها كخنجر يطعن كبرياءه وحبه الذاتي. فعلا الدم في عروقه وصرف بأسنانه حنقاً ولم تكد تخرج من باب غرفة مدام دي مانتنون حتى نهض من مكانه كمن فقد الرشد وانطلق إلى الباب وهو يتمتم كلمات مبهمة.

- فقالت مدام دي مانتنون: مولاي إلى أين تذهب؟

- إني أتبعها.

- لماذا يا مولاي؟

- لأطردها من البلاط.. نعم يجب أن أطردها. ألم تسمعي ما فاهت به؟ يجب أن أذهب.. وأطردها شر طرد.

- لكن يا مولاي، يمكنك أن تبلغها هذا الأمر بالكتابة..

- لا بل يجب أن أراها. قال هذا وسار مسرعاً في البهو إلى أن رأى شبحاً فقال: من الحارس هنا فأجاب دي كاتينا: أنا يا مولاي. بماذا يأمر مولاي؟

- القبطان دي كاتينا؟

- نعم.

- أنا محتاج لمساعدتك.

- مر بما تشاء.

- أليس عندك من مساعد؟

ـ الضابط «تريمول».

ـ أقمه مقامك ثم اذهب إلى مسيو «نيفون»، أتعرف غرفته.

ـ نعم.

ـ وإن لم تجده هنالك يجب أن تبحث عنه وتجده قبل مضي ساعة حيث كان.

ـ سأفعل حالاً.

ـ بلغه أمري وقل له أن يستعد للسفر هذا المساء مع شقيقته مدام دي مونتبان، إلى «بتي برج» يجب أن يغادرا القصر في الساعة السادسة أي بعد ساعة ونصف. وقل له بأنه مأمور بابلاغ أخته إلى هناك والإقامة معها.

ـ فرفع دي كاتينا سيفه مؤدياً التحية وانطلق لتتميم أوامر الملك. أما لويس الرابع عشر بعد أن خطا بعض خطوات وصل إلى باب فتحه ودخل منه إلى غرفة جدرانها مغطاة بالمرائي وأرضها مفروشة بالطنافس المخملية الجميلة والأقمشة المنسوجة بالحرير والذهب. ولكنه لم يلتفت إلى شيء من كل هذا بل كلّم عبداً صغيراً كان واقفاً هناك قائلاً:

ـ هل سيدتك هنا؟

ـ إنها عادت من برهة قليلة يا مولاي.

ـ أريد مقابلتها.

ـ عفواً يا مولاي دعني أخبرها بذلك.

ـ غير أن الملك أمسكه بعنف من عنقه ودفعه بشدة، فأكبه على وجهه ثم إن الملك فتح باباً ثانياً وإذا هو في غرفة مدام دي مونتبان.

كانت هذه الغرفة مملوءة من الأثاث النفيس والرياش الفاخر، وكانت مدام دي مونتبان جالسة على مقعد أمام نافذة مطلة على حديقة القصر تنظر تارة إلى الغسق وطوراً إلى الأشجار المظلمة مفكرة في ما عسى سيجري لها مع الملك، فلما انفتح الباب ودخل الملك انتصبت على الفور وخفت إليه بدالة عظمى وقالت:

ـ آه كم أسأت إليك عندما اتهمتك بأنك لم تفِ بوعدك لأنك تممت وعدك وأتيت إليّ فشكراً لك يا مولاي! كيف استطعت أن أتفوه بما تفوهت به منذ برهة؟ بل كيف آلمت قلبك الشريف؟ سماحاً سماحاً وصفحاً عن جسارتي.

ـ فرفع الملك يده كمن يضع حائلاً بينه وبينها وقال بغضب:

ـ ما مضى قد انقضى ومن الآن فاصعداً لا تكون لي علاقة بك ولا يذكر فيما بيننا شيء من الماضي. وقد أرسلت أوامري

إلى أخيك الذي سينتظرك في الساعة السادسة من هذا المساء مع مركبة في باب القصر الشرقي تركبينها إلى المكان الذي عينته لأخيك وهناك تنتظرين أوامر جديدة مني.

فارتعشت أعضاؤها وعادت إلى الوراء مذعورة وهي تقول:

ـ أنا أتركك! أنا أبتعد عنك؟

ـ يجب أن تفارقي البلاط.

ـ البلاط؟ سأترك البلاط الآن بطيبة خاطر، لكن لا أبتعد عنك. آه يا مولاي إنك تطلب المستحيل.

ـ أنا لا أطلب أيتها السيدة بل آمر. إن ملوك أوروبا إذا اتحدوا لا يتجاسرون على مخاطبتي بهذه الصفة! نعم لقد أهنتني في قصري، أنا لويس ملك فرنسا العظيم! إن ذنباً كذنبك هذا لا يرتكب سوى مرة واحدة وبعد ساعة سترحلين عن فرساي، ولن تعودي إليها أبداً.

فرفعت يدها ووارت بها عينيها كي لا ترى وجهه الملتهب غيظاً وبسطت الثانية إلى الأمام وهي تقول:

ـ عفواً يا مولاي، قد أذنبت وكان ذنبي عظيماً إني أعترف بذلك.

ـ وأنا أسر بهذا الاعتراف أيتها السيدة المتعجرفة!

ـ يا لشقائي وتعاستي من لساني! ليته يصاب بآكلة قبل أن يتلفظ بكلمة تسوؤك أنت الذي لا تستحق مني سوى المديح والثناء، نعم أنت ملكي وحبيبي ومصدر سعادتي وهنائي، آه يا مولاي لا تقسُ عليّ بل ارحمني واصفح عن زلتي واغفر لي.

قالت هذا وانطرحت على قدميه، ودموعها تجري على خديها.

وكان لويس الرابع عشر شديد الإحساس رقيق القلب، فرقّ قلبه عندما رأى هذه المرأة الجميلة المتعجرفة جاثية تحت قدميه ترجوه وتتوسل إليه أن لا يقصيها عنه، وشعر من جهة بشفقة عليها وارتاحت نفسه وكبرياؤه من جهة أخرى لرؤية مذلتها، ومن هو ذاك الرجل الذي لم يشته ساعة كهذه في حياته؟

لكنه لم يغيّر فكره وأجابها بصوت ثابت:

ـ إن توسلاتك هذه لا تجدي نفعاً. فأنا أفكر في إبعادك عن البلاط من زمن بعيد. والفرصة قد سنحت فاذهبي إذاً بدون تأخر.

ـ سأذهب يا مولاي لكن عدني بالمسامحة وبأنك لا تحقد

عليّ فيما بعد، سيدي حسبي فراقك ولا طاقة لي على احتمال غضبك، إنك بقولك إذهبي من هنا لا تنفيني فقط يا مولاي، بل تحكم عليّ بالموت. أذكر سني الحب الطويلة وعدني بالصفح. إني تركت لأجلك كل شيء: زوجي، بيتي، شرفي. أفلا تصفح عني مقابل كل هذا؟

ـ رباه! ماذا أرى؟ أتبكي أنت يا مولاي؟

ـ إذاً ما زلت تحبني، ولا شك في أنك ستعفو عني؟

ـ كلا أيتها السيدة: إن الدموع التي ترينها ليست إلّا شواهد على ضعف الرجل، لكن ثقي أن الملك لا يزال قوياً، إني أسامحك من كل قلبي على إهانتك لي اليوم وأتمنى لك الراحة والسعادة في منفاك.

ها قد أنهيت كل واجباتي نحوك ولم أهتم من الآن وصاعداً إلّا فيما أنا مديون به لمملكتي وشعبي، وقد مضى الكثير من حياتي ولم يبق إلّا القليل.

ـ آه يا مولاي إنك تؤلمني بكلامك هذا، إنك لا تزال في أول شبابك وأراك تتكلم كشيخ جاوز العمرين، وقالوا إنك إذا تماديت في هذا التوهم لا تبطىء أن تبدو على وجهك علامات الكبر بعد قليل.

ـ من قال هذا؟

ـ لا تلح عليّ يا مولاي، ممن هم في البلاط؟

ـ وهل ظاهري يدل على أني طاعن في السن؟ أنت عرفتني من عشرين سنة تقريباً فهل تغيرت في خلالها كثيراً؟

ـ أنا يا مولاي لا أزال أراك شاباً وجميلاً كما كنت في ذلك اليوم الذي اكتسبت فيه قلبي لأول مرّة يوم أنا «مدموازيل توني شارانت». فابتسم الملك ونظر بحنو إلى الحسناء الواقفة أمامه وقال: أؤكد لك أن مدموازيل توني شارانت لم تتغير أيضاً، أرى الوقت يمضي، تأهبي للذهاب كما قلت لك.

ـ أرجــوك فقــط يا مولاي أن تذكر لي المحــل الذي سأنفى إليه، ها أنذا ذاهبة إلى حيث الاقي الموت ولا عجب في ذلك! لأنك أنت شمسي ومن يا ترى يعيش من غير شمس؟ سأذبل كوردة منسيّة متروكة لا ترى ندى الفجر ولا شمس الظهر، فلا تأسف عليّ يا مولاي، ولا تدع ذكري يعذبك. كن سعيداً، فإن سعادتك في مستقبلك. أما أنا فسعادتي وتعزيتي وسلوتي في ذكر الماضي تلك الأيام الطيبة التي كنت فيها تحبني. الوداع الوداع!!

قالت هذا وشهقت شهقة كادت تزهق روحها ثم سقطت على الأرض مغشياً عليها! فخفّ إليها لويس وحملها بيديه القويتين إلى مقعد كان هناك، فشعر بخفوق قلبها بالقرب من

قلبه. وكانت أنفاسها العطرة الحارة ترفرف على وجهه وشعرها يلامس خدّه فوضعها على المقعد بتأن ونظر إليها بحنو قال يحاول أن يلثم جبهتها فأفاقت من غشيانها وطوقت عنقه بذراعيها، حدّقت في عينيه قائلة: إذن لن أسافر يا مولاي؟

ـ لا لا تسافرين لكن لا تضايقيني يا فرانسواز (مونتبان).

ـ ليتني مت ألف مرّة قبل أن أسبب كدراً لقلبك الكريم، لكنك كنت تبخل عليّ بزياراتك، وأنا أحبك حباً عظيماً وكنت دائماً تقضي أوقاتك عند تلك الامرأة.

ـ تلك الامرأة من هي؟

ـ لا أذكرها ولا أتكلم لأجلك يا مولاي! هي أرملة سكارون.

ـ لا. لا تتكلمي ضدها.

ـ لكن يجب أن تبقى عندي يا مولاي العزيز، لا تدعني يا سيدي لأني لم أرك من زمن طويل.

فجلس الملك وقال:

ـ سأبقى هنا، أنا باق عندك.

ـ والمركبة يا مولاي وباب القصر الشرقي.

ـ إني عاملتك بقساوة وخشونة يا مونتبان فيجب أن تسامحيني أعطني القرطاس والقلم لأغيّر أمري.

فأعطته ما طلب وكتبت هي أيضاً ما يأتي:

«إذا احتاجت مدام دي مانتنون إلى الملك تجده عند مدام دي مانتبان» وسلّمت هذه الورقة للعبد الصغير وأمرته أن يوصلها إلى مدام دي مانتنون على الفور، كما أرسلت أيضاً معه أمر الملك إلى القبطان دي كاتينا.

مضى أسبوع كامل على هذا الحادث وعاد نجم مدام دي مونتبان إلى الظهور وكان ذكرها يلازم الملك أثناء الليل وأطراف النهار، وقد برح من باله ذكر مدام دي مانتنون ولم يعد يزورها كالماضي، بل كان يخصص كل أوقات الفراغ لمدام دي مونتبان وعاد كل من في البلاط مقتنعاً بأن أيام دولة هذه المرأة قد عادت إلى الظهور، وأن حب تلك لم يقم في قلب الملك إلّا برهة يسيرة، ولم يكن إلا سحابة صيف وانقشعت، ففرح أعداؤها وسرّ أصدقاء مدام دي مونتبان وعاد الجميع إلى تمليقها وتبجيلها وتعظيمها كي تذكرهم بالخير أمام الملك. لكن كان هناك اثنان لا يصدقان ما يريان، ويفكران في أن أيام دي مونتبان ليست بطويلة في بلاط فرساي، وأن ساعاتها معدودة محدودة هنالك، وهما الأب لاشيز وبوسويه أسقف «مو» فذهبا يوماً إلى غرفة مدام دي مانتنون فوجداها تدرِّس الجغرافيا لتلميذيها الدوق دي مان، والكونت دي تولوز اللذين

كانا يحبانها كثيراً ويصغيان لكلامها تمام الاصغاء، ويعاملانها بعكس معاملتهما لوالدتهما مدام دي مونتبان. وهذا ما كان يزيد في اضطرام نار غيرتها من مدام دي مانتنون وحقدها عليها، فإنها كانت تقول في نفسها تباً لهذه الامرأة التي تسلبني حب كل الذين أعزهم حب ملكي وحب ولديّ؟ دخل أسقف «مو» والأب «لاشيز» فنهضت مدام دي مانتنون واستقبلتهما ببشاشتها المعتادة، وابتسامتها اللطيفة إلاّ أنها كانت شاحبة اللون، ودلائل الخمول بادية على جسمها، يجول دائماً في عينيها شيء من الحزن. وبعد أن رحّبت بهما وأجلستهما على الكرسيين اللذين وصفناهما عند زيارة الملك لها: بعثت بتلميذيها إلى غرفة أخرى، وجلست هي على كرسي صغير أمام زائريها. فنظر إليها بوسويه بعطف وقال:

ـ يلوح لي يا ابنتي أنك حزينة جداً!

ـ نعم يا سيدي، وقد قضيت ليلي بطوله جاثية أمام العذراء طالبة إليها ارتداد الملك.

ـ أؤكد لك أيتها السيدة، أنه لا خوف على الملك، نعم إن كثيرين يزعمون أنه نسيك تماماً، ولكن نحن الذين نعرف قلبه نقدر أن نؤكد لك أنه لا تمر بضعة أسابيع بل أيام حتى

يندم الملك على سلوكه هذا ويعود إليك في ما بقي له من العمر.

ـ فلاح على محيا مدام دي مانتنون أنها غير ممنونة من هذا الكلام وقالت: أؤكد لك يا سيدي أني لا أفكر قط في نفسي، لأن السلطة لا تهمني ولا أريد أن أكون ذات نفوذ لدى الملك. وإنما أنا حزينة جداً وكئيبة من كل قلبي لأجل الملك! أجل إني أحزن على قلبه الكريم وروحه الشريفة.

أكتئب لأني أراه سلك طريقاً غير مستقيم وهو لا يرى ذلك، أحزن لأني أراه يهمل المملكة ويترك واجباته غير مبالٍ بتتميمها، أغتاظ لأني أرى فرنسا تتعذب. هذا هو موضوع حزني وبذا أفتكر دائماً وهذا ما يفتت كبدي لكني لا أفكر قط في شخصي، فقال الأب لاشيز: ثقي يا ابنتي أن حبك لذاتك وحده هو الذي يسبب حزنك.

ـ ربما يكون ذلك يا أبتاه، لأنك أعلم مني وأخبر بما تكنه الصدور أما أنا فأظن أني أعرف نفسي وأعتقد أني مخلصة للملك ولا أفكر بذاتي البتة.

ترى أين طمعي وحبي لذاتي؟

هل إذا رفضت أتعاباً عظيمة قدّمها لي أو مبالغ وافرة

عرضها عليّ، لو كان الطمع وحب الذات يؤثران بي لكنت تحملت الأتعاب وقبلت الدراهم شاكرة، لأن عطايا الملوك ملوك العطايا فكيف ترد؟ كان الملك يطلب رأيي في مسائل سياسية مهمة فكنت أبدي له فكري بإخلاص وصفاء نية، فأين طمعي يا أبتاه؟

ـ إن طمعك في قلبك يا ابنتي، لكنه محمود لأنك تودين أن تؤثري دائماً على الملك وأن تكون كلمتك مسموعة عنده وأنا أسرّ بهذه العاطفة لأني أعرف شرف نفسك وطهارتها وأعرف أن مشوراتك للملك وتأثيرك عليه يكون دائماً جيد للغاية مفيداً للمملكة الفرنساوية وللكنيسة أيضاً.

ـ آه إني أكرس حياتي، بل أموت بطيبة خاطر في سبيل خدمة المملكة والدين.

ـ قال بوسويه: اسمعي يا ابنتي، ما من أحد بيننا الآن ولا أحد يسمع كلامنا غير الله. تقولين بأنك تموتين بطيبة خاطر لتخدمي الكنيسة والمملكة، وأنا أقول لك: إن حياتك لازمة لذلك. ألا فاسمعي لي كلمة عن سر تخفينه في أعماق قلبك وهذا السر أنك تحبين الملك. فعلا وجهها الإحمرار وضربت جبينها بيدها قائلة: سيدي!

ـ إنك تحبين الملك حباً شديداً، حباً معذباً.

ـ سيدي، سيدي.

ـ لا عار في الحب يا ابنتي إذا كان شريفاً ومبنياً على مبادىء قويمة ولا إثم فيه إن لم يخالطه ما يحرمه الدين.

فتمتمت بخجل. لكني لم أقل له أبداً إني. . . ولم أبد له ما يخالج فؤادي نحوه.

ـ ألا تقولين له ذلك في المستقبل.

ـ أنا؟ أبداً الأحرى بي أن أموت ألف مرّة قبل ذلك.

ـ هذا عين الغلط يا ابنتي فلو رأى الملك أنك تبادلينه الحب لعاش دائماً بقربك ولكنت الآمرة المطلقة على كافة أعماله وشريكة حياته في كل شيء.

فوضعت يدها على قلبها ونهضت وهي تنظر تارة الأسقف وطوراً الكاهن ثم قالت:

ـ ماذا تقولان وماذا تعنيان؟

ـ فأجابها الأب لاشيز: نعني أنه يجب أن تقترني بالملك إذا كنت ترومين حقيقة أن تخدمي الكنيسة والمملكة وذلك ليكون تأثيرك عليه تماماً.

ـ فشعرت أن الغرفة تدور بها وأن السقف انقلب إلى أسفل فصاحت: أتزوج الملك؟ أنا؟ لا.

ـ نعم أنت تتزوجين الملك وكما أن جان دارك خلصت وطنها في الماضي ، فسترين أنك أنت أيضاً ستخلصين فرنسا وملك فرنسا.

فصمتت بضع دقائق، ثم رفعت رأسها وقالت: لا هذا لا يمكن أبداً ولماذا؟

ـ لأن ملك فرنسا لا يتخذ زوجة بينما أن كل أميرات أوروبا تنتظر إشارة منه لتجثو على قدميه.

ـ إن ملكة فرنسا يجب أن تكون من نسل ملكي كما كانت جميع الملكات السابقات وإذا تزوج الملك فإنه يكتسب صداقة الشعب الذي ينتخب زوجته منه.

ـ وأنا إذا اقترن بي فماذا يكتسب يا ترى؟

ثم ضحكت بمرارة وتابعت كلامها فقالت: نعم إنه يكتسب اللقب اللاصق بي وهو أرملة سكارون المخلع.

ـ إذا تزوج الملك بك فإنه يكتسب السعادة التي لا توجد إلا بقرب فكر سام كفكرك وقلب شريف كقلبك. حسبه ما عنده من الغنى وسعة الملك فهو لا يحتاج بعد إلاّ إلى السعادة، والمملكة لا ينقصها سوى الراحة والهناء.

ـ هذا لا يمكن أبداً، فلو فرضنا أن الملك رضي بهذا، أفهل يرضى به أخوه وولي عهده ووزراؤه؟ إن ذلك إلا حلم نائم! لا يتحقق أبداً.

ـ اتكلي على الله وعلينا يا ابنتي، واعلمي أن الملك يسمع كلامنا أيضاً، وعدينا أن تخدمي الكنيسة.

ـ سأخدم الكنيسة إلى آخر نسمة من حياتي.

ـ إن أول شيء يلزمنا أن نشتغل به. هو إخراج البروتستان من المملكة فلوفوا وزير الحرب يوافقنا على هذه المسألة، وإذا اتحدت معنا يتم كل شيء بأقرب الأوقات.

ـ لكن عدد البروتستان عظيم جداً.

ـ نعم إنهم يكثرون يوماً فيوماً، لأجل ذلك يجب إخراجهم.

ـ لكنهم يتعذبون كثيراً إذا طردوا، وإلى أين يذهبون يا ترى؟

ـ إن خلاصهم في أيديهم.
ـ أعرف ذلك لكني أشفق عليهم رغماً عني.
ـ أتحبين أعداء الله؟

ـ كلا.

ـ وهل ترتابين في أنهم أعداء الله؟

ـ لا لكني أفكر في أن هذا الدين كان دين آبائي. ومع ذلك أقر بأنكما أكثر حكمة ومعرفة مني. فسأفعل ما تأمراني به.

ـ هل تعدين بذلك؟

ـ نعم.

ـ إذاً نحن نذهب الآن ونرسل لك الملك، إذ إننا خضنا معه مراراً في هذا الموضوع. غير أنه لم يصمم النيّة بعد، فعليك أن تتممي ما بدأنا به، فتأهبي لاستقبال الملك.

مضت نصف ساعة وأكثر على ذهاب الزائرين ومدام دي مانتنون لم تتحرك من مكانها وهي تفكر في هذا الخبر الجديد، وهذه الحياة الجديدة التي تنتظرها.

وكانت الشمس قد غابت والظلام قد أرخى سدوله، وإذا بالباب قد انفتح ودخل منه الملك، فنهضت وقالت: مولاي اسمح لي باستدعاء الخادم لإضاءة المصابيح.

فنهاها عن ذلك. ثم دخل وأقفل الغرفة، وقال لها عندما اقترب منها:

ـ رويداً رويداً: فرانسواز! بماذا تفكرين بي؟

إني أحب الظلام الذي يخفي عني التوبيخ البادي في عينيك، لكن دعي لسانك يلومني فإني أقبل توبيخك لأني عالم بأني أستحقه.

ـ وهل ألوم ملكي؟ مولاي عفواً!

ـ عندما فارقتك آخر مرّة يا فرانسواز، كنت قاصداً قصداً حسناً. ولكني سقطت، نعم سقطت رغماً عني. فيا ليتني سمعت كلامك وأبلغت أوامري بالكتابة؟

ـ ومن منا لم يسقط قط يا مولاي، لكني أشكرك من صميم فؤادي على اعتذارك هذا.

وكان الملك واقفاً رأسه بين يديه، يظهر من حركة كتفيه كأنه يبكي.

فشعرت مدام دي مانتنون بأن قلبها يتمزق شفقة وحباً، فاقتربت منه ووضعت يدها بلطف على كتفه وقالت: مولاي لماذا لا تكلمني؟

فرفع رأسه وقال: غدوت لا أطيق العيش بدونك يا فرانسواز، وبت وحيداً في هذه الدنيا لا صديق يخلص لي، ولا أقدر أن أثق بأحد، فإن كل الذين يقتربون مني يعملون لغاياتهم السياسية أو الدينية، أو الشخصية. فأنت وحدك

مخلصة يا فرانسواز، أنت ملاكي الحارس قولي لي الحقيقة:

ـ هل تحبينني؟

ـ إني أحبك منذ سنين طويلة يا مولاي.

ـ كنت متأكداً من حبك هذا ولكني أشعر الآن بغبطة غير اعتيادية من سماع إقرارك هذا.

ـ إني أعلم بأن الألقاب والرتب لا تهمك ولا تطغيك، ومع ذلك أسألك بأن تكوني الملكة في هذا القصر! وملكة قلبي وحياتي: هل تريدين أن تكوني امرأتي يا فرانسواز؟

فلم تسرع مدام دي مانتنون بإجابته وسكتت قليلاً ففرغ صبر الملك وخشي أن ترفض طلبه فصاح بألم:

ـ أترفضين يا فرانسواز؟

ـ معاذ الله يا مولاي: بل أنا أطلب من الله أن يجعلني أهلاً لهذا الشرف. وأقسم بالسماء والأرض وأقسم بك يا مولاي أني أوقف كل ساعة من حياتي في سبيل رضاك وأن أجتهد في جعلك أسعد الرجال وأسعد المحبين.

قالت هذا وهي جاثية أمامه، فجثا بالقرب منها وأخذ يدها وقال: وأنا أيضاً أقسم بأني لم أحب امرأة قط سواك وأن أبذل مجهودي في أن أصيّرك سعيدة إلى الأبد. وهكذا ظلت

أناملهما مشتبكة برهة في ظلام الغرفة وقلباهما يتناجيان ويخفقان بدون أن تتحرك الشفاه.

قبيل ظهر اليوم التالي عرف كل من في القصر أن دولة مدام «دي مونتبان» قد زالت وأن الملك عاد إلى مدام دي مانتنون، وسألها أن تقبله بعلاً لها.

فقام الجميع وقعدوا لهذا الخبر، ولم يجسر أحد على إبلاغه لمدام دي مونتبان التي كانت وحدها تجهله.

لكنها استبطأت الملك في ذلك اليوم إذ إن الساعة التي اعتاد أن يزورها فيها مضت، ومع ذلك لم تحرك ساكناً كما أنها لم تسأله عن سبب غيابه. وظنت أن أسباباً سياسية أو أشغالاً مهمة منعته عن الذهاب إليها، وظلت تنتظره صامتة.

أما شقيق الملك الأصغر الذي كان الفرنسيون يدعونه «مَسيو» فقط فعندما بلغه خبر زواج أخيه بمدام «دي مانتنون» أسرع وطلب مقابلته فسمح له، فدخل إلى أخيه بعد الظهر، مقطّب الحاجبين عابس الوجه وعندما وقع نظر الملك عليه ابتسم وقال:

ـ أراك غير مسرور على غير مألوفك يا «مسيو»، نعم إن ألوان ملابسك بهيجة، لكن الحزن باد على وجهك فما

وراءك؟ وكيف حال والدتك ووالدك و «الدوق دي شارتر»؟

ـ إنهما بخير يا مولاي، لكنهما حزينان مثلي ومصدر حزننا نحن الثلاثة واحد.

ـ وأي شيء يحزنكم؟

فلم يجبه ولكنه سأله برقة: هل نكثت بواجباتي كأخ صغير نحوك في غابر حياتي؟

ـ فوضع الملك يده على أخيه بدالة وقال: كلّا يا «فيليب» إنك كنت دائماً مثلاً صالحاً لجميع أعواني ورجال مملكتي.

ـ إذاً لماذا تلطخني بهذا العار؟

ـ وأي عار؟

ـ إنك تسمنا بالشنار يا سيدي. نحن من دم ملوكي ونساؤنا من نسل الملوك أيضاً وقد كنت متزوجاً بأميرة «اسبانيا»، وأنا تزوجت بأميرة «بافاريا» بعد أن توفيت امرأتي الأولى التي كانت أميرة «إنكلترا» فكيف تدخل في بيتنا الشريف بعد كل هذه الصلات الملوكية أرملة رجل مخلع كان اسمه سخرية وهزأ في أوروبا بأسرها.

ـ فبهت الملك من هذا الكلام إذ لم يكن ينتظر من أخيه أن يفاتحه بهذا المعنى، ولم يكن يعلم أيضاً أن أخاه عالم

بذلك، ولم تكن إلاّ لحظة حتى حلّ الغضب محل العجب وصرخ قائلاً: قلت لك منذ فترة أنك نموذج صالح، ولكن يظهر أنني كنت مخطئاً لأنك تجسر على انتقاد أعمالي، وتتكلم ضد امرأة قد انتخبتها لتكون شريكتي في حياتي.

ـ نعم أجسر على ذلك يا سيدي.

ـ وأنّى لك هذا الحق؟

ـ إن شرف العائلة خولني هذا الحق يا مولاي. نعم شرف الأسرة الذي هو شرفي وشرفك أيضاً.

ـ فصاح الملك ويحك أيها الرجل ألا تعلم بعد أني أنا وحدي ينبوع الشرف في هذه المملكة؟ أوَلا تدري أيضاً بأني إذا أردت امرأة فلي الخيار بأن أتخذها ولو من الطريق وأجعلها امرأتي وحينئذٍ يجب على فرنسا بأسرها أن تجثو أمامها مفتخرة بتقبيل يدها، لأني شرّفتها ورفعتها، أنا الملك! ألا تعلم ذلك بعد؟

ـ لا أعلم ذلك يا مولاي، وجلّ ما أعلم أن ذلك عار عظيم لا يمحى عليك وعليّ وعلى نسلك ونسلي وعلى امرأتي..

ـ امرأتك؟ إني أحترم من كل قلبي «شارلوت اليزابيت دي بافاريا» لكنها ليست أعظم من مدام دي مانتنون التي كان جدها

رفيق وصديق هنري الأكبر جدي وملك فرنسا قبلي! يكفي إذاً. أنا لا أتنازل وأخوض معك في هذا الموضوع. إذهب عني ولا تعد إلّا متى تعلمت أن لا تتدخل بما لا يعني أحداً غيري.

ـ فأجاب أخوه: حسن، لكن امرأتي سوف لا تنظر إليها وتعتبرها كامرأتك. قال هذا وانقلب راجعاً من حيث أتى. وما هي دقائق حتى دخل على الملك ابنه لويس ولي عهده والعثير البادي على ملابسه يدل على أنه آتٍ من بعيد. فترامى على قدميه وهو يقول:

ـ سيدي أشفق علينا ولا تذقنا هذه الإهانة، مولاي أرجو أن ترفع عنا هذا العار! مولاي استحلفك باسم جدودك وجدودي ملوك فرنسا وأنا أناشدك بالله أن لا تهينهم في قبورهم.

فصاح الملك: ويلاه! أنا لا أقدر على احتمال هذا الكلام من أخي، فكيف أستطيع استماعه من ولدي. لا شك في أنه هو الذي أرسلك إلى هنا يا لويس، أليس كذلك؟

ـ إني لم أرَ عمي حتى الآن يا سيدي. وكنت في «مودون» حيث سمعت هذا الخبر المشؤوم وعند ذلك أطلقت العنان لجوادي وأسرعت لأقبل قدميك وأتوسل إليك أن لا تحط منزلة بيتنا الرفيع العالي.

ـ ما هذه الجسارة يا لويس؟

ـ لا أريد أن أتجاسر على أبي وملكي، لكن والدتي كانت ملكة يا مولاي وأرى من الغريب أن تقوم مقامها هذه الـ . . .

ـ فصاح الملك بصوت كأنه الرعد القاصف: ويحك أصمت. وإلّا أقصيتك! علامَ تتدخل بأشغالي الخاصة؟

ـ هذه ليست أشغالك الخاصة يا مولاي لأنها تتعلق بكل اسم من أسماء عائلتنا. اذكر أعمال جدودنا الأبطال واذكر عظمتك أنت ملك أوروبا بأسرها، أنت الذي رفعت فرنسا إلى أوج العلاء حتى غدت أنظار العالم بأسره متجهة إليها، مولاي أذكر أنك لويس العظيم وابن الملوك العظام. أبعد عنا هذا العار، بحقي أنا ولدك وثمرة حنوك، أشفق على دموعي الجارية وقلبي المنكسر عند ذكري لأمي . .

أذكر أني يتيم يا مولاي وأشفق علينا جميعاً.

ـ إنك تتكلم كأبله لأن المرأة التي عزمت على الإقتران بها، هي تمثال الكمال والفضيلة فضلاً أنها ابنة أشرف أسرة من أسر فرنسا وأنت تظن أن في ذلك عار علينا.

ـ قل لي ما هو اعتراضك على زواجي بها؟

ـ أعترض على ذلك بأنها ابنة رجل آثامه وسيئاته معروفة.

وأن أخاها مفسود السيرة، سـافـل الأخلاق، وأنها عاشت عيشة قابلة للإنتقاد. إذ لم يكن لها موضع تسند إليه رأسها فهي أرملة مخلّع، وهي الآن خادمة في هذا القصر.

ـ ويحك أيها الغبي، أتدعو تلك التي تعتني بتربية أولادي خادمة، إن هذه الوظيفة لهي أشرف وظيفة وأعلى رتبة، وأفضل لقب؛ قم واذهب إلى «مودون» للحال، وإياك أن تجسر مرّة أخرى على الكلام بهذا الشأن. متى غدوت ملك، ملك فرنسا إفعل عندئذٍ ما تشاء، وما زلت أنا الملك، فإياك أن تعترض على أشغالي. اذهب للحال.

فقام الولد والدمع ملء عينيه وانحنى احتراماً ومشى حتى وصل إلى الباب. وقبل أن يخرج قال لأبيه:

ـ إن الأب «فينلون» أتى برفقتي يا مولاي، فهل تسمح له بمقابلتك؟ قال هذا وانحنى وخرج. وإذا بالأب دي فينلون قد دخل.

فقال له الملك:

نهارك سعيد أيها الأب! أخبرني ما أتى بك إلى هنا؟

فقال الأب بتواضع إنك تنازلت وأفهمتني أكثر من مرّة يا مولاي أن لك بعض الثقة بي وذلك عندما كنت تسألني عن

رأيي في حل المشاكل الصعبة.

ـ حسن، ثم ماذا؟

أنبئت خبراً غريباً والعهدة على المبلغ، وهو أن جلالتك مزمع على الاقتران.. فأتيت لأقدم مشوراتي وآرائي في هذا المعنى.

ـ إن هذا إلا كلام مختلق؟.. قل بالأحرى بأنك مرسل لتؤثر على فكري وتحولني عن الاقتران بمدام دي مانتنون.

ـ إني أعتبر هذه السيدة اعتباراً عظيماً وأجلها أكثر من كل نساء فرنسا.

ـ إذاً لا شك في أنك تسر لاقتراني بها واعلم أني لا أتحول عن فكري هذا إلّا بخروج روحي من جسدي. ثم إني أتأسف لأن وقتي دقيق لا يسمح لي أن أبقى معك في هذه الساعة إذ إن أشغالاً مهمة تنتظرني.

فلم يسع الأب دي فينلون سوى الصمت. وبعد أن انحنى ثلاثاً أمام الملك خرج من القاعة، ولم يبق محل للغضب في قلب لويس الرابع عشر بل جدد قصده عندما رأى نفسه وحيداً في الغرفة، وعزم على أن لا يحمق ويغضب أيضاً بخصوص هذه المسألة، وإذا بلوفوا وزير الحربية داخل فقال له الملك:

ـ ماذا يا لوفوا؟ هل من مهمة سياسية؟

ـ لا يوجد الآن سوى مسألة واحدة سياسية وهي مهمة جداً.

ـ وما هي يا ترى؟

ـ مسألة زواجك يا مولاي!

ـ وهل تستقبحه؟

ـ **وهل يمكنني أن أستحسنه يا مولاي؟**

فصاح الملك أخرج من أمامي، أخرج حالاً من هذه الغرفة! كيف تتجاسر أن تبقى هنا بعد أن أمرتك بالخروج.

لم يخرج «لوفوا» بل انتضى سيفه وقدمه للملك قائلاً: أغمد هذا السيف في صدري يا مولاي ودعني أموت الآن بحياة ملكي العظيم. فذلك خير لي من رؤية مجده مهاناً وشرفه محتقراً.

فرفع الملك يديه إلى السماء وقال مناجياً العزة الإلهية: ماذا فعلت يا رباه، وأي ذنب لا يغتفر جنيته فتعذبني عليه هذا العذاب الشديد. ثم قال للوفوا لا شك في أنكم اتحدتم في هذا البلاط على أن تخونوني...

ما لك ولي أيها الرجل؟ اعلم أن زواجي هذا سيكون أمر شخصي وسيكون شبه سري، ولا دخل له بالسياسة، وامرأتي

تكون زوجة لي فقط لا ملكة لفرنسا. هل فهمت كل هذا؟

فماذا تريدون مني بعد ذلك؟

ـ هل مولاي عاقد النية على هذا؟

ـ أجل، أجل.

ـ فإذاً لن أفوه بعد بكلمة واحدة، لأني عملت الواجب عليّ، عند ذلك دخل الأب لاشيز وخرج لوفوا، فقال الأول: إني أهنئك يا مولاي على ما فعلت، وأتمنى لك من صميم فؤادي أن تكون سعيداً في هذه الدنيا وفي الآخرة.

ـ أشكرك أيها الأب ولكن حتى الآن لا أعرف ما هي السعادة، ولا ما هو الهناء، وقد كان يومي هذا من أمر الأيام وأضيقها وأعسرها لأن كل من في البلاط اجتهد في تغيير فكري.

ـ لكن جلالتك ذات إرادة قوية ولا شك في أنها ضحكت من كل هؤلاء المفسدين.

ـ إن فكري لم يتغير قط لكن يسوءني أن أرى الآخرين متحدين ضدي. إني متأكد من أن فعلي حسن ولهذا قاومتهم جميعاً ـ دعني أراك في المساء فإني أسرّ بذلك أما الآن فأرجو أن تتركني وحدي لأني أريد أن أفتكر قليلاً.

فأطاع الأب لاشيز وخرج فوجد بوسويه ينتظره في البهو فأخبره بما دار بين الملك وبينه من الحديث، وذهب الإثنان تواً إلى غرفة مدام دي مانتنون وهما في غاية الخوف والقلق فوجداها جالسة بقرب النافذة وقد بدلت ملابس الحزن التي لم تغيرها بعد موت «سكارون» زوجها الأول بثوب حريري ناصع البياض وزينت شعرها بوردة من الإلماس النقي، وتغيرت هيئتها بتغيير لبسها فازدادت جمالاً وملاحة وبدت شابة أمام كل ناظر إليها. ولما رأت صديقيها داخلين عليها، نهضت وسلمت، ولكنها بعد أن نظرت إليهما وضعت يدها على قلبها وقالت: إنكما تحملان خبر سوء بلا شك؟

قال الأسقف: لا يا ابنتي، لا تخافي لكن يجب علينا أن نأخذ الاحتياطات، لأن أعداءك كثيرون وربما قدروا على تحويل فكر الملك عنك.

فقالت باسمة إذ لم تفهم ما كان يعني تماماً.

ولم تعلما بكل ما جرى بيني وبينه أمس، إنه أقسم لي بأنه سيعيش عيشة جديدة، وأنا أثق به الآن كما أثق بنفسي.

- فقال الأب لاشيز نعم ولكن أكرر على سمعك إن أعداءنا كثيرون وهم أقوياء، وسيضايقون الملك في كل ساعة. فخوفاً من ذلك علينا أن ننهي المسألة.

ـ قالت وكيف ذلك يا أبتِ؟

ـ يجب أن يكون الزواج بأقرب الأوقات.

ـ بأقرب الأوقات؟ متى تعني؟

ـ في هذه الليلة إذا أمكن.

ـ إن الملك لا يقبل بهذا أبداً.

ـ بل إنه سيطلب منك أن ترضي بذلك.

ـ وكيف يكون ذلك؟

ـ ونحن نحمله عليه ومتى تمَّ الزواج، لا يعود تأثير لكلام من في البلاط، إنما الخوف كل الخوف قبل أن يتم الزواج.

ـ وماذا يجب عليّ أن أفعل يا أبتاه؟

ـ أن تذهبي وتودعي الملك.

ـ أن أودّع الملك؟ كان يمكنني الافتراق عنه في الشهر الماضي، في الأسبوع الماضي، بل في صباح أمس لكن بعد أن سمعت إيمانه واعترفت له بحبي، أي من مساء أمس لم يبق لي قوة على فراقه، وإذا ابتعدت عنه أموت ويتفتت قلبي، وتذوب روحي لا أقدر.

ـ لا تخافي يا ابنتي، افعلي ما نقوله لك، إذهبي إلى الملك وقولي له إنك ـ علمت ـ بأن من في البلاط ضايقوه هذا اليوم بسببك ـ وإنك ـ لا تريدين أن تكوني سبب نفور بينه وبين

أسرته، وإنك ـ بناء على ذلك ذهبت لفك ربط الوعود بينكما، ثم تخبرينه بأنك عازمة على مغادرة البلاط والابتعاد عنه آخر العمر. إذهبي.

ـ أنا أذهب؟ أنا؟ الآن؟

ـ نعم إذهبي حالاً لا تضيعي الوقت.

ـ إني أتبع مشورتكما لاعتقادي بأنكما أكثر حكمة مني. لكن ربما رضي بكل ما أقوله له.

ـ لا تخافي إنه لا يرضى بذلك أبداً ولن يدعك تذهبين.

ـ آه إنها لمخاطرة عظيمة.

ـ إن العاقبة توازي هذه المخاطرة، إذهبي يا ابنتي بحراسة الله.

بعد ذهاب الأب لاشيز بقي الملك وحده مستغرقاً في أفكاره وهواجسه، ولم تمض نصف ساعة حتى فتح الباب ودخلت منه تلك الامرأة التي كانت موضوع أفكاره وعذابه فهبّ من مكانه وبسط ذراعيه لها وهتف فرانسواز أنت هنا، إنك لأول زائر تسرني رؤيته في هذا النهار.

ـ مولاي. أخشى أن تكون قد انزعجت اليوم.

ـ نعم قد ازعجوني كثيراً يا فرانسواز.

ـ عندي دواء لذلك يا سيدي.

ـ وما هو؟

ـ قد عزمت على السفر من هنا يا مولاي فأرجو أن لا تذكر ما جرى بيننا في غابر الأيام. نعم أذهب لأني أرى وجودي يسبب الانشقاق بدلاً من أن يكون سبب الوئام والوفاق بينك وبين أسرتك الكريمة ووزرائك. يلزم أن أذهب إلى أحد الأديرة حيث أقضي باقي حياتي بين الراهبات اللواتي هجرن العالم وملاذه وبتن لا يفتكرن بالأمور العالمية وحينئذ لا يعود يزعجك أحد.

فبهت الملك واستولى عليه الجمود وظلّ برهة لا يفوه ببنت شفة، ولا يبدي حراكاً، فكأن صاعقة انقضت عليه، فامتقع وجهه حتى لقد أصبح مثل وجه مسيء ثم صرخ بغتة: ماذا تقولين؟ ألا تعلمين مقدار تعلقي بك؟

ما هذا الكلام الذي أسمعه من فيك. لا، لا، هذا لا يمكن أبداً إني قد اعتدت الحياة بقربك، وأضحى صوتك طرباً لسمعي، وحديثك سكراً لنفسي، ونظرات عينيك حياة لقلبي ويخيّل إليّ أن روحي متعلقة بكلمة تتمتمها شفتاك، تريدين أن تغادريني بعد أن علمت كل هذا وتحققت أن لا صديق لي سواك، إن هذا لمستحيل!

ـ مولاي إن هذا الفراق يفتت كبدي، ومن أين لي القوة الكافية لأعرّف لك عن كل ما أقاسيه في ساعة هائلة كهذه ـ ساعة وداع أبدي ـ لكني لا أقدر أن أبقى على الحالة التي أنا فيها وأرى نفسي سبب القلاقل والانشقاقات بينك وبين أعضاء أسرتك ووزرائك.

ـ صمتاً وسكوتاً...

ألست أنا الملك والآمر الوحيد هنا؟ أم لا أقدر أن أعمل عملاً بدون مشورتهم وإرادتهم؟

لا يا فرانسواز لا تذهبين بل تبقين معي وتكونين امرأتي. قال هذا وأمسك بأطراف ثوبها وعيناه ترمزان إليها بالبقاء كأنه رضيع يأبى الابتعاد عن أمه.

ـ فقالت بحلاوة لا توصف: كيف أبقى معك وأكون سبب استيائك؟ من اليوم إلى يوم زواجنا مدة غير محدودة. وفي كل يوم من أيام هذه المدة سيضايقونك كما ضايقوك اليوم. وهل أستطيع أن أكون سعيدة مسرورة وأنا أعلم أني موضوع عذاب لجلالتك؟ دعني أبتعد عنك يا مولاي وأتناسى حبك! أتركني أفطم نفسي من حنوّك وتعطفاتك وخلني وشأني.

ـ ولماذا تبعدي زواجنا إلى أجل بعيد يا فرانسواز؟

ـ مهما كانت المدة قريبة، فإني أراها طويلة جداً نظراً للعذاب الذي ربما تكابده بسببي، فها أنا ذاهبة الوداع يا مولاي!

ـ ماذا تقولين أنت تودعينني وتذهبين، وأنا أعيش بدونك، هذا لا يمكن أبداً. ولماذا ننتظر؟ ها أنت حاضرة وأنا مستعد، لم لا نعقد زواجنا اليوم بل الآن للحال؟

ـ بهذه السرعة يا مولاي؟

ـ أجل هذا غاية متمناي وهذا ما شاء الله. وكل من يسألني أجيبه بهذا الجواب. لا يعلم أحد في أي وقت اقترن بك وسأرسل للحال امرأ إلى أسقف باريس ليأتي ويباركنا ويكللنا، والويل لمن لا يحترم امرأتي ويكرّمها.

ـ أهذه إرادتك يا مولاي؟

ـ نعم. وعيناك تصرحان بأن هذه هي إرادتك أيضاً فلماذا ننتظر؟ إذهبي الآن إلى غرفتك يا أعزّ الناس عليّ. سنلتقي في هذا المساء ونتحد إتحاداً لا انفصال بعده إلى الأبد.

بعد خروجها استدعى الملك بونتمس وسأله عن الساعة فقال: ستة يا مولاي.

ـ هل تعلم أين القبطان دي كاتينا الآن يا بونتمس؟

ـ أظن أنه في الحديقة وقد سمعت أنه عازم على الذهاب إلى باريس الليلة.

ـ هل يذهب وحده؟

ـ كلّا. بل يصحبه صديق له.

ـ ومن هو؟

ـ شاب غريب من أميركا أتى به دي كاتينا من باريس ليريه بدائع قصر جلالة ملكنا الأعظم.

ـ شاب غريب؟ حسن. اذهب يا بونتمس واحضرهما لي معاً.

خرج بونتمس وعاد بعد عشر دقائق وقال: كانا على وشك الذهاب فاستوقفتهما.

ـ أين هما؟

ـ ينتظران أمر جلالتكم ليدخلا.

ادخلهما لا تسمح لأحد أن يدخل ما داما معي أفهمت؟
كان دي كاتينا اعتاد أن يرى الملك مرات عديدة كل يوم ولهذا لم يهتم كثيراً لهذه المقابلة، أما أموس فكانت هذه أول مرّة يرى فيها ملك فرنسا، فأخذ يسأل دي كاتينا: كيف يجب أن يكلمّه، وهل الملك رجل أو امرأة حيوان أو ملاك ومن أي

جنس من البشر؟ فضحك دي كاتينا وقال له: إفعل كما أفعل.

فسرّ أموس بهذا الجواب واقتنع به. ودخل الإثنان على لويس الرابع عشر وكان أموس يقلّد القبطان في كل سكنة وحركة من سكناته وحركاته حتى يخيل للناظر إليهما أن الأول يهزأ بالثاني، لكن لم يكن هنالك من يراهما سوى الملك الذي كان متشبثاً بشيء آخر، فقال لدي كاتينا والابتسام ملء شفتيه: أنعم مساء أيها القبطان قيل لي إن صديقك غريب. فقل لي أيها الشاب (نحو أموس) كيف وجدت بلادنا؟

فقال أموس بدون ارتباك: إن صديقي القبطان أراني هذا القصر الجميل، وجنائنه وغاباته، والحق يقال إن هذه البلاد جميلة للغاية.

- أراك تحسن الإفرنسية مع أنك أمريكاني!

- نعم يا سيدي أنا أمريكاني إنكليزي، لكن والدتي إفرنسية فابتسم لويس الرابع عشر وقال للقبطان دي كاتينا:

- يجب أن تذهب إلى باريس في الحال أيها القبطان ويقدر صديقك أن يذهب معك. أتعرف منزل المطران «هارمي» أسقف باريس؟

- أجل يا مولاي.

ـ اذهب إليه من قبلي ومره أن يكون في منتصف الليل، بالرغم من كل مانع قد يمنعه من المجيء. أفهمت؟ يجب أن يكون هنا في منتصف الليل.

ـ سيكون هنا حسب أمرك يا مولاي.

ـ حسن اذهبا بسلام وأتمنى لصديقك الغريب أن يرى ما يسرّه في بلادنا. قضت مدام دي «مونتبان» سحابة ذلك اليوم في غرفتها، وهي لا تدري ما يدور حولها في القصر من المهام، ولم يجسر أحد أن يخبرها ذلك الخبر العظيم الذي كان يملأ البلاط بخصوص زواج الملك بمدام «دي مانتنون»، وهي تسأل نفسها عما سبب عاقة الملك عن زيارتها. فأخذت تكتب له مستعلمة عن السبب لكن فكرها وقلبها كانا في غاية الارتباك ولم يخط يراعها حرفاً حتى أخذت القرطاس وهي غضبى ومزقته تمزيقاً. ثم اجتهدت في أن تصرف فكرها إلى قراءة أحد الكتب قصد التسلية غير أن الكتاب سقط من بين يديها، لم تفكر في أن ترفعه من الحضيض. فأطلقت العنان إلى هواجسها وأحاطتها المخاوف إحاطة السوار بالمعصم، ثم ذكرت أن الملك أتى لزيارتها بالأمس إلا أن معاملته لها كانت في غاية الفتور، على أن نظره كان حائماً حول الساعة كمن ينتظر مرور الوقت ثم غادرها غير مكترث بها كأنه لم يعرفها قبلاً.

فنهضت ووقفت أمام المرآة التي رأت بها صورتها الفتانة فصرخت: أي رجل في العالم لا يسقط عند قدمي حين يراني، ومن لا تحرق قلبه نظراتي، عندما يرى ابتسام شفتيّ. . هل يقدر من احبني واعتاد على النظر إلى جمالي أن يهوى غيري؟ وإذا شغف بغيري حيناً ما، هل تستطيع امرأة في الدنيا أياً كانت أن تغلبني في عراك كهذا وتسلب مني من أريده؟

لا. لا. وأن من الجنون أن أدع هذه الأفكار تؤثر عليّ، الملك أحبني ولن يحب غيري. كما أنه لا يفضّل سواي عليّ.

عند ذلك سمعت وقع أقدام في الخارج فظنت أن القادم الملك ولكنها تأكدت عندئذ أن المشية ليست مشيته وقالت: ربما يكون هذا رسول لي وإذا بالباب قد فتح ودخل منه أخوها مسيو «دي فيفون» وهو يرى كالضائع ينظر إليها بعينين لا ترياں ثم سألها على الفور: ألم تسمعي بالخبر الجديد؟

ـ لم اسمع بشيء وأي خبر تعني؟ قالت هذا وقد جاشت نفسها وأخذت ترتجف وترتعد.

ـ إننا في أحرج المواقف وأضيقها يا مونتبان والوقت وقت عمل وجد وحكمة.

ـ ماذا؟ بربك قل لي ماذا؟

ـ إن الملك عازم على الاقتران بمدام دي مانتنون.

ـ المربية أرملة المخلع! هذا مستحيل.

ـ هذا أكيداً؟

ـ الاقتران؟ أهو يقترن بها؟

ـ نعم:

ـ فلطمت رأسها وخديها عندئذ مراراً ثم ضحكت ضحكاً طويلاً عالياً انتهى بشهيق وبكاء، ثم مسحت دموعها واستجمعت قواها وقالت:

ـ إن أصغر شيء يخيفك يا «شارل» أمهلني يوماً واحداً فقط فأذله وأظهر لك أني أهل لأن أدعى ابنة «مورتمارت» وشقيقتك، إذ إني أُلاشي فكر الملك من هذا القبيل وسترى مرّة ثانية لويس العظيم، لويس المتكبر يلثم قدميّ طالباً مني أن أسامحه. امهلني يوماً واحداً لأعمل كل هذا.

ـ وأنّى لي أن أهبك اليوم الذي تطلبينه. ومن أين لك الحصول على ما ترغبينه؟

ـ ولماذا؟

ـ لأن الليلة يتم الزواج.

ـ إنك فقدت عقلك.

ـ بل أنا متأكد مما أقوله، لأني راقبت الملك اليوم ورأيت

كل من زاروه من أخيه إلى دي كاتينا اللذين أمرهما الملك بأن يذهبا إلى باريس لإحضار الأسقف. وهما يتأهبان للسفر الآن.

فوقفت عندئذ وعادت نحو الباب كالمجنونة.

- إلى أين تذهبين يا مونتبان؟

- أذهب لأراه وأكلمه.

- لا تذهبي. فقد أمر الحراس بألّا يدعوا أحداً يدخل عليه.

- ولكن يجب أن أذهب.

- فأمسكها بعنف وقال: لا تتعبي، فأنا أعلم حق العلم أن تعبك لا يجدي نفعاً. ولا أريد ونفسي لا ترضى بأن تكون أختي أضحوكة في البلاط بهجومها على غرفة رجل يقصيها عنه.

صعد الدم إلى رأسها عند سماع هذا الكلام وقالت: يكفيني يوم واحد يا شارل، ثم ثق بأني أعيده إليّ كالأول. آه من تلك الامرأة العجوز، الملعونة أرملة المخلّع. إنها أفعى سامة دخلت بيتي، وأكلت على مائدتي. كيف يقترن الملك بها... شارل، شارل، إني أشعر بذهاب الرشد مني دعني أرى الملك. يجب أن أمنع هذا الزواج، إني أهب كل ما أملك في سبيل منعه.

ـ ماذا تعنين يا مونتبان؟

ـ فنظرت إليه متعجبة وقالت: هل تريد أن أشتريك بالمال؟

ـ لا بل أريد أن أشتري أناساً آخرين.

ـ ماذا هل عندك من واسطة؟

ـ عندي واسطة واحدة لا غير فالوقت ضيّق أعطيني النقود حالاً.

ـ كم تريد؟

ـ كل ما يمكنك لأني أحتاج إلى مبالغ وافرة. ففتحت خزانة صغيرة سريّة في حائط الغرفة وقالت: خذ ما تشاء ـ فملأ جيوبه من الذهب وقال: أنا ذاهب لمنع مجيء الأسقف إلى هنا في هذه الليلة، تفعلين ما تشائين غداً وتكونين حرّة سحابة يومك.

ـ وكيف تمنع مجيء الأسقف؟

ـ أجمع عصابة بهذه النقود التي أخذتها وننتظر في الطريق مرور الرسولين إلى باريس لإحضار الأسقف.

فقاطعته قائلة: يا لك من أخ نبيه إذا أخرتم ذهاب الرسولين فلا خوف ولا حذر، اذهب ولا تضيّع الوقت أيها العزيز.

ـ حسن لكن ماذا نفعل بهذين الرسولين، إنهما في خدمة الملك، فإذا جردنا الحسام عليهما يحكم علينا بالقتل حالاً.

ـ ألا تقدر على قتلهما؟

ـ لا أقدر.

ـ نعم تقدر. لأني في مساء غد أكون استوليت على قلب الملك أكثر من الأول.

ـ حسن يا فرانسواز لكن لا يدوم ملكك ربما يوماً واحداً أو يومين وبعد ذلك تكون حياتنا دائماً في خطر أرى الأنسب أن نسجن الرسولين.

ـ وأين نسجنهما؟

ـ في قصر المركيز دي مونتبان في بونتياك.

ـ في قصر زوجي؟

ـ نعم.

ـ في قصر عدوي الألد؟ إنك تمزح يا شارل؟

ـ إلّا أني لا أمزح أبداً يا فرانسواز إن المركيز ذهب بالأمس إلى باريس ولم يعد. فأعطيني ختمك الذي هو ختمه، فربما احتجت لاستعماله.

ـ فأعطته ما طلب وسألته: ومتى عاد زوجي؟

ـ نفعل ما يلهمنا إياه الله أو الشيطان، والأهم الآن هو أن نمنع الرسولين من الذهاب إلى باريس، فالوداع ثم إنه ضمها بين ذراعيه وقبّلها بحنو وقال: سأبعث إليك برسول يخبرك بكل ما يحدث لنا وهرول مسرعاً نحو الحجرة.

أمّا هي فظلت جالسة تفكر حتى منتصف الليل منتظرة الرسول الذي وعدها به أخوها. وبعد نصف الليل وردها كتاب ففضته وأعضاؤها ترتجف والعرق يتصبب على وجهها. فإذا فيه هذه الكلمات الست:

«الأسقف لا يأتي في هذه الليلة».

كان دي كاتينا عالماً بكل ما يقال في البلاط عن زواج الملك بمدام «دي مانتنون». ولمّا تلقى أمر الملك بالذهاب إلى باريس لإحضار الأسقف تأكد من صحة الخبر، ولعلمه أن مدام دي مونتبان ستبذل جهدها لتفرّق بين الملك ومدام دي مانتنون، وخوفاً من أن تعلم بذهابه إلى باريس فتضع له العراقيل في طريقه، لم يمتط جواده هو وأموس جرين إلا بعد أن خيّم الظلام، وقال لأموس هل أنت متسلح؟ أوَليس معك سيف أو طبنجة؟

ـ لا أحمل عادة سوى بندقيتي لأني لا أحسن استعمال السيف أو المسدس. والآن لا يوجد معي سوى مديتي. لكن

لماذا تسألني هذا السؤال؟

ـ لأننا نتوقع خطراً.

ـ كيف وأين؟

ـ إن كثيرين يودّون منع زواج الملك وهم أقدر الأشخاص في المملكة وربما صدونا عن الذهاب لتأخير الاكليل ولو لليلة واحدة.

ـ كنت أظن أن هذا الزواج سرّي وأننا وحدنا نعلم به.

ـ لا أسرار في قصور الملوك وأؤكد أن شقيق الملك وابنه وكل أسرته وجميع وزرائه يسرّون إذا علموا بأننا غرقنا في «السين» قبل أن نصل إلى باريس.

ـ لكن من أرى هنا؟

ـ ألا ترى شبحاً أمامك يا أموس؟

ـ فإذا بشبح يحمل سراجاً صغيراً ويقترب منهما، فعرفه دي كاتينا حين سألهما إلى أين تذهبان؟

ـ إلى باريس أيها الماجور.

ـ وأنا ذاهب إليها أيضاً بعد ساعة من الزمن، ألا تنتظراني لنذهب معاً؟

ـ فقال دي كاتينا: أتأسف لأني لا أقدر على ذلك، إذ إني

ذاهب في مهمة ذات شأن يجب أن أقضيها في زمن محدد ولا أستطيع أن أضيّع دقيقة واحدة.

ـ أستودعكما الله إذن وأرجو لكما سفراً سعيداً.

ـ فسأل «أموس» «دي كاتينا» بصوت منخفض:

ـ هل يحفظ الماجور صاحبك السر وهل يوثق به؟

ـ إنه نموذج الأمانة والإخلاص!

ـ إذاً عندي كلام أقوله له. قال هذا وأسرع وراء الماجور ثم عاد بعد خمس دقائق فوجد «دي كاتينا» يرغي ويزبد فصاح به:

ـ عد إلى باريس وحدك يا صاح أمّا أنا فلا أقدر أن أضيّع وقتي كما تفعل أنت.

ـ فقال أموس غير مكترث بغضب رفيقه: كان عندي كلام قلته للماجور أمّا الآن فما من شيء يعيقني عن السير معك.

ثم سار الصديقان نحو ميل أو أكثر دون أن يتصدى لهما أقل خطر، كان الهواء بارداً والسماء ملبدة بالغيوم تنشق من وقت إلى آخر عن قمر لايزال هلالاً وعند طلوعه كان دي كاتينا ينظر إلى الطريق كمن يقتص الأثر، أخيراً نظر إلى أموس وقال ماذا تفتكر في هذه الطريق؟

ـ يخيّل لي أن سلسلة من المركبات مرت من هنا اليوم فإن آثار الدواليب ظاهرة.. لكن ماذا.. إن ركابي قد انكسر وسقط.

ـ وهل أجده وأستطيع السير بدونه كما لو كان ولا حاجة لي به. ثم سارا برهة أخرى وعلى حين غفلة رأى دي كاتينا نفسه على الحضيض فأخذ يشتم ويلعن ويسأل عن سبب سقوطه فقال له أموس إن ركابك لحق بركابي وهذا هو سبب سقوطك، أضعنا ركابينا في وقت واحد، أيمكن هذا؟

ـ قال أموس يستحيل أن يكون هذا حدث اتفاقاً، اللجام انقطع أيضاً. ولجام فرسي أيضاً.

ـ إن الذي هيأ الجوادين خاننا وبإيعاز من مدام دي مونتبان التي بلا شك قد اشترته بالدراهم ليفعل ما تكون عاقبته تأخير سيرنا وحينئذ يقبضون علينا ويمنعونا عن الذهاب.

ـ ما هو رأيك في هذه المسألة؟

ـ الذهاب من طريق أخرى ولو طالت المسافة.

ـ هذا غير ممكن لأننا إذا غيرنا الطريق نضطر أن نذهب إلى مودوق وهذا يزيد المسافة عشرة أميال.

ـ ولكن الأولى أن نصل إلى باريس متأخرين ولو ساعة من

أن لا نصل إليها أبداً.

ـ لا أغيّر طريقي هذا لأني أعلم حق العلم أن الطريق الثاني وعر وبعيد جداً.

ـ وإذا وجدنا أعداء أمامنا؟

ـ أحاربهم وأقتلهم.

ـ وإذا كانوا عشرة أو أكثر وأنت وحدك.

ـ أحاربهم وأقتلهم ولو كانوا مئة، إن أبي كان شريفاً يملك أرضاً وغابات وبلاداً كثيرة. وأنا ابنه الذي يعلم بأن كل هذه الخيرات أتته من ملوك فرنسا، فلا أقصر في خدمة لويس الرابع عشر ولو كلفني ذلك فقد حياتي.

ـ وأنا ابن تاجر وقد رأيت أناساً كثيرين في زماني وأعرف الإنسان إذا كان مجنوناً أو بليداً بمجرد نظري إليه أو لمجرد سماعي كلامه، وبهذا أحكم عليك الآن.

ـ فصاح دي كاتينا والغضب آخذ منه كل مأخذ.

ـ ويحك من غبي جسور! لكني لا أناقشك الحساب الآن لأني ذاهب في مهمة خطيرة، وسأنظر في هذه المسألة مرّة ثانية، وسيكون لي ولك شأن مهم. . والآن فلك أن تعود إلى فرساي إذا شئت وسنلتقي ثانية هناك. قال هذا وغمز شاكلة

جواده بعد أن رفع قبعته مسلماً فتضعضع أموس بضع دقائق لكنه ما لبث أن لحق به ومشى بالقرب منه صامتاً. وبعد مضي برهة رأى نجوماً بعيدة تتلألأ، فلم يعرف ما هي وسمع دي كاتينا يقول له: انظر هذه الأنوار الساطعة هنالك كأنها نجوم متقدمة إنها أنوار باريس. عجّل قليلاً بالمسير يا أموس وثق بأننا لن نضيّع في طريقنا إذ إن هذه الأنوار ترشدنا إلى الجهة المقصودة.

بعد عشر دقائق من ذلك كان الناظر يرى هذين المسافرين ساقطين عن جواديهما إلى الحضيض وقد أحاطت بهما عصابة من الرجال وكان أموس جثة لا حراك فيها ودي كاتينا يكاد يختنق تحت ثقل جواده وهو مثخن بالجراح مخضّب في الدماء.

كان مسيو دي فيفون قد ألّف عصابة وتقدم رسولي الملك في طريق باريس معيّناً اثنين في كل جهة من جهات الطريق، وقد مدوا حبلاً غليظاً قوياً جداً على الأرض وتخفى باقي الرجال بين الأشجار، فلمّا وصل المسافران إلى ذلك المكان شدّ الحبل بين قوائم جواديهما فسقطا كما تقدم وأسرع كل ما كان مختبئاً بين الأغصان إليهما وكان بينهم المسيو دي فيفون فأنار مصباحاً صغيراً ونظر في وجه كل من الصديقين وهز رأسه

وجلا وقال:

أخشى أن يكونا قد قضيا نحبهما يا ماجور ديبار فنكون قد أتينا عملاً وخيم العاقبة علينا، أين الدكتور لاتور؟

قال الطبيب ها أنذا يا سيدي من منهما تريد أن أفحص؟

ـ اذهب إلى ذلك مشيراً إلى أموس.

ـ إنه على آخر رمق من الحياة! وأظن أن أحسن شيء نقدر على فعله هو أن نغمد خنجراً في صدره.

ـ لا تفعل، لأنه إذا مات ولم تكن فيه جراح نكون غير مسؤولين عنه.

افحص الثاني الآن فذهب الطبيب نحو دي كاتينا ووضع يده على قلبه، فتنفس الصعداء مراراً ثم فتح عينيه ونظر لمن كانوا حوله كمن لا يعرف أين هو، وكيف أتى إلى ذلك المكان، فأخذ مسيو دي فيفون مشروباً مرطباً كان معه وصبّ قليلاً منه في دي كاتينا فعلا جبهته الاحمرار وعادت إليه ذاكرته، فنهض واقفاً على قدميه، وأخذ يضرب ويلكم من كان من حوله بيديه ورجليه، لكنه لم يقدر على الوقوف فوقع على الأرض ثانية وهو يقول:

يجب عليّ أن أذهب إلى باريس لأحمل إرسالية الملك،

ويحكم أيها الأنذال ستلاقون جزاء ما أنتم فاعلون؟

فقال الطبيب: لا خوف على حياته البتة، فقال دي فيفون إذاً دعه وشأنه، ولنحمل الشاب المفارق الحياة أولاً إلى المركبة.

قال هذا وعاد إلى أموس فلم يجد له أثراً فأخذ هو ورجاله بالبحث عنه غير عالمين بأنه ذهب من ذلك المكان، وانقضّ دي فيفون على الطبيب عندئذ وقبض عليه من عنقه بعنف وطرحه على الحضيض وقال· ويحك أيها الكلب الكاذب! أهذا هو طبك؟ ها إن الرجل قد هرب وانكشفت مساعينا. وأخذ يرفسه برجليه ويلعنه ويشتمه.

ـ رحماك يا سيدي ربما كانت هذه صحوة الموت أؤكد لك أنه كان على آخر رمق. وليس في استطاعته أن يبتعد كثيراً عن هذا المكان.

فقال دي فيفون هذا صحيح، لا يقدر أن يذهب إلى مكان بعيد من هنا إذ لا جواد عنده ولا سلاح معه فاذهبا يا «ديبار» وريمون دي كارناك وانتظراه في مدخل باريس، وأنت يا لاتور فاذهب مع نورنفيل وانتظراه في المدخل الثاني إذ ليس أمامه إلا هذان المدخلان، ومتى وجدتموه خذوه واربطوه على ظهر فرس أمامكم وآتوني به. والآن عودوا بنا ولنحمل الآخر إلى

المركبة ولنذهب. وكانت جماعة من الفرسان تحيط بالعربة التي كان فيها دي كاتينا مكبّل الأيدي كمجرم.

فأخذ يفكر في حالته وفي ما رآه وسمعه واستنتج من الأحاديث والأسماء التي سمعها أنه بين يدي جماعة مدام دي مونتبان ولكنه لم يرَ مسيو دي فيفون لم يعرفه عندما كلّمه لأنه كان واضعاً قبعته فوق عينيه وقد غيّر لباسه وصوته. فضلاً عن تستره بالظلام فقال في نفسه: والله لأجازيهم شر جزاء، وسوف يرون بأي عقاب صارم يعاقب الخائن الذي يضع يده الجانية على رسول الملك.

رسول الملك: هذه الكلمة فكرته في الأمر المهم الذي كان يحمله إلى باريس وفي ثقة الملك فيه، لأنه اختاره دون رفقائه وألقى اتكاله عليه، وها هو مكبّل الأيدي، يساق إلى حيث لا يدري، بين يدي زمرة من الأشقياء قصدوا تأخيره، ومنعه من الذهاب إلى باريس مخالفة لإرادة الملك فشرع يضرب أرض المركبة برجليه وخطر له الفرار فنظر إلى يمينه وإذ الفرسان تسير إثر وقع حوافر عديدة، فلم يجد منفذاً. ومدّ يده إلى جنبه فلم يجد سيفه، ووضع يده في جيبه فإذا بمسدسه قد أخذ منه. فضرب رأسه حزناً واستولى عليه الغضب، والقنوط، ثم عنّ على باله ذكر رفيقه أموس جرين ورأى في فراره بصيص

أمل، إنه ذهب إلى باريس وحمل الأمر إلى الأسقف.

غير أن أموس كان غريباً في باريس يجهل شوارعها وسككها وعوائدها. فعاد إليه القنوط ونظر إلى السماء مستغيثاً، وبعد أن تمتمت شفتاه صلاة حارة لمن هو عون المساكين وإغاثة الملهوفين أعاد نظره إلى الأرض وقد أبصرت عيناه بغتة حوذياً. وكان القمر مشرقاً ينير تلك البقاع، فرأى دي كاتينا دماً يسيل من ظهر ذلك الحوذي، فاستحوذ عليه الرعب، ورأى الدم يجري بكثرة، ثم رفع السائق يده ليسوق الخيل فآنس دي كاتينا فيها جراحات كثيرة مستجدة، والدم يسيل منها بغزارة فبهت لهذا المنظر وأخذ يسأل نفسه: من عسى تكون هذه الطغمة الشريرة وهذا الحوذي المخضب بالدماء وهذه الطريق التي يسير فيها دون أن يعلم إلى أين تفضي به، إذ إنها تبعد عن باريس وفرساي بوقت واحد، وكلما فكّر في هذا عاوده الحنق، فضرب الحضيض برجليه، وأدمى أنامله عضاً وكرر اللعن على القضاء والقدر والأعداء وكل من تصدى له في طريقه. وبينا هو كذلك إذا بالعربة غيّرت طريقها، وتحولت إلى اليمين سائرة في طريق تؤدي إلى باريس، فانتبه دي كاتينا لذلك ونظر إلى السائق الذي كان منتصباً على قدميه يضرب الخيل ضرباً عنيفاً ويحثها على الإسراع وهي تنهب الأرض نهباً فسمع أموري

اختلاط أصوات تحث بعضها للحاق بالمركبة وأطلق الفرسان العنان لخيلهم وكان وقع حوافرها يقرب من المركبة شيئاً فشيئاً، لكن السائق لم تفتر عزيمته بل طفق يزيد في حث الخيل على سرعة العدو أكثر من الأول وهي تعدو كالبرق الخاطف.

وكان القمر قد ظهر في القبة الزرقاء فانقشعت الغيوم وصفا أديم السماء، وتلألأت النجوم في كبد الخضراء، كأنها درر في نحر عذراء، وكان النسيم البليل، يمر على وجه كاتينا فتدب فيه حياة جديدة، فوضع يده على جبهته الملتهبة وأغمض عينيه برهة لجمع أفكاره. ثم تنفس الصعداء مراراً وإذا بصوت من وراء يقول: أقتل خيل المركبة يا ديبار أقتل الخيل حالاً. فنظر فإذا هما على حافة نهر السين ورأى الحوذي متجهاً نحو الماء. فدخلت المركبة فيه تخوض عبابه، ولم تكن إلا هنيهة حتى سمع صوت طلقين سقط على أثرهما جوادا المركبة بوقت واحد، فهبّ الحوذي من مكانه وما عتم أن رمى بنفسه في الماء، ولكن الجماعة كانت قد وصلت، وأسرع إثنان منهم بانتشاله لكنه لم يذعن وحاول أن يتملص منهما ويلقي نفسه ثانية في الماء. وبينما كان العراك جارياً بين هؤلاء الثلاثة وقعت قبعة ذلك السائق المتنكر فانكشف رأسه، وبدا محياه

في نور القمر. فتلعثم لسان أموري لهذا المنظر وجمد الدم في عروقه إذ إن السائق كان رفيقه أموس جرين بعينه!

لم يكن فيفون ورجاله أقل انذهالاً من أموري لما رأوا أن ذلك السائق هو شريدهم بعينه فشرعوا يتساءلون عن كيفية أخذه مكان الحوذي فقال أحدهم: أليس هذا هو الذي زعم لاتور أنه مائت؟ وأن هربه لم يكن إلا صحوة الموت؟ تباً للأطباء!

ـ وقال الثاني: وكيف توصل إلى هذا المكان؟

ـ لا شك في أنه قتل السائق، ألا ترى أنه يلبس جبته؟ وقبعته أيضاً. تعالوا نقتله إذاً عوضاً عن زميلنا الذي قتله، هيوا بنا نشنقه في هذه الشجرة.

فتقدم عندئذ مسيو دي فيفون وأبعدهم عن أموس قائلاً: إذا لمستوه لمساً فقط تموتون. إنه قاتل أرنو الحوذي.

إنّا لا نقدر أن نعاقبه على ذلك في هذه الليلة لأنه رسول الملك. سننظر في هذه المسألة مرّة أخرى، أين رفيقه، وهل هو سالم؟

ـ بتمام الصحة.

ـ اربطوا إذاً هذا الرجل وضعوه في المركبة بالقرب من رفيقه، واربطوا الجوادين المقتولين في مكان. وسق أنت يا

كارناك وعجّل في سيرك إذ إننا على مقربة من المكان المعيّن.
كل يعلم لأي درجة من القنوط وصل دي كاتينا أمّا يأس أموس فكان أشد وأعظم، لأنه كان يأمل أن ينجو ويخلّص رفيقه معه، وما أصعب القنوط بعد الأمل.

وهكذا ظلّ صامتاً بقرب أموري والمركبة تعدو بهما، والفرسان تحيطهما من كل جانب فأمال هذا رأسه قليلاً وقال له:

أيها الصديق هل سامحتني على ما قلته لك ونحن آتون من فرساي؟

إني لم أفكر حتى في ما قلته لي إذ ذاك.

ـ إنك كنت محقاً ألف مرّة يا أموس ليتني سمعت نصيحتك وغيّرت الطريق لكنا الآن داخلون العاصمة تباً لي أنا الأبله، الأحمق، المجنون، آه! ما أشرف معاملتك لي أيها الشجاع. ناشدتك الله إن قلت لي: كيف أتيت إلى هنا؟.

ـ لمّا سمعت تقرير طبيبهم المجنون، وشعرت بذهابهم إليك نهضت رويداً رويداً، وسرت على أمل التمكن من الهرب، فوجدت مركبة بقربها رجل واحد تحققت أنه سائقها فقتلته بخنجري، ولبست جبته ووضعت قبعته على رأسي

وجلست مكانه على أنني لم أكن أعرف الطريق التي عليّ أن أتبعها، لو أن سار أمامي فارسان تبعتهما وفعلت ما فعلت آملاً لقطع النهر لكن خيل هذه البلاد غير معتادة على السباحة في الماء، وهذا وحده أوقعنا في أيديهم ثانية.

بارك الله بك أيها الحبيب، إنك بطل شجاع وصديق مخلص.

ـ والآن ما العمل؟

ـ إني لا أعرف هؤلاء الرجال وأجهل تماماً المكان الذي يسيرون بنا إليه.

ـ ربما ذهبوا بنا إلى ضياعهم حيث يحرقوننا.

ـ فضحك دي كاتينا وقال: أتظن أنك في أميركا؟ إن أموراً كهذه لا تجري في فرنسا.

ـ صدقت إنهم لا يحرقون في فرنسا بل يشنقون، إذاً كادوا يعلقون عنقي في غصن الشجرة...

ـ أظن أنهم يسجوننا ريثما تنتهي مصادرتهم للإرسالية التي نحملها.

ـ إنهم لا ينجحون.

ـ وما تعني بهذا الكلام يا أموس؟

ـ كان جواب أموس الوحيد: ان ضغط ذراعيه على الحبل فانقطع فحله وحل رباط صديقه بهدوء كلي، ففهم أنه ينوي الهرب لكن في الوقت ذاته وقفت العربة أمام بيت كبير ضخم البناء، ونظرا فارساً ترجل وقرع جرس الباب بعنف شديد ففتح له وخيّل لهما أنه يتجادل مع من فتح الباب وبعد بضع دقائق أنزلا من المركبة وأدخلا إلى ذلك البيت فاستقبلهما الرجل الذي نظراه، يتجادل مع الفارس، وأقفل الباب وراءهما ثم استدعى رجلاً يدعى سيمون وقال له: خذهما إلى سرداب القصر الأعلى يا سيمون وناولهما قليلاً من الماء والخبز ريثما يعود سيدي، وحينئذ نعلم ماذا يجب أن نصنع بهما.

فقال له دي كاتينا: لا أعلم من هو سيدك، لكن أؤكد لك أن الرجل الذي يوقف رسولي الملك وهما مسافران في خدمته الخصوصية، يكون عقابه صارماً.

ـ هذا أمر لا يعنيني، فأنا موجود هنا لأعمل بأوامر سيدي، فاذهبا مع سيمون ودعاني وشأني.

فأخذ دي كاتينا يتوّعده ويتهدّده ويلعنه لكن كل ذلك لم يجد نفعاً.

وما هي إلا برهة قصيرة من الزمان حتى رأى نفسه مع صديقه في غرفة عالية جداً، أمّا الحارس المدعو سيمون فإنه

أحضر لهما إبريق ماء وفتاتاً من الخبز ثم أقفل الباب عليهما بإحكام وذهب لشأنه.

فنظر دي كاتينا حوله وكادت دموعه تفيض في عينيه إذ ذكر ثقة الملك به ثم جلس على أرض الغرفة ووضع رأسه بين كفيه، وخطرت على باله فتاة هيفاء، فتأملها طويلاً في مخيلته وكاد يصرخ أديل. . ! كنت ذاهباً لأراك في هذه الليلة بعد إتمام واجباتي للملك ولكن ها أنا بعيد عنك، لا أعلم في أي مكان وعند من أنا، كما أني لا أدري متى أخرج من هذا المكان الملعون ولمّا ذكر الملك سقط مغشياً عليه. في ذلك الوقت كان أموس يجول في الغرفة ويضرب برجليه حيطانها، ثم اقترب من النافذة فوجدها عالية جداً فقلب وجهه في الغرفة فإذا هي عارية لا شيء فيها سوى إبريق الماء فوضعه تحت رجليه وشبك أصابعه بحديد النافذة، وصعد إليها بسهولة وجعل ينظر إلى الخارج ويفكر في إمكان هربهما من ذلك النافذة إذا رفع منها الحديد ثم أخذ السكين من جيبه ليمتحن الأمر غير أنه سمع شهيقاً من جهة رفيقه فرمى بنفسه إلى الأرض وخف إليه فوجده جثة لا حراك فيها فجعل يرش الماء على وجهه ويفرك صدغيه إلى أن فتح دي كاتينا عينيه وتنهد طويلاً، فقال له أموس:

ـ يخيَّل إلي أنك مريض يا صاح.

ـ نعم إن فكري يعذبني تعساً لي أنا المجنون لأني لم أسمع مشورتك. . .

ـ وما الذي يعذّب فكزك؟

ـ أتسألني وأنت تعلم بما يجب عليّ أن أفعله وها أنذا أراني سجيناً! الملك أمرني بإحضار الأسقف، وقد آن الوقت الذي يجب أن يصل فيه، آه، يا رباه إني أرى الملك جالساً في غرفته ينتظره.

ولكنه سينتظره طويلاً ولا يأتي فما أشد سواد حظي.

هنا ألقى رأسه بين يديه واستخرط في البكاء.

فقال أموس بلطف: إني أرى كل ما ترى بل أرى شيئاً آخر أيضاً.

ـ ماذا ترى؟

ـ أرى الأسقف يبارك زواج الملك. . .

ـ الأسقف؟ هل أنت في حلم؟

ـ لا بل أنا في يقظة.

ـ يستحيل أن يكون الأسقف الآن في البلاط: يستحيل!

ـ إنك في ضلال يا صديقي، لأن الأسقف وصل فرساي منذ ساعة تماماً.

ـ فهبّ دي كاتينا من مكانـه وقال: الأسقف في فرساي منذ ساعـة . . . ومن أوصل له أمر الملك؟

ـ أجاب أموس برقّة: أنا أوصلته له.

ظنّ أموس لأول وهلة أنه سيرى على وجه رفيقه ما لا يوصف من إمارات الانذهال والتعجب وعلائم الشكر حين يخبره بأن الأسقف قد وصل عنـد الملك، ولكن خاب ظنه ورأى العكس.

فإن دي كاتينا نهض واقترب باسطاً ذراعيه إلى الأمام والحنان ملء عينيه، ثم وضع يده على كتفه وقال بلطف: قد أطلت التفكير بنفسي وبهمومي ولم أفكر بك كثيراً أيها الصديق فعذراً. . . نم على هذه الحصيرة بجانبي فربما كان سقوطك عن ظهر جوادك قد تسبّب لك بعض الألم. نم وأنا أحرسك.

ففرغ صبر أموس وصاح: أقول لك إن الأسقف هنالك!

ـ صدقت، صدقت، الأسقف هنالك بدون شك فقط أرجو أن تنام ولو قليلاً، اشرب من هذا الماء البارد أولاً ثم دعني أعصّب رأسك بمنديلي يخف ما به من الألم.

ـ يا لك من أحمق لا يسمع ولا يفهم! الأسقف موجود هنالك الآن؟

ـ إنك أصدق الصادقين أيها الصديق، نم وبعد ذلك نتحدث في هذا الموضوع، هل تشعر بألم ما في جسمك؟

ـ فضرب أموس أديم الأرض برجليه وقال:

ـ هل تظن أنني جننت، وما بالك تعاملني معاملة العاقل للأبله، وإذا استمررت على مخاطبتي بهذه اللهجة، تصيّرني مجنوناً بدون جدال.

أقول لك إن الأسقف هنالك وأنا صادق في كلامي. ألا تذكر عندما تركتك في فرساي؟ وعدوت وراء صاحبك الماجور دي بريساك أني رجوته عندئذ أن يذهب إلى بيت الأسقف لدى وصوله إلى باريس فإذا رأى خشبة صغيرة هناك موضوعة على الحائط ومنديلي هذا معلقاً عليها ذهب في سبيله وإلا دخل إلى بيت الأسقف وبلغه أمر الملك بدون تردد. وقد ترك الماجور فرساي نحو الساعة العاشرة ونصف والأسقف خرج منها في الساعة الحادية عشرة ووصل فرساي بعد منتصف الليل بنصف ساعة. أفهمت؟ وهل تصدّق الآن أن الأسقف هنالك أم لا. ؟

وكان دي كاتينا يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً وهو لا يكاد يصدّق ما يسمعه ثم دنا من صديقه وألقى نفسه بين ذراعيه وقبّله وقال له: آه كيف أكافئك على صنيعك هذا؟

ـ تكافئني بشيء واحد: وهو أن تنام وترتاح قليلاً.

ـ إنك خلصتني يا آموس هات يدك الكريمة فأصافحك مصافحة الأخ بل والصديق المحب والشكور الذي يود أن يكافئك وهيهات أن أستطيع وفاء معروفك!

ـ أناشدك بالله أن تمتد على الحصيرة وتنام.

فأذعن دي كاتينا طائعاً والفرح ملء قلبه وهو يرى في مخيلته الملك بالقرب من مدام دي مانتنون والأسقف يبارك زواجهما، وفي أثناء ما يخطر له أنه سيقف يوماً هذا الموقف قرب فتاة هيفاء يهّواها وتهواه لم تمض عليه بضع دقائق حتى غاب عن عالم الحقائق، وأضحت ملائكة الأحلام ترفرف فوق عينيه. ولما أفاق من نومه كانت الغزالة قد بزغت وقد ابتسمت الطبيعة تحت أنوارها الساطعة، فرأى أموس واقفاً في الغرفة وخنجره في يده وهو ينظر شذراً نحو الباب، ثم نظر إليه وقال:

ـ هل ظننت أن الرجل أتى؟

ـ وأي رجل تعني. هل أتى أحد لهنا في مدة رقادي؟

ـ نعم أتى الرجل الأسود الذي نظرناه أمس، وقد أحضر لنا خبزاً وماء.

ـ ذاك الرجل الأسود الذي يدعونه سيمون؟

ـ هو بعينه.

ـ ألم يقل لك شيئاً؟

ـ كلّا إنه لم يفتح فاه. وظننت أنه عاد الآن، فلو كان ذلك، لأمسكته وقبضت عليه وسجنته معنا.

ـ وكيف ذلك؟

ـ أربطه في هذه الحبال التي سرقتها أمس من المركبة وقد خبأتها في جيبي.

ـ ثم ماذا؟

ـ أتهدده بالقتل أو أنه يقول لنا: أين نحن وما قصدهم أن يصنعوا بنا.

ـ وماذا يهمنا هذا؟

إن الأمر الوحيد الذي كان يهمني هو أن أبلّغ إرسالية الملك، وإذا أرادوا أن يقتلونا فلا بأس في ذلك.

ـ ربما هذا هو فكرك في هذه المسألة أما أنا فإن فكري يختلف لا أريد أن أعيش يومين أو ثلاثة في هذا المكان الأشبه بالوكر الذي نحن فيه.

ثم أموت بعد ذلك كفأر في المصيدة. إنني قد اعتدت عيشة أخرى في الغابات ثم إن السياحة في الغابات والأحراج بين السباع قد علمتني تذليل الآلام والمصاعب.

ـ أصبر أيها الصديق، إن الصبر لأحسن مساعد.

ـ تقول الصبر؟ أنا لا أعلم ما تعني هذه الكلمة. ثم أخرج من جيبه حديد وخشب فسأله دي كاتينا:

ـ من أين لك هذا؟

ـ أمّا قطع الخشب فقد قطعتها من الباب بخنجري هذا، وخرقت الحائط ليمكننا أن نضع رجلينا في هذا الوكر «ونصعد إلى هذه النافذة العالية». وأمّا الحديد الذي تراه معي فهو حديد هذه النافذة ذاتها، فقد أخرجت قطعتين وباق عليَّ ثلاث سأتم إخراجها في هذه الليلة ومن ثم يتيسّر علينا الهرب.

ـ وأنّى لنا ذلك؟ متى هربنا من هذه نقع في ساحة القصر، فيرانا الخدم و...

ـ لا تفتكر في المصاعب سلفاً. دعنا نذلل كلاً منها في حينه. أمّا الآن فاصعد إلى النافذة وانظر إلى البقاع المجاورة، ربما تعلم أين نحن.

فصعد دي كاتينا ونظر طويلاً يميناً وشمالاً ثم انحدر متنهداً وقال:

ـ لا أدري في أي مكان نحن؟

مضى ذلك اليوم من أوله حتى آخره على الصديقين وهما يفكران في وسيلة للتخلص من ذلك السجن الغريب الذي سجنا به.

ولما قبل أول الليل صعدا إلى النافذة ليهتما في إخراج حديدها منها. وجعل كل منهما يدأب في نحت قضيب منها. الواحد بخنجره وآخر بقطعة حديد كان سحبها أموس من النافذة في الليلة السابقة. وبينما هما على هذه الحال. فتح الباب ودخل السجان ووقف في وسط الغرفة ناظراً إليهما.

فلما رآه دي كاتينا ألقى بنفسه على أرض الغرفة ثم أسرع نحوه شاهراً خنجره عليه، فأسرع ذاك الرجل نحو الباب وأقفل الباب وراءه بعد أن خرج منها.

فنظر كل من الصديقين إلى رفيقه. وإذا بجرس القصر يقرع قرعاً عنيفاً فقال دي كاتينا: هل تسمع يا أموس فإن الجرس يقرع في منتصف الليل!

ـ إن الرجل الذي كان هنا يروم التغرير بنا فهو يقرع الجرس لينبه من في القصر إلى أن السجينين مزمعان على الهرب.

ـ ربما كان قولك صحيحاً فصعد أموس إلى النافذة وقال: إذا أتى أحد من الباب وأنا أرمي بنفسي من هذه النافذة، وأقتل كل من أجده أمامي بهذا الخنجر. . لكن ماذا أرى؟ أسرع يا أموري وأطل من النافذة فرأى عدة رجال يشتغلون في البستان

وقد أقاموا شبه عمـود في الوسط وفرشوا الأرض حوله بأحطاب صغيرة ورأى أمام الباب، مركبة نزل منها رجل عليه دلائل السيادة أسرع كل الواقفين هناك للقائه وحيّوه باحترام واتضاع وكان كثيرون منهم يحملون الشموع والمصابيح. وكانت تلك الليلة باردة جدا كثيرة المطر والرعد فانطفأت الشموع ومع ذلك رأى دي كاتينا أن شبحا آخر نزل من المركبة بعد ذلك الوجيه وسار الجميع نحو القصر.

فقال دي كاتينا: ربما أمسكوا رسولاً للملك ربما يسجنونه معنا في هذه الغرفة، لكن أريد أن أعلم ماذا يفعلون تحت النافذة..؟

وعلى أي الأحوال يمكننا الهرب من هذه النافذة وسندافع عن نفسنا مدافعة الأبطال، فإما ألموت وإما النجاة.

ـ لكن تعبنا يذهب سدى يا أموس ألا ترى كل هؤلاء الرجال تحت النافذة، فكيف ننجو من أيديهم؟

ـ إني أرى صفاً من الرجال المسلحين في هذه الساعة ما معنى ذلك..؟

ـ لا أفهم!.

نظر ذلك الوجيه قادماً نحو العمود وتسير وراءه امرأة

بجانب قسيس جليلٍ ويتبعها مئات من الرجال المسلحين، وآخرون يحملون المصابيح، أخيراً وقف الجميع فأشار إلى تلك الامرأة بأن تقترب من العمود فانطرحت على قدميه تتوسل إليه باكية وهو معرض عنها. ثم استدعى اثنين من رجاله وأمر بجرها رغماً عنها فصاحت:

ـ آه يا موريس! إرحمني يرحمك الله إني لا أزال شابة ولا أريد أن أموت! موريس أغفر لي يغفر لك الله! أعف عني يعفو عنك. رحماك رحماك إشفق عليّ! قالت هذا وحاولت أن تأخذ يده وتقبلها، لكنه كان واقفاً بدون حراك ويده على سيفه، وهو ينظر إليها بعينين ملؤهما الغضب والقساوة، عند ذلك التفتت إلى جهة فرساي وخاطبت ذلك الملك الخائن الذي تركها بعد أن أحبها وقالت وهي تشهق:

آه يا مولاي! لو كنت تراني في هذه الساعة. فلما سمع دي كاتينا هذه الجملة شدد النظر إلى تلك الامرأة وفي وجهها الجميل الشاحب اللون وشعر كأن خنجراً أصاب فؤاده إذ إنه عرف تلك الامرأة التي ملكت فرنسا وساستها عشرين سنة تقريباً تلك التي كانت إشارتها حكم وطاعتها غنم، تلك الامرأة التي كانت أجمل نساء فرنسا وأقدر رجالها ألا وهي فرنسواز دي مونتبان.

في الليلة التي أمسك فيها الرسولان على طريق باريس كان الملك جالساً في قاعته غارقاً في أفكاره وهواجسه، وهو متكىء إلى خوان أمامه ورأسه بين كفيه وعيناه تنظران إلى الحائط الموازي له، وهو يجيل في ذاكرته أطوار حياته.

فذكر أباه لويس الثالث عشر الذي توفي إبّان طفولته وساست والدته الملك حتى بلغ العشرين من سنيه. وخطر في باله ريشليو ومزران اللذان حكما به حكماً تاماً الواحد بعد الآخر، وكم سرّت فرنسا في موت مزران هذا.

تذكر حروباً شديدة مرّت وأيام شدة حلّت. ثم ذكر شقيقته ماري دي مانشيني، وزوجته ذات الجمال المتوفية، ونساء أحبهن، البعض طوتهن الغبراء والبعض لم يزلن في قيد الحياة عائشات عيشة الصالحات بعيدات عن ضوضاء هذا العالم إذ اخترن الأديرة مسكناً لهن... أمضى عمره ولم يجد له بعد صديقاً مخلصاً في بلاطه ولا بين أسرته ووزرائه إلاّ تلك الامرأة التي أزمع على الاقتران بها في هذه الليلة، تلك الرقيقة القلب الحسنة المعشر، اللينة العريكة، الشريفة العواطف. آه كم يحبها، وكم يخيّل له أن الوقت القليل الذي يبعده عنها طويل للغاية...

سمع نقرة خفيفة على الباب، فانتصب واقفاً يظن أن

الأسقف قد وصل ولكن الطارق لم يكن إلّا بونتمس الذي استأذن لدخول لوفوا وزير الحرب.

فدخل هذا وقال: هل أعكّر مزاج مولاي بدخولي في هذه الساعة؟

- كلّا يا لوفوا. إن مجيئك الآن يسرني إذ إني ضجرت وحدي.

- قد أتيتك بشيء، أظنه يسرّك فقد أخبرتني مراراً يا مولاي بأنك ترغب في معرفة أفكار شبان فرنسا الأشراف المغتربين في ألمانيا وفي بافاريا.

فأتيتك الآن بعدة تحارير مرسلة منهم وإليهم لأصحابهم وأقاربهم في البريد، كي أخدم جلالتك وأسرّها.

فأخذ الملك بعض التحارير ونظر إلى عناوينها وقال أجل إني أود أن أعرف قلوب هذه الجماعة من جهتي كي أعرف الخائن فيهم من اللص. وهل قرأتها أنت؟ وهل أجسر على ذلك يا مولاي؟

- أتقسم لي بذلك؟
- نعم أقسم يا مولاي.
- أرى بين هذه التحارير واحد من ابنك.

ـ فانقبض صدر لوفوا وقال: ستجده مخلصاً لك يا مولاي في حضوره أمامك وغيابه عنك وإلا فلا يكون ولدي.

ـ إذا سنبدأ بقراءة هذا التحرير. . . أرى أنه لا يزيد عن عشرة سطور «عزيزي أشيل» أشتاقك اشتياقاً لا مزيد عليه، وقد سئمت نفسي الانتظار لأن البلاط أصبح كصومعة من يوم غادرتنا.

إني أضحك من والدي وأهزأ به لأني أراه دائماً يدور في قاعات القصر وأوسمته تتلألأ فوق صدره وهو يفتخر بها كأنها كنز عظيم ومجد لا يقدّر! وأنا أراه قرداً يلهو الملك به وآلةً يلعب بها، ويستخدمها لأشغاله وما من قدر له وسلطان، أمّا أنا فلا تزال الديون مثقلة كاهلي ومدائني في شارع «أرفيفر» يطالبني الآن بعشرة آلاف جنيه ليس معي منها بارة واحدة فتعال أيها الصديق لتعزيني وإلّا طرت إليك.

فهزّ الملك رأسه وقال: لقد ظلمتك يا لوفوا حين اتهمتك بفتح التحارير. على أنني أبررك الآن، أمّا لوفوا فظل مثل صنم لا يتكلم وجثة لا حراك بها وبات لونه كلون الأموات وعيناه تقدحان شرراً وتكاد أن تخرجان من وجهه، وما انتهى الملك من كلامه حتى صاح: يا له من شرير ناكر الجميل! وأفعى

سامّة! أهذا هو ولدي؟ إني ألعنه وسأجعله يلعن اليوم الذي ولد فيه.

ـ مهلاً يا لوفوا مهلاً.

إنك عشت طويلاً ويجب عليك أن تعذر الجهلاء لأنهم كثيراً ما يتكلمون ضد ما يعتقدون. ماذا أرى هنا؟ هذه كتابة ابنتي الصغيرة لزوجها «البرنس دي فونتي» إني أعرف كتابتها ولو رأيتها بين ألف كتابة... ولماذا أقرأ تحارير أملاها على قلمها قلبها الطاهر وشعورها الشريف. قال هذا وأدنى الظرف من شفتيه ثم فتحه بابتسامة، ولم يلبث أن ظهرت علامات الغيظ على وجهه وصاح:

أنت تعلم يا لوفوا كم أحببتها نعم إنها كانت بمقام السواد من عيني، فخذ هذا الكتاب واقرأ ما تقوله عني... إنها تضحك مني! إنها تلقبني بالعجوز وتدعوني «البعبع».. آه! ثم ألقى رأسه بين يديه وقال: أرأيت ما تقوله عني يا لوفوا؟ أنظرت؟

ـ يا له من ذنب لا يغتفر! تلقبني بالعجوز وبعبع البلاط؟

ـ مولاي اسمح لي أن أعيد على مسامعك ما قلته لي منذ برهة أنه يجب أن نعذر الجهلاء لأنهم كثيراً ما يفعلون ويكتبون ضد ما يعتقدون.

ـ إنك أبله يا لوفوا الفتاة التي أحببتها فوق كل شيء تهزأ بي وأنت تنصحني بأن أعذرها وأنسى هزأها... لا، لا بل إنني أفكر به وأتأسّف. خذ هذه التحارير فلا أريد أيضاً أن أقرأها.. لا، لا.

فانصاع لوفوا إلى أمر الملك وأخذ التحارير إلى منضدة أخرى، وقال:

ـ ألا تريد أن تقرأ كتاباً آخر يا مولاي؟

ـ ممن هذا التحرير؟

ـ من مدام دي مانتنون إلى حفيدها.

ـ اقرأه أنت لي يا لوفوا.

ـ فقرأ ما يلي:

ـ «أيها العزيز»:

طلبت مني في كتابك الأخير أن أوصّي الملك بك ليرقيك في مراتب العسكرية، فأجيبك والأسف ملء قلبي: إني لا أستطيع دعوتك هذه، إذ إنني لم أطلب من الملك شيئاً ما في حياتي، وقد آليت على نفسي ألّا أطلب منه شيئاً أبداً لا لذاتي ولا لأقاربي لأني أعتقد أن خدمة الملك وحدها شرف عظيم لا يعلوه شرف. وفوق ذلك إن لي ثقة تامّة بذكاء الملك وفطنته وسلامة قلبه، فإنه يرقي كل من كان أهلاً للارتقاء. فاجتهد في

شغلك وكن فطناً مخلصاً في خدمتك وحينئذ أؤكد لك أن الملك يشملك بأنظاره من غير توصية أحد.

عرفته من سنين طويلة، وأعلم ما طبعت عليه تلك النفس الشريفة والروح الكريمة الذكية.

وقد لقبه الفرنسيون بالشمس ونعم اللقب، فهو بالحقيقة الشمس المنيرة بالرغم عن الغيوم التي تحيط به من كل جهة وجانب، والمراد بتلك الغيوم رجال البطانة الذين يظهرون أمامه بمظهر التواضع، والحب، والاحترام، وهم في الحقيقة يبغضونه ويخافونه: منهم لوزن، وفوكه، ولوفوا وزير الحرب وغيرهم.

أستودعك الله وأتمنى لك الترقي والنجاح وتفضل بقبول سلامي ومحبتي المخلصة.. فهتف الملك: أنظرت يا لوفوا كم أنها مخلصة لي، وكم تحبني وكم ثقتها عظيمة بي.. آه ما أجمل هذا الكتاب وما أعذبه على قلبي بعد كتب الأعداء... أنظرت مقدرتها على قراءة القلوب يا لوفوا؟

- إنها لم تحسن قراءة صفحة قلبي يا مولاي.

قال هذا والغضب آخذ منه كل مأخذ لما كتبته عنه مدام دي مانتنون: عندئذ قرع الباب ثم دخل منه بونتمس وقال وصل

الأسقف يا مولاي.

ـ حسناً. اذهب إذن وقل لمدام دي مانتنون أن تحضر إلى هنا، ومر الشهود بأن ينتظروا في الغرفة المجاورة، وأود أن تكون أنت شاهداً.

ـ وعلى أي أمر أشهد يا مولاي؟

ـ على زواجي الذي يتم في هذه الليلة!

ـ في هذه الليلة؟

ـ أجل، بعد خمس دقائق.

ـ سمعاً وطاعة يا مولاي.

وكان لوفوا هذا يصرف أسنانه غيظاً ولدداً لعلمه بأن الملك مزمع على الاقتران بمدام دي مانتنون في تلك الليلة لأنه كان يكرهها كرهاً عظيماً.

ثم قال له الملك:

ـ أتعرف هذا الشاب الذي كتبت له مدام دي مانتنون؟

ـ أظنه يدعى جرار دوبني.

ـ نعم يا مولاي أعرفه.

ـ إرفعه إلى رتبة كولونال.

ـ مولاي، إنه لم يبلغ العشرين من سنيه بعد.

ـ إفعل ما آمرك به من غير اعتراض، فأنا وحدي السيد المطلق.

بعد هنيهة من الزمان توجه الجميع نحو كنيسة القصر: وكان الأسقف يتقدم الجميع وسار في إثره الملك ومدام دي مانتنون.

وعندما مرّ الملك في البهو أمام امرأته المتوفاة ماري تريز، وضع يديه أمام عينيه، فسمعته مدام دي مانتنون يقول: تباً لي إنها تنظر إليّ شزراً وتلعنني، فوضعت يدها الناعمة على ساعده وقالت بنغمتها اللطيفة، لا تخف يا مولاي ما هذا سوى تصور.

فأمسك يدها وضغط عليها، وبعد أن بلغا الكنيسة بورك زواجهما، وبعد هذا أخذ الجميع في تهنئتها، وكان قلبها يخفق من شدة الفرح، ثم إن صوتاً قوياً كان يدوي في أذنيها «ها قد أضحيت ملكة فرنسا»، ملكة، ثم انخفض هذا الصوت شيئاً فشيئاً متمتماً «أذكري وعدك للكنيسة» فنظرت إلى الأب لاشيز الذي رأته ينظر إليها، فاعترتها رعشة، وإذا بالملك يقول لها: ها إن يدك ترتجف في يدي. تعالي نذهب من هنا أيتها العزيزة، فإن البرد يؤثر في صحتك.

لم تنم مدام دي مونتبان في تلك الليلة رغماً عن رسالة

مسيو دي فيفون التي طمنتها قليلاً، ثم مضت الساعات وهي ملقاة على سريرها تفكر فيما عساها أن تصنع في الغد وأي خطة تتبع لتحول عزم الملك عن الاقتران بمدام دي مانتنون وتبعده عن تلك التي سلبته منها لتسترجعه إليها. كانت الآمال تحارب قلبها ومخيلتها ثم يعود الشك هادماً تخيلاتها مزعزعاً أركان آمالها، فتشعر تارة بأن لا تأثير لها على الملك ولا سطوة على أفكاره فتصرف أسنانها غيظاً وتلعن الملك وتلك التي تنافسها، والأسرة الملوكية، وفرنسا والحياة أيضاً وتطلب الموت لنفسها. ثم تفكر طوراً في جمالها وذكائها واقتدارها فتعود آمالها إليها متيقنة بأنها ستكون الغالبة المنتصرة على تلك «العجوز» مدام دي مانتنون.

عندما انبلج فجر اليوم التالي نهضت مدام دي مونتبان لتذهب لمقابلة لويس الرابع عشر. فارتدت أفخر أثوابها وجعلت تاجاً من اللؤلؤ الثمين على شعرها الحريري وأخذت تتبرج بالحلى والجواهر متبعة في تبرجها تفنن سيدات ذلك العصر.

فنظرت بعد ذلك نظراً طويلاً إلى صورتها في المرآة رأت عينيها النجلاوين الفتانتين وثبت لديها أن الملك لا يلبث أن يخر ساجداً أمامها عندما يراها.

وفي أثناء ذلك دخل عبدها الأسود الصغير يقول لها: إن الملك ينتظرها في غرفة استقبالها. فأسرعت إلى الغرفة وهي تشعر بأن قلبها كاد يسقط لشدة تأثرها. ولما وصلت إلى باب الغرفة رأت الملك واقفاً أمام إحدى الصور يتأملها فدخلت مقفلة الباب وخفت إليه باسطة ذراعيها، والابتسام ملء شفتيها وإمارات الحب تتلألأ على جبينها الوضاح. أما هو فتقدم خطوتين إلى الأمام من غير أن يجيبها على ابتسامتها أو أن يمد يده لمصافحتها فهلع قلبها فرقاً وحزناً، وقالت والخوف يملأ قلبها:

ـ هل أزعجتك بشيء يا مولاي؟ هل من كدر سببته لك؟ يخال لي أنك أتيت لتقول لي كلاماً لا يمكنك التلفظ به الآن، لأنك تراني تعسة ألا بارك الله بقلبك الكريم الذي يمنع لسانك القاسي عن التكلم!

ـ أجاب الملك بتأن: إنك لم تزعجيني أبداً أيتها السيدة وبودي أن أفعل كل ما بوسعي عمله كي لا أراك تعسة فأنا لا أنسى أنك كنت شعاع حياتي وزينة بلاطي مدة سنين طويلة. قد انقضت الآن نعم قد مضت تلك السنين والأزمنة تتغير بتغير الظروف والزمان والمكان. وقد حضرت إلى هنا لأكلمك بمعنى ما تفاوضنا به منذ أيام قلائل وهو أن تبتعدي عن البلاط. أي أن

ترحلي من هنا...

ـ ارحل من هنا يا مولاي؟

ـ وكم من الزمن يطول غيابي؟

ـ إن رحيلك هذا يجب أن يكون أبدياً، وأنت حرة في السكنى حيثما تشائين، وفي القصر الذي تختارينه حيث تكونين محاطة بكافة أنواع السرور. وسيكون لك كل ما تشتهين.

ـ وهل هذا ينسيني مرارة الافتراق عنك؟

ـ لقد أمعنت النظر طويلاً في هذا الموضوع فرأيت أن من الواجب أن تتبعي ما أقوله لك وحيث لا بد من ذهابك فالأوفق أن تسافري حالاً ولذا قد أمرت أخاك المسيو دي فيفون بأن يرافقك هذا المساء إلى حيث تشائين. فاخرجي إذاً من هنا الساعة التاسعة مساءً فربما تفضلين أن لا يراك أحد في مثل هذا الوقت.

فقهقهت ولكن بمرارة:

ـ نعم أسافر الساعة التاسعة مساءً ليستر الظلام عاري...

قال الملك لا تكلميني بهذا اللحن ولا تنظري إليّ شزراً بهاتين العينين المملوءتين غيظاً وحقداً. فمن المناسب أن ندع

مقابلتنا هذه الأخيرة مرضية لا يشوبها شيء من الكدر لتترك لكل منا حلاوة الذكرى.

ـ حلاوة الذكرى يا مولاي! ومن أين لي الحلاوة والسعادة؟

نعم أنت تكون سعيداً بعد أن جعلتني ألعوبة لك بضعة سنين. إنك تحوّل وجهك عني منعكفاً على حب امرأة أخرى.

نعم أنت تكون سعيداً! وأنا التي تركت زوجي لأجلك أنا التي أنكرني أهلي، أنا التي ضحيت شرفي وأرقفت حياتي على رضاك، نعم أنا التي صرت أضحوكة في فرنسا، ترى من أين تأتيني السعادة؟

إن الملك بينما كانت تتكلم شعر بأن الغضب يهيجه شيئاً فشيئاً إلا أنه استحسن ملاطفتها إلى آخر دقيقة وأجاب:

إن جدالك هذا لا يجديك نفعاً بل الأجدر بك أن لا تتلفظي بكلام لا يلذ لي سماعه، ألا تعرفين بأني الملك والآمر المطلق ومع هذا فإني أكلمك كصديق، ثم إني أكرر القول أيضاً: إذهبي بدون مراجعة.

ـ أشكرك على تعاطفك هذا يا مولاي إن حبك لي منذ عشرين سنة يجعلني أن لا أتعجب من هذه المعاملة إذ إنك

أنت «الآمر المطلق» كما قلت. نعم كان يمكنك أن تخرجني من قصرك طرداً بين صفين من الجنود كما لو كنت مجرمة! قالت هذا وانحنت متهكمة وهي تبتسم ابتسام المستهزىء .

ـ إن كلامك مرّ أيتها السيدة.

ـ لأن قلبي كلّي المرارة يا مولاي.

ـ لا تتكلمي هكذا يا فرانسواز بل سيري بحراسة الله. نعم لقد انقضت أيام شبابي وشبابك أيضاً.

ـ أشكرك يا مولاي لأنـك تذكرني بذلك.

ـ إنك تحرفين معنى كلامي ولذا ترينني الزم الصمت. فهل لك أن تسأليني شيئاً قبل الافتراق؟ فهتفت مدام دي مونتبان: رباه! ومن أي مادة يا ترى خلق قلبه ؟أمن الحديد القاسي أم من الصخر؟ إما أن هاتين الشفتين كانتا تتلفظان بذلك الكلام العذب مظهرتين لي بين آن وآخر عبارات الحب؟ وإما أن هاتين العينين قد طالما نظرتا إليّ بوله وحرقة! لعمري هذه هي خلاصة سني الحب الطوال التي قضيناها معاً! بل هذه هي مواعيدك وعهودك؟

ـ إن كل هذه التذكارات محزنة لي ولك.

ـ هي محزنة لك يا مولاي؟

ـ وأين هي آثار الحزن البادية على وجهك؟

ـ إني أرى في عينيك شيئاً من الغضب وسبب ذلك، هو أني تجاسرت على ذكر الحقيقة أمامك كما أني أنظر فيهما علامة السرور لأنك أنهيت أمرك معي وأمرتني بالذهاب إنك ستفرح بعد سفري من هنا إذ تتفرغ حينئذٍ لمغازلة تلك الخادمة.

ـ ماذا تقولين؟

ـ أقول ما أريد ولا أخافك بعد أيها الملك نعم إن ما أفتكر به أقوله ولا يهمني غضبك بل ما علمت إلى أي درجة من السفالة وصلت! ترى هـل نسيت أنك ملك ومن سلالة القديس لويس؟ أنسيت نفسك وشرفك وأسرتك وعزمك على الاقتران بأرملة المخلّع تلك التي التقطتها من بين أنياب الفقر والجوع؟ ترى كم يهزأ بك وزراؤك وشعراء مملكتك! نعم إنك لا تعير جانب الإصغاء إلى كل هذا لأن الحب قد أصمّ أذنيك ونحن أصدقاءك ترانا نسمع ونرى ونتألم...

عند ذلك صرخ الملك بغضب وقال: لا صبر لي على الاحتمال أكثر من هذا. ها أني أودعك الوداع الأخير أيتها السيدة!

قال هذا وسار نحو الباب لكنها وقفت في طريقه شابكة

ذراعيها في الباب وقالت متهكمة: إنها تنتظرك بدون شك. ولذا أراك تريد الخروج من هنا بسرعة.

ـ دعيني أمر أيتها السيدة، أتركيني أخرج.

ـ لكن قد خاب أملك في هذه الليلة، أليس كذلك أيها المحب المسكين؟ كما خاب أيضاً أمل حبيبتك «المربية» وأنت تدعوها «السيدة» نعم كنت تنتظر الأسقف عند منتصف الليل فلم يأت. كما وأنت تعلل نفسك بالزواج هذه الليلة فلم تتزوج بعد.. آه ما أصعب حبوط الأمل!

نظر الملك طويلاً إلى هذه الامرأة الجميلة الواقفة أمامه وتيقن من أن الحزن والألم أثرا عليهاوبعقلها.حينئذٍ شعر بشفقة عظيمة نحوها وقال بنفسه: إن معاملتها بالقساوة في وقت كهذا ليست من صفات رجل شريف الإحساسات، كريم الأصل فقال لها بلطف: قد أعطيتك كثيراً من جواهر أسرتي الملوكية فأسألك أن تحفظيها كذكر مني لك. قال هذا على أمل أن يسرّها. أما هي فأسرعت إلى درج خفي وفتحته ثم جعلت تقبض الأحجار الثمينة باحتقار كلي وتلقي بها عند قدميه قائلة:

ـ ها هي خذها فلربما تلزم «للمربية» إذا أتى الأسقف. عندما قالت هذا تأكد الملك أنها فقدت عقلها ثم فكّر أن التأثر

على قلبها في ساعة كهذه ربما أتاها ببعض الفائدة، ولذا فتح باب الغرفة ونظر إلى الواقفين هنالك.

وما هي سوى برهة يسيرة حتى أتى ولد يناهز العشر سنوات وشعره الذهبي يلمع على كتفيه وهذا الفتى هو «الكونت دي تولوز» ابنها الأصغر فأمسكه الملك بيده وقدّمه لأمه قائلاً: ألا تريدين أن تودعيه قبل ذهابك؟

فنظرت إليه مستفهمة.. وبعد هنيهة فهمت كلامه هذا، أي أنها ستبعد عن ملكها وعن ولديها بوقت واحد، كما أنها أدركت أن ولديها لن يذهبا معها وأنها ستعيش أرملة وثكلى بينما تلك المربية «العجوز» تصبح ملكة حبيبها وأم ولديها. نعم إن هذه العجوز تعيش مع هؤلاء الثلاثة بحب متبادل بدون ممانع. وهي هي الحبيبة تكون مقصية، وهي الأم المسكينة تقضي باقي حياتها بالبكاء والنحيب، ثم بعد أن أطرقت قليلاً وفكرت في كل هذا تناولت خنجراً صغيراً من بين جواهرها ونظرت إليه ملياً ولم تلبث أن اشتد العذاب عليها فقالت في نفسها: «إن لم يكن ولدي لي فلن يكون لأحد» ووثبت على الكونت دي تولوز لتطعنه الطعنة القاضية! فأسرع الملك ليقف بينها وبين الفتى، بينما أن امرأة أخرى خفت بسرعة غريبة وأمسكت ذراعها بقوة هذا مقدارها، فوقع الخنجر من يدها

عندما رأت أن هذه الامرأة هي مدام دي مانتنون بعينها ومينها!

عند ذلك أسرع لويس الرابع عشر وتناول الخنجر من الحضيض ثم أمسك بيد ولده وخرج به من تلك الغرفة حيث كانت المتنافستان تنظران الواحدة إلى الأخرى شزراً.

ثم قالت مدام دي مانتنون: الحمد لله الذي قيّض لي لأمنعك عن هذا الطفل.

ـ أو تحمدينْ الله وأنت أنت التي أوصلتني إلى هذا الحد؟

ـ نعم أنت سبب تعاستي وشقائي في هذه الحياة بعد أن أخذتك مربية لولدي شفقة على فقرك واحتياجك فضلاً عن وحدتك: أترين ماذا كنت قبل تعطفي عليك؟

كنت أرملة رجل كان مدى حياته ولا يزال ذكره بعد مماته هزءاً وسخرية للفرنسيس! أوتذكرين ماذا أعطيتك؟

قد أعطيتك كل شيء اسماً شريفاً تلعبين به ودراهم كثيرة وفيرة تجعلك غنية عدا عن إدخالي إياك في البلاط الملوكي.

نعم قد أنعمت عليك بكل شيء وها أنت الآن تهزئين بي . . . ؟

ـ إني لا أهزأ بك كما تقولين أيتها السيدة بل أشفق عليك من كل قلبي.

ـ أنت تشفقين علـيّ! لله درك أنت يا أرملة المخلّع «سكارون» أنت تشفقين عليّ أنا ابنة «مورتمارت».

ـ إن كلامك هذا لا يزعجني.

ـ يخال لي أنك لست شديدة التأثر.

ـ لا يهمني تأثري أيتها السيدة بل إن الذي يهمني هو ضميري وحده.

ـ ولم يوبخك ضميرك؟

ـ أعلى ما نحن بصدده؟ فإني لم أقصد لك شراً البتة.

ـ ألم تقصدي لي شراً؟ آهاً منك أيتها الإمرأة.

ـ لماذا تهينيني أيتها السيدة؟ وما هو ذنبي يا ترى؟

كان الملك يحضر كل يوم الدروس التي كنت ألقيها على التلميذين ثم يسألني عما أفتكر في بعض المواضيع فهل بوسعي أن لا أجيبه؟

ـ إنك حولت قلبه عني.

ـ وإني لأفتخر بذلك إذ حولته عن الرذيلة إلى الفضيلة.

ـ أأنا الرذيلة وأنت الفضيلة؟ أوهـكذا تعترفين بسلب الملك مني يا أفضل الأرامل؟

ـ رغماً عن اعترافي لك بالجميل لم يكن بوسعي إلا أن أقول الحقيقة للملك. ولما كان يسألني عمّا يجول بخاطري

كنت أجاوبه بصفاء نية ومن غير أن أقصد لك شراً، وقد بذلت وسعي والله يعلم لتغيير حياته غير المرضية بحياة مرضية لله وللناس.

ـ ويحك أيتها الأفعى لعمري أن خبثك وكذبك لا حدّ لهما. إن كنت ذات قداسة إلى هذا الحد فاذهبي وعيشي في أحد الأديرة لتحصري أفكارك بالله وبالعالم الآخر. لكن اعلمي أنك لست تقية كما تدعين، لعمري أنك أفعى خبيثة. نعم إن ما فعلته أنا فقد فعلته جهاراً دون إنكار... أمّا أنت، أنت...

ـ إن ما تقولينه عني لا يهمني البتة، ولا أكترث به قطعياً وإياك إياك أن تلمحي بكلامك أو أن تدنسي ما كان مقدساً.

أنت قد أسأت إلى الملك بمعرفتك إياه، نعم وقد جعلته أن ينسى واجباته ويترك امرأته المسكينة حباً بك. فتوبي وعودي إلى الله الآن سترين عن قريب شعرك هذا الجميل أبيض. ترى ماذا ينفعك جمالك هذا عندما تنظرين نفسك واقفة أمام الديان العادل هل تتجاوبين على كل ذنب فعلته وإثم اقترفته؟

ـ عند ذلك ضحكت مدام دي مونتبان وقالت: الحمد لله الذي أنعم عليّ بمرشد روحي... كفاك، كفاك خبثاً وكذباً فإني أعرفك حق المعرفة.

ـ وأنا أقول بالعكس فإنه يظهر لي بأنك تجهلينني. فإن كنت تعرفينني كما تدعين قولي لي من أنا؟

ـ أنت مربية أولادي وحبيبة الملك.

ـ كلاّ ـ بل أنت غلطانة فإني مربية أولادك وزوجة الملك.

ـ كان تأثر مدام دي مونتبان هكذا عظيماً لدى سماعها هذا الخبر حتى أنها وقعت على الحضيض مغشياً عليها عند قدمي مدام دي مانتنون.

فخفت هذه إليها والشفقة تملأ فؤادها منعطفة إليها انعطاف الأم على رضيعها وهكذا حملتها بين ذراعيها القويتين واضجعتها على مقعد جاعلة مخدة حريرية تحت رأسها. ثم جمعت الحجارة الكريمة التي نثرتها مدام دي مونتبان بينما كان عراك الجدال قائماً بينها وبين الملك وأخفتها في درجها وأقفلته ووضعت المفتاح على خوان قرب المقعد الذي كانت مدام دي مانتنون ملقاة عليه. وإذ ذاك قرعت جرس الاستدعاء فدخل العبد الصغير فقالت له: إن سيدتك منحرفة الصحة قليلاً فاحضر لها جليساتها. وهكذا بعد أن فعلت كل ما كان بإمكانها فعله. خرجت من تلك الغرفة التي كانت ـ نعيم ـ الملك منذ سنين كثيرة تاركة تلك المسكينة مغشياً عليها بين الأقمشة

الحريرية وهي في حالة يرثى لها من الحزن واليأس.

لما أفاقت من بحرانها أبعدت أولئك النساء عنها قائلة: لا حاجة لي بكن وجلست تفكر في مستقبلها، ثم عزمت على أن تغادر البلاط في اليوم نفسه لأن الملك أمر بذلك. وليس هذا فقط بل هرباً من ضحك أهل البلاط وسخريتهم. نعم قد انتهت أيام سلطتها الماضية انتهاءً كلياً ولا أمل لها بعد في الرجوع إلى تلك الأوقات التي ما كان أحلاها وأشهاها، ولم يبق لها سوى أن تتمناها. تلك الأزمنة التي قضتها مع الملك حين كانت زوجته الأولى ماري تريز لا تزال حية، ومدام دي مانتنون هذه من أذكى النساء وأكثرهن حكمة ونشاطاً.

فنهضت من على المقعد بعد أن جمعت قواها وهي تحسب أنها تقدمت بالعمر عشر سنوات في ساعة واحدة!

عندما قال لها الملك بأنه يسمح لها بالجواهر الملكية التي أهداها إياها من قبل، طرحتها عند قدميه غير مكترثة بها إذ بدون حب الملك لا حاجة لها بالحلى والجواهر. أما الآن وقد علمت بأن حب الملك قد مالت شمسه إلى الزوال وتلاشت آثاره رأت في أنه لا بأس من أن تأخذ معها كل ما تملكه من الجواهر والأواني والأثاث والرياش. ومعلوم أن ذلك يقدّر بعدة ملايين.

قالت: قد ذهبت من يدي سلطة الحب فلماذا أهزأ بسلطة المال؟

شرعت مدام دي مونتبان بجمع ما عندها بقوة وشجاعة غريبتين ولم يأت المساء حتى كانت جميع أعمالها جاهزة وهي مستعدة للسفر. فعزمت على أخذ حلاها وأثمن أثاثها ورياشها وما بقي من ذلك يرسل إليها بعد سفرها بأقرب الأوقات إلى «بتي بورج» حيث اختارت محل إقامتها. قبل ساعة السفر بنصف ساعة تقريباً أتاها شاب عليه ثياب أحد الفرسان وهو رسول من أخيها مسيو دي فيفون فقال: إن شقيقك يتأسف على شيوع خبر سفرك في البلاط الملكي، كما وأن كثيراً من السيدات اللواتي يبغضنك صممن النية على انتظارك في الساعة المعينة عند باب القصر ليودعنك ومنهن: مدام دي نولي، والدوقة دي شامبور، ومدموازيل دي روهان، و. . .

عندما سمعت أسماء عدواتها ثار غضبها وهتفت: قل لأخي أن يعمل جهده لنسافر قبل الوقت المعيّن لئلا أرى أحداً من ساكني البلاط.

- أتيت لأبلغك هذا يا سيدتي.
- أصحيح هذا وأي ساعة نسافر إذاً؟
- على الفور إذا أردت.

ـ إني على تمام الاستعداد فهيا بنا إذاً.

ـ ومن أي باب نخرج؟

ـ من الباب الشرقي حيث المركبة تنتظرنا.

ـ وأين أخي؟

ـ ينتظرنا في حديقة القصر ومتى وصلنا إلى المحل الذي عيّنه لي نوقف المركبة ونأخذه معنا. عند ذلك خرج الإثنان من دهاليز خفيّة كانت مدام دي مونتبان قد اعتادت على السير فيها وإذ وصلا إلى حيث كانت المركبة رأت شبحاً طويل القامة عليه لباس أسود فترجل وأدخلها العربة ثم جلس إزاءها، وبعد أن أقفل الباب أمر الحوذي بالسير فجرت المركبة وهي تنهب الأرض نهباً. وبعد مضي عشرِ دقائق قالت:

أظن بأننا قد تجاوزنا المكان الذي ينتظرنا به شقيقي «فيفون» فلم يحر جواباً ذلك الرجل ففكّرت بأن دوي العربة يخفي كلامها فرفعت صوتها وأعادت جملتها فلم يجبها أيضاً فاعتراها رعب شديد جرى في أصابعها جري الدم وقالت في نفسها: من تراه يكون هذا الرجل؟!

ثم فكّرت في أنه ربما يكون أبكم ثم قالت: ربما لسبب من الأسباب لا تريد أن تجاوبني فإن كان ظني في محله أرجوك أن ترفع يدك وهكذا أفهم.

فلم ينطق بكلمة ولم يشر بحركة عند ذلك أدى بها الخوف إلى فقد الرشد.

فنهضت لا تعي على شيء وفتحت باب المركبة لتهرب لكن الرجل مدّ يده ممسكاً بساعدها بقوة شديدة وأجلسها في مكانها وقفل الباب. فعل هذا ومع ذلك لم يتحرك جسمه حينما مدّ تلك اليد الحديدية التي مسكتها وهي لا تسمع من بين شفتيه لا أمراً ولا نهياً.

نظرت إلى ما حولها من الجنائن النضرة فعلمت أنها بعيدة عن المدينة وكانت السماء ملبدة بالغيوم والرعود تقصف في ذلك الليل الدامس. ثم عادت تنظر إلى هذا الرجل الغريب الأخلاق، وتقول في نفسها: لو كان يتكلم ولو قليلاً لآنس وحشتي وأبعد عني الخوف والرعب، ومهما كان الكلام قاسياً فإنه يفضّل على السكوت خصوصاً في أوقات كهذه.

هذا والرجل صامت لا يتكلم ولا يتحرك كأنه صنم من حديد أو من رخام. ثم وجّهت إليه هذه الألفاظ: لا شك في أنك غلطان يا سيدي! ترى ومن أين لك الحق بمنعي عن الخروج من هذه المركبة، أو سؤال السائق على الأقل: إلى أين يذهب بي؟ فلم يجب بشيء.

ثم قالت: إني أكرر على مسامعك أيضاً أن معاملتك هذه

لهي من أغرب الغرائب! وهذه المركبة تخص أخي مسيو «دي فيفون» ولا شك في أنه سيعاقب ذلك الوقح الذي تجاسر على معاملة شقيقته بهذه الخشونة التي لم يسمح بها بأشد العقاب.

وإذا لم تسمع جواباً كالأول. صاحت كمن غاب عن دائرة الصواب! وهي ماسكة يده برعدة لا زيادة بعدها. إنك ترعبني وتخوفني خوفاً شديداً يا سيدي، نعم إني أكاد أموت من جرى ذلك، فقل لي بعيشك وأنا لم أسىء إليك قط في ماضي حياتي، لماذا تعذبني هكذا؟ ألا تقول لي من أنت؟ كلمني يا هذا حباً بالله، جاوبني.

وعندما لم يجب بكلمة تركت يده وقالت له: ربما أنت لا تعرفني، فأنا المركيزة دي مونتبان فكن على ثقة بأني لا أنسى الذين يهينونني بهذه الدرجة. ثم وإن كان لك بعض المداخلة في البلاط الملكي فلا غرو من أنك تعلم بأن كلامي مسموع عند الملك.. وسوف نرى!

كان نور القمر قد شقّ كبد الغيوم وظهر من ورائها مسدلاً أنواره على الأرض، فأمعنت النظر فيه مدام دي مونتبان وحدّقت في نجوم السماء ملياً. وبعد أن نظرت طويلاً إلى ذلك الرجل الجالس إزاءها صاحت برعب: رباه! ما هذا؟

وذلك أن الرجل لم يكن تمثالاً كما ظنته أولاً ولا روحاً

شريرة ولا من الجن والعفاريت والأبالسة، بل كان ذلك الذي تخشى رؤيته وتخاف من سطوته أكثر من كل من أقلته الغبراء، وظللته السماء كيف لا وهو هو الذي كان زوجها ورفيق حياتها «المركيز دي مونتبان».

فصاحت: موريس. موريس.

هل أنت هو؟

- نعم، أيتها العزيزة أنا هو فلا تخافي ها قد رد الواحد منا إلى الآخر بعد مضي هذه المدة.

- آه كم أرعبتني يا موريس. بل كيف أمكنك أن تعاملني بهذه القساوة، ولِمَ لا تكلمني؟

- لأن هذا السكوت كان برداً وسلاماً على قلبي، وما كنت إلا مفكراً في اجتماعنا الحقيقي بعد الإنفصال مدى هذه السنين الطويلة ولا ثالث بيننا.

آه كم تمنيت أن أرى هذه الساعة في ماضي حياتي.

- قد خنتك يا موريس. نعم خنتك خيانة لا يوجد بعدها خيانة. فسامحني واغفر لي.

- نحن في أسرتنا لا نغفر ولا نسامح، يا عزيزتي فرانسواز، ألا يلذ لك اجتماعنا اليوم في هذه المركبة؟ لم يبرح

من بالك للآن بأنها هي هي ذاتها التي حملتنا من الكنيسة بعد عقد أكليلنا إلى القصر. نعم إني كنت جالساً هنا في مكاني كجلوسي الآن أمامك. ألا تذكرين بأني أخذت يدك (هكذا) وضغطت عليها إذ ذاك و...

ـ ويحك لقد كسرت ساعدي.

ـ لا تخافي أيتها العزيزة بل تذكري كل هذا، أليس كذلك؟ ثم قلت لي حينئذٍ بأنك تحبينني، ووعدت بأن تحفظي لي قلبك إلى الأبد، عند ذلك نهضت «هكذا» ولثمتك.

ـ ويحك إنك تهشم وجهي.

ـ لا تخشي بأساً. وهل كنا نعلم في ذلك اليوم الجميل الأشبه بأيام الربيع، أن مستقبلنا سيكون كما كان، كما وأن هذه الساعة كانت من مستقبلنا أيضاً؟...

فألقت رأسها على مسند المركبة وهي حزينة القلب لا تعلم بماذا تجيب، وبأي كلمات تدافع عن نفسها.

أما هو فأردف كلامه بقوله:

ـ إنك تصمتين الآن كما جعلتك ان تصمتي يومئذٍ بالوقت الذي كانت قبلاتي تمنع شفتيك عن الكلام. فالأوقات تتغير يا فرانسواز، والنساء تخون والرجال تقسو.

ـ اقتلني إذا أردت.

ـ نعم أريد.

ـ وإلى أين تأخذني الآن؟

ـ إلى قصرنا في «بورتياك» أيتها العزيزة.

ـ ولماذا تذهب بي إلى هنالك؟ وماذا تصنع بي ثمّ؟

ـ لأسكت هذا اللسان الكاذب إلى الأبد، وهكذا أوفر العذاب على رجال آخرين!

ـ هل تقتلني هنالك؟

ـ أقتلك إذا أردت أن تدعي ذلك قتلاً.

ـ أين قلبك؟ وهل وضعت حجراً مكانه؟

ـ نعم، لأنَّ امرأة قد أخذته مني!

ـ ألا أقدر أن أكفّر عن سيئاتي؟

ـ ستكفرين عنها بموتك.

ـ إن السيف بالقرب منك يا موريس فلمَ لا تقتلني الآن؟ ولماذا لا تطعن قلبي بهذا السيف حالاً؟

ـ لو لم يكن لذلك من سبب لكنت أفعل هذا ولكن ما العمل؟

ـ وما هو هذا السبب؟

ـ ها أنذا أقوله لك: إن السبب في ذلك هو أني في

«بورتياك» السيد والآمر، فهناك أحكم على من أشاء وأذبح من أريد دون أن يعارضني أحد، وهكذا متى قتلتك هنالك لا يقدر الملك أن يأخذ بثأرك مني لأني أكون قتلتك في أملاكي. ولا يكون بوسعه أن يخرق هذا الحق معاقباً إياي إذ بفعله هذا يثير غضب أشراف فرنسا جميعاً ويجعلهم أعداءه، هل تفهمين هذا؟

قال هذا وقهقه مستلقياً على ظهره. أما هي فإنها جعلت رأسها بين يديها، وصلّت إلى الله ليرحمها ويغفر لها خطاياها الكثيرة.

وهكذا أتمّ الإثنان سفرهما ـ صامتين ـ والمركبة تسابق الرياح في جريها في ذلك الليل الحالك تحت قصف الرعود وكثرة الغيوم، وفي قلب كل منهما كره وخوف.

أخيراً رأيا شعلة نار عظيمة عن بعد فاتجهت المركبة نحوها حيث يوجد قصر «بورتياك» وكانت هذه هي الساعة التي كان بها «أموس جرين وأموري كاتينا» واقفين في نافذة سجنهما بقصر «بورتياك» بعينه. ولما هتفت: «مخاطبة الملك الغائب» بهذه الكلمات: آه يا مولاي لو كنت تراني في هذه الساعة، عرفها دي كاتينا ثم رأيا أن رجلاً اقترب منها واضعاً يده الحديدية على كتفها وألزمها بأن تجثو بقرب النار المضطرمة

المعدة لحرقها، نظراها باسطة ذراعيها طالبة العفو عنها وهي تلح بالرجوع إلى الوراء طالبة الشفقة بكلمات محزنة يلين لها الصخر والجماد، لكن ما من صديق هنالك يصغي إليها. ثم فهما أن ذلك الآمر المسيطر عليها هو «المركيز دي مونتبان» دنا منها هذا قابضاً على شعرها الجميل المسدول على منكبيها ثم لفّه على يده وجعل يجرها نحو النار وفي غضون ذلك حانت منه نظرة نحو النافذة الكائنة أمامه حيث يوجد «أموس ودي كاتينا» فباغته الإنذهال والتعب عندما رأى أعينهما ناظرة إليه شزراً.

وإن هي إلا لحظة حتى رأى رجلاً صاعداً إلى تلك النافذة من داخل الغرفة وقفز إلى الأرض حيث كان الجميع واقفين حول النار ثم تبع الأول آخر أما الأول فكان «دي كاتينا» وهو مرتد بلباس حرس الملك، فأخذ كل من الحاضرين ينظر إلى الآخر مستفهماً. إلا أن دي كاتينا وصديقه لم يتكلما البتة فدنا الأول من المركيز دي مونتبان وشبك ذراعيه على صدره ناظراً إليه بوقاحة وقال:ـ والآن ـ؟

فأخذ التعجب من المركيز كل مأخذ وكان قد ترك شعر زوجته التي سقطت على الحضيض جثة بلا حراك وظل صامتاً برهة وجيزة كان ينظر بها إلى «دي كاتينا وأموس» الواحدبعدالآخر.

إن هذين الإثنين أتيا أخيراً ليحولا بينه وبين زوجته لذا أمر رجاله قائلاً: اقبضوا عليهما فصاح دي كاتينا بصوت الآمر الغضوب: إسمعوا أولاً ما أقول: إنكم ترون لباسي وتعرفون من أنا ولا تجهلون بأني حارس الملك الخصوصي فكل من يضع يده عليّ أو يهينني يعاقب كما لو أهان الملك نفسه.

فصرخ المركيز دي مونتبان غاضباً على رجاله افعلوا ما قلته لكم أيها الجبناء، أقبضوا على هذين الرجلين. أما هم فظلوا كأشباح، بلا أرواح، من غير أن يأتوا بحركة وذلك لأن اسم الملك في تلك الأيام كان يلقي رعباً عظيماً في القلوب، وإذ رأى دي كاتينا ترددهم تشجّع واستتلى كلامه قائلاً: إن هذه الإمرأة لمحبوبة من الملك بل كل ما يختص بها عزيز لديه، وعليه فإذا نقص شعرة واحدة من رأسها فبكل تأكيد يموت المعتدي عليها أشنع الميتات إذ يكون ساعد زوجها على إهانتها فمن منكم يا ترى يريد أن يموت في آلام مبرحة من أجل هذا الرجل الفاقد العقل «مشيراً إلى المركيز».

فصاح المركيز في وجه أحد رجاله وهو يتميّز غيظاً:

ـ من هـذان الرجلان يا مارسو؟

ـ هما سجينان.

ـ سجينان من؟

ـ سجيناك يا مولاي.
ـ ومن أمرك بحبسهما؟
ـ أنت يا مولاي والعصابة التي أتت بهما سلمتني أمراً مختوماً بختمك الخصوصي.
ـ إني لم أرَ قط هذين الرجلين في ماضي حياتي كما أني لم آمر قط بحبسهما في قصري ولا شك أن يداً خبيثة شيطانية دبرت كل هذا! على أني لا أسمح لهذين الرجلين أن يضايقاني في قصري أو يتداخلا بيني وبين زوجتي. اقبضوا عليهما، هيا يا مارسو، اسطفان، جليبار، جان بيير، أنتم الذين ربيتكم على مائدتي أطيعوا واقبضوا عليهما: قال هذا ناظراً إلى الواقفين حوله بعينين ملؤهما الغضب لكن رجاله لم يمكنهم إطاعته في وقت كهذا بل طأطأ كل منهم رأسه وخفض نظره عند ذلك استل سيفه وهجم على امرأته فخفّ دي كاتينا وحال بينه وبينها ليحميها وكان مارسو أسرع إليها أيضاً للقصد ذاته فالتفت المركيز إليه بأسرع من البرق وطعنه في عنقه طعنة نجلاء فوقع على الحضيض يتخبط بدمه وهو يصرخ صراخاً أليماً للغاية فحمله أموس وبعض الخدم الواقفين ووضعوه على حدة وكان أكثرهم يبكي لفقده لأنه كان محبوباً من الجميع لشجاعته وإخلاصه. ولما عاد أموس نحو دي كاتينا قال له هذا:

ـ هل سمعت يا أموس؟

ـ نعم سمعت صوتاً أشبه بصوت البوق.

ـ هو نفير الحرس الخصوصي ولا شك أن عصابة من الرجال آتية لمساعدتنا الحمد لله على السلامة يا أموس. وإني أهنىء نفسي بتخليصنا هذه الامرأة المسكينة.

ـ صدقت يا صاح، وإني رأيته يلف شعرها على يده ويجرها نحو النار بينما قفزت من النافذة إلى الحضيض. فلو تأخرت دقيقة واحدة لكان ألقاها طعاماً للنار ولعمري أن امرأة جميلة كهذه يعد موتها خسارة في هذه الحالة. وإني لم أرَ قط كهذا الجمال في حياتي الماضية يا أموري فقل لي:

ـ أين زوجها؟ إني لا أراه ولا أسمع صوته.

ـ قد أثخنته بالجراح فها هو هنالكِ ملقى على الحضيض!

عند ذلك ذهب أموس إلى حيث كانت مطروحة مدام دي مونتبان مغمى عليها ناظراً إلى ذلك الوجه الجميل حيث كانت آثار الدموع تتلألأ على وجنتيها وإمارات الألم التي احتملتها لا تزال بادية حول عينيها المغمضتين. ثم نزع عن جسد زوجها برنسه وسترها به بعناية واهتمام فائقين خوفاً من البرد: وكان الناظر إلى هذا المشهد يتأثر كل التأثر إذ يرى رجلاً ضخماً متوحشاً كأموس يعتني بامرأة باكية شاكية، تعسة بحنو وحب

هذا مقدارهما، وفي الوقت ذاته سمع وقع حوافر خيل بقرب القصر ثم انجلى ذلك عن عصابة من الرجال في مقدمتها فارس مرتد بثياب حرس الملك الخصوصي، فلما رآه دي كاتينا أسرع إليه وهتف بسرور لا يوصف:

ـ دي بريسناك؟

ـ دي كاتينا؟ ومن أين أتيت وكيف وصلت إلى هنا؟

ـ كنت سجيناً هنا. قل لي يا صاح: هل أوصلت الأمر إلى باريس؟

ـ لا شك في ذلك!

ـ وهل ذهب الأسقف لفرساي؟

ـ بدون ريب.

ـ أبورك زواج الملك؟

ـ قد تمّ في الساعة المعينة وهذا هو سبب إبعاد هذه الامرأة المسكينة مدام دي مونتبان عن البلاط!

ـ إني أفهم ذلك جيداً.

ـ وهل حصل لها هزء من جهة زوجها؟

ـ إن الصدفة جمعتني وصديقي أموس هنا ولولا ذلك لكانت لاقت منيتها. وها أن زوجها مطروح هنالك، فيا له من شيطان رجيم!

ـ صدقت يا صاح ولكن في الوقت ذاته أقول لك بحرية، لو كان زوجها ملاكاً سماوياً لانقلب إلى شيطان رجيم بعد هذه المعاملة التي عاملته بها كل هذه السنين الطويلة.

ـ قتل اثنان من رجاله في هذا العراك.

ـ لا شك في أنك كنت شجاعاً؟

ـ وكيف علمت أننا هنا؟

ـ لم أكن عالماً بذلك قبل الآن ولذا ترى سروري وانذهالي عظيمين.

ـ ألم تأت لتخليصنا؟

ـ بل أتيت لإنقاذ السيدة إذ في الساعة المعينة لسفرها مع أخيها لم تأت فبحث مسيو فيفون عن سبب اختفائها ففهم من الخدم أنها سافرت فاستنتج أن زوجها قد أدركها وإذ بلغ الملك أرسلني ورجالي لحمايتها.

ـ لو لم نكن هنا لكان مجيئك غير مجد نفعاً حيث إنها تكون أضحت رماداً في هذه الساعة.

ـ وماذا نفعل الآن؟

ـ قد تلقيت أوامر في فرساي مآلها: إرسال هذه السيدة إلى «بتي بورج» بعد أن أقبض على كل من أهانها وأزجه في

السجن لحين صدور أوامر جديدة من الملك وبوسعي أيضاً أن أضع يدي على القصر. وأنت ماذا تريد أن تصنع يا أموري؟

ـ إن ما يحلو لي صنعه الآن هو أن أسرع إلى باريس لأرى كيف أحوال عمي وابنته.

ـ لكن قبل أن تذهب إلى باريس أرجوك أن تذهب لفرساي، فأنا قد خدمتك منذ أيام خدمة مهمة فاخدمني أنت اليوم.

ـ سأخدمك بكل سرور فقل لي ما تريد.

ـ إذهب إلى فرساي وأخبر الملك بكل ما حدث، لا شك في أنه ينتظر أخباراً مني وهو على أحر من الجمر.

ـ سأكون في فرساي بعد ساعتين؟

ـ هل عندكم خيل؟

ـ لا، إنها قتلت عندما قبض علينا.

ـ خذ جوادين من اسطبل المركيز ولا بأس في ذلك إذ إن جواديكما قتلا في خدمة الملك.

لم تمض برهة وجيزة على هذا الكلام إلا وامتطى أموس وأموري جواديهما وسارا نحو فرساي وكانت الشمس قد توسطت كبد السماء ملقية أشعتها على قصر الملك العظيم.

بعد مضي يومين على عقد زواج الملك بمدام دي مانتنون كان الملك جالساً في غرفتها الحقيرة وقد اتكأ على منضدة ـ طاولة ـ أمامه عليها ورقة كتب فيها أمر باسترجاع البروتستان إلى الديانة الكاثوليكية وبالقرب منها قلم ومحبر لتوقيع الملك على الأمر.

وكانت مدام دي مانتنون جالسة أمام منسجها تزركش وبقربها الأب لاشيز والأسقف «بوسويه» وكاهن آخر سيرد اسمه فيما بعد. أما الملك فإنه جعل رأسه بين كفيه وهو يفكر في هل يوقّع على هذا الأمر أم لا.

ثم رفع رأسه مخاطباً الأب لاشيز وقال: هل تؤكد لي بأن أخلّص نفسي إذا أمضيت على هذا الأمر؟

ـ إذا فعلت ذلك لا شك في أنك تكافأ مكافأة حسنة.

ـ وهل تفتكر هذا يا سيادة الأسقف؟

ـ بدون شك.

ـ وأنت أيها الأب دي شيلا، ماذا تقول في ذلك؟

ـ لا أقدر أن أضمن لك السماء إذا فعلت هذا، لكني لا أشك في أنك هالك لا محالة إن لم توقِّع عليه.

فنظر الملك إلى الأب دي شيلا شزراً وقال: إن كلامك

لقاس وحتى الآن لم أعتد سماعه من أحد يخاطبني بهذا اللحن.

ـ مولاي أعذرني على جسارتي هذه لكني لا أنطق إلا بالحق ولو عاقبتني على هذا الإخلاص وإني لأعيد على مسامعك أيضاً: إن حياتك في العالم الآتي تتعلق بهذا التوقيع، وإنك لا تجهل أن «الهرطقة» خطيئة عظيمة كما أنه لا يخفى عنك أن البروتستان خارجون عن المذهب الكاثوليكي الحقيقي، فإن لم تقل هذه الكلمة فإن خطايا ألوف الألوف من الشعب ملقاة على ضميرك.

ـ لكن أبي وجدي أعطيا الحرية للكالفينست.

ـ وأنا أجيب على هذا: إن لم يكن الله عاملهما برحمة فائقة العادة، لا شك في أنهما يتعذبان عذاباً أليماً في دار البوار وذلك تكفيراً عن آثامهما.

ـ ويحك أيها الوقح.

ـ مولاي إني أعترف بالحقيقة أمامك ولو أفضى بي ذلك إلى الموت. نعم إني لا أخشاك عندما أكلمك عن الله الذي هو ملك الملوك ورب الأرباب وعن إرادته. وقد اعتدت على قول الحقيقة منذ صغري. وإذ كنت خادماً للرعية في «سيم» قصدني كثيرون من أعداء الكنيسة وجرحوني ومزقوا لحماني

وطبوني ولم يتركوني إلا بعد أن ظنوا بأنه قد قضي عليّ! ولكني عدت إلى الحياة بمعونة الله ومساعدة شاب كاثوليكي وها أنذا أدافع عن هذه الديانة العزيزة ما دمت حياً.

ـ إن العذابات التي قاسيتها حباً بالمخلص في البلاد المتوحشة لما يؤثر فيّ تأثيراً عظيماً. والآن قل لي: بماذا تشير عليّ أن أصنع إذا رفض هؤلاء البروتستان اعتناق الدين الكاثوليكي.

ـ إن لم يعتنقوه فإنهم يموتون.

ـ كنت أظن أن العذابات التي قاسيتها ظلماً، علمتك أن تكون شفوقاً نحو الآخرين.

ـ وعلى من أشفق يا مولاي؟ أعلى الهراطقة؟ لا؟ إن عذاباتي جعلتني أعلم حق العلم بأن الدم واللحم لا قيمة لهما، وأن الأمر الجوهري للإنسان هو حياة تعيش وتحيا.

فألقى لويس الرابع عشر رأسه على كفه وأخذ يفكّر في ما عساه أن يعمل.

ـ فقال له الأب لاشيز برقة: أظن أننا لا نتوصل إلى هذا الحد يا مولاي إذ إن شعبك يعبدك ويطيعك فيكفيه كلمة واحدة منك ليترك مذهبه ويضحي حياته إرضاء لك!

ـ ومن أين لي هذا أيها الأب؟

في غضون ذلك دخل الخادم وأخبر الملك بأن القبطان دي كاتينا ينتظر الأمر ليدخل عليه.

ـ إني مزمع على اختبار هذا الحب الذي يحبني به شعبي أيها الأب؟

عندئذٍ دخل القبطان دي كاتينا رافعاً يده للتحية فقال له الملك:

ـ ما وراءك من الأخبار أيها القبطان؟

ـ إن الماجور دي بريستاك كلفني بأن أخبر مولاي بأن قصر بورتياك في قبضته وأن «السيدة» بكل خير وسلام، وأن المركيز دي مونتبان أسير.

ـ حسن ما تقول: «ثم خاطب وزير الحرب الحاضر» بلغني أن الماجور دي لاسال قد توفي فهل ذلك صحيح يا لوفوا؟

ـ نعم، وقد توفي نهار أمس.

ـ والحالة هذه سنرفع دي كاتينا إلى وظيفته ونجعله ماجوراً «موجهاً الكلام لدي كاتينا» فدعني أهنئك أيها الماجور وأشكرك على إخلاصك لي في الخدمة.

ـ فقبّل دي كاتينا يد الملك شاكراً وقال: جعلني الله مستحقاً تعطفك يا مولاي.

ـ إنك بلا شك تعمل كل ما بوسعك لترضيني، أليس كذلك؟

ـ إن حياتي طوع إشارتك.

ـ وأنا أريد أن أختبر أمانتك.

ـ تراني مستعد لكل ما تريد.

ـ أنظر إلى هذه الورقة أمامي، ذلك أمر بأن يترك البروتستان اعتقاداتهم ويعودوا إلى حظيرة الدين الكاثوليكي، وإلا فإني أستأسرهم أو أطردهم من فرنسا. هذا وأملي وطيد بأن كثيرين من خدامي الأمناء يعتنقون مذهبي بدون تردد، أتفهم ما أقول؟

ـ نعم يا مولاي. قال هذا والعرق يتصبب من جبهته إد حدّثته نفسه بما سيقوله الملك بعد برهة. ثم استتلى الملك كلامه قائلاً: بما أنك بروتستاني فإني أسرّ جداً إن كنت أول من يعتنق ديانتي. فأقر هنا أمامي وأمام الحاضرين بأنك تتبع إيمان ملكك، معترفاً باعتقاداته المقدسة.

كان دي كاتينا اعتاد ملاقاة الأخطار واقتحام الأهوال، وتذليل الصعوبات، بل كان يلقى الموت من غير أن يرهبه سواء

في الحرب أو في ظروف أخرى في حياته غير أنه لم يشعر قط في غابر زمانه بما شعر به عندما وجّه نحوه لويس الرابع عشر هذه الكلمات. فأطرق طويلاً وهو يفكّر بما عساه أن يجيب به ذلك الملك العظيم الذي غمره بأفضاله وإحساسه. والآن هل ينكر اعتقاداته ليرضيه؟ أم يجحد أفضاله ويغضبه بوقت واحد

وكان الملك ينظر إليه وقد فرغ صبره من جرى سكوته الطويل فقال:

ـ ماذا يدور في خلدك من الأفكار كما أني رفعتك بالماضي سأرفعك بالمستقبل ها أنك لا تتجاوز الثلاثين من سنك وأنت «ماجور» وبدون شك أنك تكون ماريشالاً في سن الخمسين فماضيك يخصني ومستقبلك يتعلق بي أيضاً.

وهل من آمال أخرى عندك أعظم من هذه؟

ـ لا آمال لي سوى رضاك عليّ.

ـ وإلامَ هذا السكوت إذاً؟ لماذا لا تجيبني على سؤالي وتعمل بما أشرت به عليك؟

ـ لأني لا أقدر يا مولاي.

ـ لا تقدر؟؟

ـ مولاي هذا أمر مستحيل لأن ضميري لا يرتاح ولا يبقى

اعتبار واحترام لذاتي إذا أنكرت ديانة آبائي.

ـ إنك لمجنون بلا شك أيها الرجل!

ـ لا يا سيدي فإن شرفي وحده يمنعني.

ـ وهل من عار عليك في اتباع ديانتي؟

ـ ربما كان اتباعي لها من غير اعتقاد بها بل حباً بالترقي فالعار إذاً عليّ!

ـ فإذن اعتقد بها.

ـ وهل يقوى الإنسان على اعتقاداته أو يمكنه تغييرها كما لو غيّر ثوباً أو لباساً آخر؟ لعمري أن الاعتقادات تحل بالنفس رغماً عن الإرادة. لكن من رابع المستحيلات أن يجبن الإنسان في عقله، اعتقادات تلقنها أو سنت له.

ـ أترفض هذه المرّة التي هي الأخيرة؟

حينئذٍ بسط دي كاتينا ذراعيه إلى الأمام وهتف والدمع يملأ عينيه، مولاي:

ـ هل تجحد دينك؟ سيدي، لا أقدر. نظر الملك إلى الأب لاشيز وقال:

ـ أرأيت أن المسألة ليست سهلة المنال كما ظننت.

ـ أجاب إن هذا الرجل عنيد ولا شك في أن كثيرين غيره أحسن منه.

فهز الرجل رأسه بحزن وقال بصوت منخفض لا أعلم ماذا أفعل. ثم وجّه كلامه إلى مدام دي مانتنون، إنك قد رأيت كل ما جرى، فقولي لي بما تشيرين به عليّ أيتها السيدة.

فأجابت من غير أن ترفع عينيها إنك تعلم يا مولاي بأنك أنت ابن الكنيسة الأكبر فإذا تركتها أنت فمن يحميها فضلاً عن أنك تعاقب بلا شك إذا سمحت أن تجعل فرنسا مقراً أبدياً للهرطقة.

قال بوسويه: يوجد في فرنسا مقاطعات سكانها من البروتستان خصوصاً في مقاطعة «السافان» ألا أخذ الله بيد أولئك الرعاة الذين يذهبون إلى هنالك لرد هذا الشعب إلى الدين القويم.

قال الملك: ومن أرسل إلى هناك يا ترى؟

فجثا الأب دي شيلا أمام الملك وقال: أرسلني يا مولاي إني لم أطلب منك شيئاً في ماضي حياتي ولن أطلب في المستقبل فاستجب طلبي الآن وابعثني إلى «سافان».

فقال الملك في نفسه يا ويح السكان الذين يتعذبون معك إني لأرثي لحالهم؟ ثم رفع صوته قائلاً: حسن أيها الأب سيكون كما تريد إذهب إلى المحل الذي طلبته. بعد ذلك

تناول القلم فالورقة التي كتب بها صورة الأمر وقال:

ـ إذاً جميعكم تشيرون عليّ بأن أوقِّع على هذا الأمر: فأنت يا سيادة الأسقف ويا حضرة الأب لاشيز ويا أيتها السيدة وحضرة الأب دي شيلا ويا لوفوا إذا كانت نتيجة هذا الأمر رديئة فإياكم أن تلقوا كل الذنب عليّ.

إذ سمع دي كاتينا هذا الكلام دبّت في قلبه حرارة جديدة وغلا دمه حتى إن تأثره كان عظيماً بهذا المقدار إلى أن تجاسر على الدنو من الملك بأسرع من البرق واضعاً يده بالقرب من يد الملك قائلاً:

ـ مولاي إياك أن توقِّع على هذا الأمر إذ تندم على فعلك هذا أشد الندم وذلك لا يجديك نفعاً فيما بعد اشفق على الشيوخ، والعذارى، والأولاد، والأطفال، ترى ماذا فعلوا ضدك وأي إثم ارتكبوا؟ لعمري أنهم يكرمونك ويجلّون اسمك! فلماذا تقسو عليهم بدون سبب؟ أرجوك يا مولاي أن تمعن النظر ملياً قبل أن توقِّع على هذا الأمر الذي سيجلب على شعبك العذاب والإهانة.

كان الملك يسمع كلام دي كاتينا بإصغاء لكنه لم يلبث أن أجاب: ديانة ملك فرنسا يجب أن تكون ديانة الشعب الفرنسي

على وجه الإطلاق ولا أريد أن يعلمني من كان مثلك الواجب المفروض عليّ.

ـ يا لوفوا، إن الرتبة واللقب الذين أعطيتهما لدي كاتينا هذا منذ برهة أعطيهما إلى القبطان دي بلمون.

ـ سأفعل يا مولاي.

ـ ثم إن لقب ورتبة ومنصب دي كاتينا تمنحها للضابط «لابادوير».

ـ سأتم كل هذا.

فقال دي كاتينا ألن أخدمك بعد يا مولاي؟

ـ لست أهلاً لخدمتي.

لمّا سمع دي كاتينا هذه الكلمة شعر بأن آماله أضحت أثراً بعد عين ثم توجّه نحو الباب وخرج منه لا يعي على شيء والدمع يهطل من عينيه بغزارة هذا مقدارها. ثم انطلق إلى الأصطبل حيث كان أموس ينتظره وعند ذلك ألقى السيف عن عاتقه وقال:

ـ لا حق لي بعد في حمل هذا السيف فها أنا أكسره، قال أموس غير مكترث إذ لم يكن يدري بما جرى: وأنا أكسر خنجري أيضاً إذا أردت أن أسرّك.

ـ وهذه البدلة يجب أن أمزقها إذ لا حاجة لي بها بعد.

ـ ماذا حدث لك يا صاح، قل لي ماذا يزعجك؟

ـ إلى باريس: هيا بنا إلى باريس. يجب أن أسرع إلى هنالك كي أخلصهما. أين الخيل؟

لم تمض خمس دقائق إلا وكان الشابان قد امتطيا جواديهما، ولم تمض ساعة إلا وهما في باريس، في بيت التاجر كاتينا والد اديل وعم أموري، ولما دخل أموس إلى ردهة الاستقبال حيث كانت أدال وأبوها، هتف إذ رأى شخصاً آخر: قد أتيت أيها القبطان افرام، إني لم أكن أنتظر بأن أراك اليوم ثم قال لأموري: هذا هو قبطان مركب أبي وها هو آت ليأخذني إلى أمريكا. متى نذهب أيها القبطان؟

عند ذلك أخذ أموري يقص على الحاضرين ما جرى له مع الملك وأخبرهم بالأمر الذي سيصدر قريباً باغتصاب البروتستان للرجوع إلى الديانة الكاثوليكية، وحثهم على الاستعداد للسفر بأقرب الساعات. فنهض عمه الشيخ والدمع ملء عينيه وهو يرجف لشدة التأثر، وهتف قائلاً: ماذا علينا أن نفعل الآن؟ قال دي كاتينا: لا تنزعج يا عماه، أراضي الله واسعة، فلنرحل من فرنسا وسنسعد في بلاد أخرى.

ـ أنا أسعد؟ إني شيخ كبير يا أموري ولا يسهل عليّ تغيير

المناخ ويعز عليّ الإرتحال عن وطني حيث ولدت وحيث أتمنى أن أدفن. . . وعلاوة على ذلك ماذا أفعل بأشغالي وأموالي؟

ـ خذ من أموالك ما خفّ حمله وكثر ثمنه ولنرحل حالاً حالاً.

وبعد برهة وجيزة خرج الجميع قاصدين السفر إلى أميركا في مركب أموس الذي دعاهم للذهاب إلى هنالك.

في صباح اليوم التالي خرج دي كاتينا مع عمه وأدال يصحبهم أموس جرين وقبطان السفينة «أفرام سافاج» من ذلك البيت الذي عاشوا به طويلاً في باريس قاصدين «روان» وإذ مروا بقرية «لوفيه» رأوا جثة قتيل ملقاة على دمنة عالية ولما سألوا قيل لهم: إنها جثة رجل من البروتستان أبى أن يعترف بالديانة الكاثوليكية ويتبع اعتقاداتها فقتلوه. أمّا المدينة فكانت هادئة ولم يروا ويسمعوا فيها ما يكدرهم. ولم يلبثوا أن ركبوا سفينة أموس المدعوة «الغصن الذهبي» التي جعلت تمخر في عباب نهر السين.

وكانت هذه السفينة صغيرة جداً لكنهم اكتفوا بها متكلين على الله وفضلوا أن يموتوا غرقاً لا أن يكونوا موضوع سخرية وهزء بين يدي رسل الملك فضلاً عن حرية تمسكهم بديانتهم. هذا وبينما كانوا يركبون السفينة رأوا عدة زوارق تحمل

البروتستان الهاربين من فرنسا، وهذا المشهد زاد حزنهم إذ جعلهم يفكرون في كل ما سيقاسونه إخوانهم من العذاب وكل الأخطار التي ربما سيلاقونها في سفرهم هذا.

مضت تلك الليلة على المسافرين وهم عدا أدال ساهرون على سطح المركب يراقبون حركات الماء والسفينة إذ إن الهواء كان مضاداً لهم فكانت السفينة إن سارت ميلاً إلى الأمام ترجع بعد نصف ساعة ميلين إلى الوراء وظلوا على هذه الحال إلى أن أقبل الصباح. وجرت الريح حاملة سفينتهم بعيداً عن فرنسا فقال أفرام سافاج لأموس: أين الفتاة؟

ـ أوصيتها بأن تبقى في غرفتي إلى الصباح، وأظنها هنالك.

ـ إذاً أين تنام أنت؟ إذ لا بد لك من الراحة قليلاً.

ـ إنك تعلم يا أفرام أني قضيت سنين طويلة في الغابات حيث لم يكن لي غرفة سوى ظل الأشجار، وكانت الأرض سريري الوحيد، فلماذا لا أنام الآن على سطح المركب؟

ـ حسن، نم حيث شئت. أما ذلك الشيخ وابن أخيه فيمكنهما أن يناما على هذين المقعدين لكن بالله عليك يا أموس، خاطب هذا الرجل الشيخ وقل له أن يغيّر هذه الهيئة وليكن سعيداً. إن سفينتي وإن كانت صغيرة فإنها نقلت

مسافرين عديدين قبل أن حملته على ظهرها، وكما أنها أتت سالمة من «بوستن» إلى فرنسا ستصل إلى «بوستن» سالمة غانمة أيضاً، قل له أن لا يخاف ويطمئن.

- إني أرثي لحاله يا أفرام، وأرثي لحال ولديه، يا ليت هذين الشابين تزوجا قبل خروجنا من فرنسا. إن أدال جميلة وذكية يا أفرام وهو بطل شجاع. لكن مبادئهم وأطباعهم تختلف عن مبادئنا وأطباعنا إنهم يحالون هازئين بالحياة والظروف وتراهم سعداء حتى في أمر أحزانهم.

- إني لا أدري كيف يتسنى للإنسان أن يكون سعيداً في حزنه بل لا أدري أين توجد السعادة في أرضنا هذه المسماة وادي الدموع. إنّا نولد بالآثام، وبالعذاب، لأنه نتيجة الإثم، فأين السعادة؟ أين نجدها، ومن أين تأتينا؟...

لكن ما أرى؟ وأنظر إلى الشيخ، إنه يخال لي تعب.

نظر أموس إلى حيث أشار أفرام فرأى أبا ادال واقفاً ينظر إلى جهة باريس وإمارات الحزن والضعف بادية على وجهه، وفي تلك الساعة كانت السفينة تدخل البحر بعد أن سارت كل ذلك الليل في ألنهر فتنهد كاتينا طويلاً كمن يودّع الأرض الفرنسية والجبال والمناظر والمياه الفرنسية. وكانت أدال قد صعدت من غرفة أموس ودنت من أبيها، فلما رأته يتنهد،

بدأت تقبله وتقول له كلاماً معزياً ومشجعاً، لكنه تنهد ثانية وأجاب بصوت ضعيف للغاية: إننا بين يدي الله يا أدال لكن يده العظيمة قد ثقلت علينا.

فرفع أموري ذراع عمه بحنو وقال:

ـ تعال معي يا عماه، إنك تعب ومحتاج إلى الراحة. وأنت أيتها العزيزة أدال إذهبي ونامي قليلاً كي تسرّي، ومتى أفقت من نومك، نكون قد ابتعدنا كثيراً عن فرنسا حيث نترك همومنا وغمومنا. فذهب الأب وابنته، طالبين الراحة أما أموري فتوجه إلى حيث كان واقفاً أموس بقرب أفرام سافاج وقال: إني أسرّ إذا قدرت على إقناعهما بالنزول إلى غرفتك يا أموس، حيث يناما لا محالة: إني أخشى وقوع حادثة...

ـ أي حادثة؟

ـ هل ترى تلك الطريق البيضاء الكائنة على حافة النهر الجنوبية؟ إني رأيت هناك فارسين يعدوان على جواديهما ولا أعلم من يمتطي جواده في مثل هذه الساعة وفي هذا المكان سوى رسل الملك... أنظر ها إني أرى فارساً ثالثاً...

فصرخ القبطان نعم نعم إني أراه هو جندي بلا شك وربما قصدهم اتباعنا...

وكان دي كاتينا يفهم جيداً اللغة الإنكليزية ويتكلم بها قليلاً فنظر إلى أموس بحزن وقال له بالإنكليزية كي يفهم القبطان:

ـ إني كما قلت لك يا أموس أخشى وقوع حادثة تجلب البلاء على هذا القبطان الطيب القلب، وربما سلبت منه سفينته جزاء صداقته لنا، فإذا شئتما أتركونا على ضفة النهر الشمالية والدراهم التي معنا تكفينا للوصول إلى إنكلترا.

قال أفرام سافاج وقد تأثر من كلام أموس ورقّ لحزنه: خلِّ عنك هذه الأفكار أيها الشاب. إننا سنذهب إلى أمريكا معاً وإن شاء الله نصل إلى هناك بالسلامة، ونرحّب بكم كضيوف أعزاء.

وكانت السفينة تمر أمام ميناء هونفلور حيث رأوا مراكب عديدة حولهم، لكن سفينتهم لم ترس بل ظلت ماخرة مع الريح، لكنهم لم يلبثوا أن رأوا سفينة أخرى تواجههم في البحر وهي مشحونة برجال عليهم لباس الجندية.

فأخذ القبطان نظارته ونظر إليهم طويلاً ثم قال: إنهم يراقبون حركاتنا وسكناتنا وهم ثلاثون رجلاً! ثم قال: يا مسيو دي كاتينا ارفع عنك ثياب الجندية الذي بلا شك ينبئهم عنك. ثم نادى برجال سفينته وجمعهم على ظهر المركب وأمرهم بتهيئة بنادقهم إذ رأى أن رجال المركب الموازي لسفينتهم

يحملون سلاحاً عند ذلك سمعوا صوتاً يتكلم بالإنكليزية قائلاً قفوا وإلا نطلق النار عليكم!!

فقال القبطان أفرام: من أنتم وماذا تريدون منا؟

نحن أتينا بأمر الملك كي نأخذ من سفينتك عائلة بروتستانية ركبت معك من «روان».

فلم يجب القبطان بل قال لرجاله، تهيأوا لاطلاق النار. فقال الصوت: إن لم تجبنا أطلقنا النار. من هو قبطان السفينة؟

فأجاب أفرام: أنا هو.

ـ هل معك ثلاثة مسافرين بروتستان؟

ـ إني لا أعلم ذلك وهذا أمر لا يهمني علمه إذ أهم شيء عندي هو أن يدفع لي المسافر أجرة سفره «ناولون» وهذا ما فعلوه وهم رجل شيخ وابنته وشاب من عمرك تقريباً عليه لباس كلباس الجندي..

ـ نعم هو لباس حرس الملك. إني أطلب هؤلاء الثلاثة بعينهم.

ـ وتريد أن تأخذهم؟

ـ بدون شك.

ـ إني أتأسف لذلك.

ـ وأنا أتأسف أيضاً لكن الأسف لا يجدي نفعاً لدى أوامر الملك.

ـ افعلوا إذاً، ها إن الشيخ نائم على ذلك المقعد والفتاة نائمة في الغرفة أيضاً وأما الشاب فهو نائم كذلك على ذلك المقعد.

وكان قبطان مركب الملك قد ركب زورقاً صغيراً أوصله إلى سفينة أفرام فأشار هذا إلى المكان الذي كان به دي كاتينا وما مشى قليلاً حتى تبعه القبطان وحمله كأنه ولد وألقى به في البحر، وكان معه جندي آخر يتبعه فلما رأى ما جرى لقبطانه أسرع كمن يريد أن يخلصه فخفّ إليه أموس ورماه في البحر وظلّت سفينتهم تسير الهوينا كأنه لم يجر شيء، وكانت جنود الملك تطلق النار عليهم لكنه لم يمسهم ضيم وساعدتهم الريح فقطعوا مسافة طويلة بساعات قليلة ورأوا الهافر يتراءى لهم عن بعد كأنه غمامة صغيرة حينئذٍ قال القبطان لأموس كفانا ما قد رأينا من الأرض الافرنسية فهيا نشرب كأساً من نبيذ بوستن التي سنراها بعد أيام قلائل. تعال نشرب سر بوستن وسر الأرض الأمريكية.

مضى يومان على هذه الحوادث بينما كانت السفينة سائرة على وجه المياه بهدوء وأمان حتى كان يتسنى للمسافرين بها أن

يفتكروا بأنهم بعيدون عن الأخطار التي كانت تتهددهم. وفي اليوم الثالث إذ كانت أدال واقفة بقرب أموري على سطح المركب والنسيم اللطيف يداعب شعرها وشفتيها، خطب نظرت طويلاً إلى الماء بعينين مملوءتين شجناً وحزناً ثم تنهدت وقالت:

ـ إني أخشى حلول سوء بأبي يا أموري، إني أخاف على حياته.

ـ ولماذا تخافين يا أدال؟ ألا تعلمين أننا قد ابتعدنا عن الخطر الآن؟

ـ نعم قد ابتعدنا والحمد لله عن الخطر الذي تتهددنا بها أوامر ملك فرنسا القاسية لكني أخشى بأن لا يرى والدي أرض الميعاد.

ـ أوضحي لي فكرك. ماذا تعنين بهذا الكلام! إن صحة عمي جيدة جداً.

ـ آه يا أموري إن والدي عند مغادرته بيته في شارع سان مارتان شعر بحزن عظيم. حتى أنه شعر بأن قلبه كاد يتشقق وأن الحياة ابتدأت أن تغارقه شيئاً فشيئاً. إذ إنه يحب باريس جداً حتى يخال له بأن الحياة في غير البقعة هي الموت في الحياة.

ـ هذا صحيح لكنه سيعتاد على عيشته الجديدة حالاً.

ـ يا حبذا لو كان ذلك! لكن سنه يجعله أن يتعلق بحب الأشياء القديمة التي اعتادها في صباه. إنه لا يبدي لي شيئاً من أحزانه لكنني أقرأ في عينيه وفي ملامح وجهه أنه متألم في قلبه. ولما أراه يمشي هنا على سطح السفينة، أسرع إليه كي أكلمه، لكنه لا ينظر إليّ بل يظل نظره ممتداً إلى جهة فرنسا ودموع الحزن والفراق تجري من عينيه رغماً عنه، ثم ألم تنظر إلى شعره؟ إنه قد ابيض تماماً في هذه الأيام الثلاثة كما لو كانت عشرين عاماً. لكن ماذا أرى؟... أنظر يا أموري إني أرى شيئاً يعوم على أمواج البحر البعيدة، ما هذا؟

فنظر أموري إلى حيث أشارت لكنه لم يرَ شيئاً في بادىء الأمر، بل كانت الريح هادئة والبحر ساكناً تتموّج مياهه الخضراء تموجاً لطيفاً تحت قبلات النسيم لها. لكنه لم يلبث أن رأى شيئاً وهو نقطة سوداء صغيرة في الفضاء البعيد. وكان أموس قد رأى أدال لما أشارت إلى ذلك، ولذا أسرع إلى القبطان قائلاً: ها أني أرى مركباً قادماً من بعيد فأخذ القبطان نظارته وبعد أن تأمل المركب المشار إليه طويلاً قال:

ـ صدقت إنه لمركب، لكني أراه غير مسكون إذ لا أرى أناساً فيه فيجب أن نفهم ما معنى ذلك، هيا بنا نذهب إلى لقائه. قال هذا وأمر النوتية بتغيير سير السفينة وإدارتها نحو

تلك النقطة السوداء، ففعلوا، وبعد برهة من الزمن إذ كانوا يقتربون رويداً رويداً، رأوا شيئاً آخر على الماء بقرب المركب فقال أموس:

ـ يخال لي أن هذا الشيء العائم إنما هو رأس رجل.

فقال القبطان لا بل هي رِجل رجل. اسمع مني يا أموس ودع الفتاة تنزل إلى الغرفة.

قال أموس سأفعل ولكني لا أرى رأس رجل كما زعمت. وعلى أي الأحوال هيا بنا ندخل هذه السفينة ونرى ما تحتويه من العجائب. يخال لي أنها فارغة.

لم تكن برهة إلا دخلوا السفينة ونزلوا إلى الغرف السفلى فوجدوا جثة رجل عليه لباس صانع وبقربه جثة امرأة وبينهما جثة طفل يكاد يبلغ سنة من العمر وفي الجهة الأخرى من الغرفة جثة رجَل آخر بقربه الكتاب المقدس.

فاقتربوا منهم وفحصوهم أملاً في أن يروا بهم رمقاً من الحياة، لكنه اتضح لهم أن الرجل والامرأة والطفل قضوا نحبهم منذ أكثر من ثلاثين ساعة أمّا الرجل البعيد عنهم قليلاً فإن أموس شعر بحركة بطيئة جداً في قلبه فعاوده الأمل في نجاته وأخذ يهتم في معالجته إلى أن أفاق من غشيته.

عند ذلك أسرع أفرام سافاج إلى سفينته وأخرج السجينين اللذين أمسكهما في ميناء «هنفلور» وهما ذلك الإثنان اللذان دخلا سفينته كي يقبضا على أسرة دي كاتينا. وكان لمّا ألقيا في البحر أرسل رجاله ليخلصوهم من الغرق وسجنهم في أسفل المركب ولما وقع نظر أفرام عليهما قال لهما بلحن المتهكم:

ـ إنه يشق عليّ سجنكما لكنكما تعلمان أني لو لم أعاملكما هكذا لكنتما قبضتما علينا جميعاً، وبما أن أشغالاً ذات أهمية تنتظرني في بوستن فضّلت أن لا أبقى طويلاً في فرنسا، وعاملتكما بما أوحي لي. هل تريدان أن تذهبا معنا إلى أميركا أو أن تعودا إلى فرنسا؟

فصاح الإثنان بصوت واحد: إلى فرنسا، دعنا نعود إلى فرنسا.

ـ هل تريدون هذه البقعة البيضاء البعيدة؟

ها هي فرنسا. قال أحدهم نعم، نعم، أرى آثار فرنسا. آه! متى تدوس قدمي أرضها؟

قال القبطان أفرام: متى أردت يا صاح. ها أن سفينة بقربنا تنتظركما، هـل تريدان أن تركباها؟

ـ آه يا للسعادة! أين السفينة! هيا بنا إلى فرنسا!

فأمر القبطان بأن يعطى لهما كل ما يلزمهما من الزاد وغيره، وبعد برهة وجيزة، ركبا السفينة وذهبا عائدين إلى وطنهما.

أما أموس فكان قد أتى السفينة مع الرجل الذي خلّصه بعد أن ألقى بجثث أولئك التعساء في البحر. فأجلس الرجل على سطح المركب وأحضر له زاداً وشراباً. وإذا بعمه كاتينا آت فلما رأى الرجل الجالس بقرب أموس خف إليه والإبتسام ملء شفتيه ثم اقترب منه باحترام قائلاً: ها هو من أبناء ديانتنا، بل إنه أحد رعاتنا لأن لباسه يدل على درجته الدينية، فلا شك بأن بركة الله ستحل علينا الآن ويكون سفرنا هادئاً سعيداً.

لكن الرجل ابتسم بحزن قائلاً: لا أحيا كي أتمم هذا السفر معكم، إذ إني شاعر بدنو أجلي. إني كما قلت راعي كنيسة «أزيني» ولما وصلتنا أخبار أوامر الملك أسرعت بالهرب مع اثنين من أبناء طائفتي وولدهما. لكن في أول يوم من سفرنا علت مركبنا موجة عظيمة أخذت معها كل ما كان معنا من الخبز والزاد وغيرهما. فقصدنا الذهاب إلى إنجلترا وجرت بنا السفينة ولكن هيهات أن يحيا الإنسان بدون قوت، فتوفي أولاً الطفل ثم الأم، ثم الرجل، وأما أنا فإن ساعتي قريبةً جداً. ألا يمكنني أن أخدمكم بشيء قبل مماتي؟

فهز كاتينا رأسه، لكنه لم يلبث أن أبرقت أسرته، وتمتم كلاماً في أذن أموس جرين. فضحك أموس وكلّم القبطان فقال هذا: لا بد من ذلك وهمس شيئاً في أذن أموري الذي كاد يطير من الفرح. وأسرع الجميع إلى حيث كانت أدال وقالوا لها أن تتهيأ لقبول صلاة الإكليل على خطيبها، فتوردت وجنتاها خجلاً، وتبعتهم طائعة إلى حيث كان القسيس وجثت بقرب أموري فرفع يده المرتجفة وباركهما متمتماً بالكلمات التي تربطهما بالرباط الأبدي.

كم وكم من المرات قد فكّرت أدال في هذه الساعة التي بها تقسم حباً وأمانة وطاعة لأموري. كم وكم من الدفعات قد فكّرت بها في ماضي حياتها، متأكدة بأن بركة اكليلها ستكون في كنيسة شارع سان مارتان في باريس! أجل إنه لم يخطر قط في بالها بأن زواجها سيكون على ظهر سفينة عائمة على مياه الأوقيانوس العظيمة. وأن الكاهن الذي يباركهما يكون على آخر رمق من الحياة. وأن شهود عهودها لا يكون سوى هؤلاء النوتية، وأن النغم الوحيد الذي يرتل في هذه المناسبة لا يكون غير الألحان الشجية المرتفعة من تلك الأمواج المتلاطمة بالرياح. لا ـ لا إنها لم تفكر قط بأن المستقبل من نصيبها ثم نظرت طويلاً إلى الواقفين حولها، فرأت أباها يجثو أمام الرجل الجليل المائت

الذي بارك زواجها بأموري، ثم نظرت إلى أموري ذاته وشعرت كأن خنجراً طعن قلبها إذ رأت بأن ثيابه رثّت وتغير لونها، ثم نظرت إلى القبطان سافاج الذي كان ناظراً إلى السماء في تلك الساعة، كأنه يسأل السحاب بما يكنّه المستقبل، ثم إلى أموس جرين ثم إلى باقي النوتية، أخيراً تنهدت طويلاً وقالت في نفسها، ماذا عساه أن يجري بنا؟

لكنها ابتسمت لهم جميعاً عندما تقدم كل منهم حاملاً لها تهانيه وتبريكاته. أخيراً شبكت ذراعيها بذراع عريسها وذهبت معه إلى أطراف سطح السفينة وانعكفت تنظر إلى الأمواج فاكرة متأملة كأني بها تناجي تلك المياه الخضراء ثم تنفست الصعداء مراراً وقالت بصوت هادىء حزين: إني أرى كل ما هو حولي جديداً وغريباً للغاية ويخال لي أن سيكون المستقبل مظلماً كهذه الغيوم التي نراها فوق رؤوسنا مهددة إيانا بالمطر والزوبعة...

ـ إنك الآن تعنيني بجملتك، وكل ما يتعلق بك يخصني أيضاً. وكذا مستقبلك فإن ساعدني الله في مساعيّ أعدك بأنني سأجعل حياتك سعيدة لامعة بهية كما تلمع أشعة الشمس الشقراء على قمم هذه الأمواج الخضراء. ها إنّا قد غادرنا البلاد التي أفقرتنا وأقصتنا. لكن هنالك أمامنا بلاداً أخرى نسعد بها وكل نفحة من نفحات الريح تقربنا منها. هناك تنتظرنا

الحرية، ونحن نحمل معنا الشباب والحب، فمن على وجه الأرض يا ترى رجلاً كان أم امرأة، يتمنى أكثر من هذه الثلاث: الحرية والشباب والحب؟

مضت ثلاثة أسابيع والرياح مناسبة خطة السفينة، حتى أنه في أواخر الأسبوع الثالث جعل المسافرون يتأملون الوصول بأقرب الأوقات فكنت ترى أموس جالساً على سطح السفينة وهو يقضي سحابة يومه بالنظر إلى الأمام لا غير، دون أن يفوه بكلمة ذلك لأنه لم يكن يسافر أبداً قبل تلك المرّة، بخلاف القبطان الذي قضى حياته بأسفار وركوب البحار وتذليل الأخطار.

نعم كان أموس ينظر إلى الأمام آملاً من ساعة إلى أخرى بأن يرى الشاطىء المحبوب ولو عن بعد، وإذ كان على هذه الحال دنا منه القبطان ووضع يده على كتفه قائلاً: بماذا تفكّر أيها الشاب؟ ما لك تبقى ساعات طويلة ناظراً إلى الأمام كمن فقد الرشد! ألا تعلم أن أهم شيء يجب عليك استعماله هو الصبر. الصبر والشجاعة. وها أني أقرأ في عينيك أن صبرك قد فرغ. أجاب أموس بسذاجة: لا إن صبري لم يفرغ لكني أشعر باشتياق وحنين لم أحس بهما من ذي قبل، يخال لي أن روائح الوطن العزيز تملأ الهواء. آه. إني مشتاق إلى غاباتي المحبوبة يا أفرام!

ـ ثق بأننا سنرسي غداً يا أموس!

يا له من فرح عظيم! وأين نرسي يا ترى في أي بقعة نحن الآن؟

إننا في جهات سان لورانس وسنرى بلا شك شاطىء «أركاديا» ثم بعد يومين أو ثلاثة نصل إلى الشواطىء العزيزة لديك. .

لكن أموس ظلّ جالساً على سطح السفينة طول ذلك النهار أيضاً ينظر إلى الأمام كما في الأيام الماضية.

أمّا أموري وزوجته أدال فإنهما كانا جالسين حول تيوفيل كاتينا الذي كان يخال بأنه مريض جداً حتى أن أدال خشيت على حياته إذ إنها كانت تردد إلى زوجها مراراً: «لا شك في أنه عن قريب يتبع القسيس الذي بارك زواجنا».

في تلك الليلة هبّت الريح باردة جداً حتى أن المسافرين في السفينة والنوتية أيضاً اجتمعوا في غرفة حيث أوقدوا ناراً وجلسوا حولها يتدفأون وبينما هم على هذه الحال كان القبطان أفرام سافاج واقفاً على سطح المركب مع نوتي آخر يراقب سير السفينة، ولم يلبث النوتي أن صاح صيحة رهبة عظيمة إذ إنه شعر بأن السفينة ارتطمت بشيء كصخر ضخم، وكأني بها تكسرت من جراء هذه اللطمة. وكانت الليلة مقمرة إلا أن

الغيوم الكثيرة المتلبّدة في الجلد كانت تخفي نور القمر والنجوم، جاعلة السواد حالكاً والظلام مخيفاً.

قال القبطان إلى النوتي الذي معه ويدعى توملنسن: ولماذا تصيح هكذا يا صاح؟ إن السفينة لم تصادف صخراً بل إنها اصطدمت بركام جليد طاف على وجه البحر.

إنني ظننت هذا إلا أن الضباب أخفى الركام عن عيني.

لكني لا أشك بأن السفينة قد انكسر فيها شيء. فناد رفاقك واتني بمصباح وشمّر عن ساعديك فإننا في ساعة خطرة.

اجتمع النوتية وأموس وأموري دي كاتينا وجعل القبطان يفحص آلات المركب ومراكزه المهمة، وبعد برهة رفع رأسه مفكّراً فسأله الجميع بصوت واحد:

ـ ماذا؟

قال: ربما هذه السفينة لا تلبث ساعة واحدة أن تتكسر قطعاً: فالأحرى لكم الآن أن تأخذوا هذا الزورق وتحملوا به كل ما هو عندكم من الزاد واللبس ذاهبين جميعاً إلى ذلك الركام الذي كان يبعد من هنا أكثر من ميلين. فامتثلوا أمره ونزلوا إلى الزورق جميعاً ولم يبق سوى أفرام في السفينة فقال

لهم: أقذفوا، اذهبوا، تعـال معنا، أو تبقى في السفينة ولا تبالي في الخطر الذي يتهددك؟

أنا أبقى في السفينة إلى آخر دقيقة. أذكر يا تاملنسن إني لا أعطي أوامري سوى مرة واحدة، فاقذف إذاً فأطاع هذا وبدأ الزورق يبتعد عن السفينة رويداً رويداً لكن دي كاتينا أمسك يد أموس وهزها بشدة قائلاً:

كيف تحمل هذا يا أموس؟ كيف تتركه وحيداً في السفينة؟ إن شرفي يمنعني بأن آتي فعلاً كهذا. دعني أعود إليه وأعوده. قال أموس اذهب إليه يا تاملنسن ربما غيّر فكره ورضي أن يأتي برفقتك إلينا.

ـ إنه من المستحيل أن يغيّر فكره أبداً.

بينما كان هؤلاء الثلاثة يتعاركون هكذا صرخت أدال: واربّاه!

وإذ ذاك شق نور القمر الغمام الكثيف فظهرت السفينة غائصة في المياه ولم تكن سوى برهة حتى توارت تماماً تحت الأمواج الرهيبة.

فبهت الجميع لهذا المشهد المحزن، وكل منهم يفكر فيما جرى للقبطان. أخيراً عادوا إلى القذف حتى وصلوا إلى

المكان المعيّن لهم من القبطان نفسه. فرأوا بصيص نار ثم خيال رجل، وما أعظم انذهالهم لما رأوا وتأكدوا بأن ذلك الرجل هو أفرام سافاج بعينه يجلس هنالك كما لو كان في قصر شاهق عظيم دون أن يحدث له أقل خطر أم قلق. قال له أموس: قد خشينا على حياتك يا أفرام وشعرت بانقباض هكذا عظيم في صدري عندما رأيت غرق السفينة حتى أني فكّرت في أني لن أراك بعد.

ذلك لأنك لا تعرفني جيداً يا أموس.

لكن كيف أتيت إلى هنا أيها القبطان؟

إني قضيت عمري في البحر فالبحر يعرفني، والأمواج تطيعني وتحملني كيفما أردت وحيثما شئت. هذا أول غرق أراه في حياتي.

في الغد أفاق أموس من رقاده إذ شعر بأن يداً تضغط على كتفه، ففتح عينيه وإذا بأموري واقف أمامه مقطّب الحاجبين تدل هيئته على تفكير وحزن عظيمين وكانت الشمس تعلو رويداً رويداً درجات السُحاب فتسدل أشعتها الذهبية على الطبيعة فترى المياه تلمع باسمة والكون يضحك مشرقاً ويـامـا أحيلى المناظر التي كانت تحيط بذلك المحل الكائن به أموس وأموري في تلك الساعة فإن أركاماً متعددة من الثلج منها ما

يشبه الآكام ومنها ما يماثل الصخور الفاخرة في شكلها وزخرفها كانت تحيط بالآكام حيث كان أصحابنا المسافرون نائمين وكانت أشعة الشمس تدخلها فكأني بها تنفخها وتظهرها لامعة لمعاناً جميلاً وكان الناظر يخالها أعظم حجماً مما كانت عليه.
إلا أن أموس وأموري لم يكن لهما وقت أو صبر للنظر إلى هذه البدائع والتلذذ بها إذ إن أموس لم يكد يفتح عينيه وينظر إلى صديقه حتى قرأ في ملامح وجهه أن خطراً ما يتهددهم جميعاً فسأله قائلاً:

- ما الخبر يا أموري؟
- إن الركام الذي نحن عليه يذوب شيئاً فشيئاً.
- لا شك في أنك غلطان يا أموري إنه أقوى من جزيرة.
- إني فحصته فحصاً مدققاً منذ ساعتين تقريباً رأيت خرقاً صغيراً ينفتح في هذه المغارة الكائنة بالقرب منا وها أنذا ألآن أراه كبر واتسع بسرعة هكذا غريبة حتى أني أقدر أن أنزل به بكليتي. صدقني أن الخطر عظيم، وأن هذا الركام لا يلبث أن يذوب فنغرق جميعاً ونموت في قلب هذه الأمواج.

فنهض أموس ومشى ملياً طولاً وعرضاً يميناً وشمالاً وهو ينظر إلى الخروق والذوبان في أطراف الركام ووسطه ثم ذهب إلى القبطان وأنبأه بالخبر. وقال القبطان متأملاً: لا شك في أن

الخطر عظيم، فإن ذاب الجليد بنا تنتهي حياتنا أيضاً.

ذهب كل منهم إلى جهة يتحقق حرج موقفهم مفكّراً بما عليهم أن يفعلوه. فلم تكن برهة إلّا وصرخ أموس: ما هذا؟

ـ عن أي شيء تسأل يا أموس؟

ـ ألم تسمع شيئاً؟

ـ لا ماذا سمعت أنت؟

ـ قد خال لي سماع صوت.

ـ إنك غلطان بلا شك. ها إننا جميعاً هنا.

ـ ربما كان الأمر كما تقول.

عند ذلك ابتعد القبطان قليلاً مفكّراً في ما عساهم أن يفعلوه، وكان الهواء ساكناً هادئاً والبحر رائقاً صافياً ولذا كنت ترى فيه بقعة سوداء حيث غرقت السفينة ثم عاد القبطان نحو رفاقه يقول:

يجب علينا أن لا نقطع الأمل إذ لا نبعد كثيراً عن «سان لوران» وكثير من المراكب يمر من هذه الجهة فمن وقت إلى آخر، يمكننا أن نرى سفينة آتية نحونا وننجو. . . لكن ما هذا؟ ماذا أسمع يا أموس؟

وكان أموس واقفاً منحني الرأس إلى الأمام مصغياً بكل

قواه، وعيناه تنظران يميناً وشمالاً، فأراد أن يجيب إلا أن دي كاتينا صاح مشيراً بيده إلى الخرق: أنظروا إلى هنالك!

وكان الخرق قد اتسع كثيراً منذ برهة، إلا أنه كان يرى عند أطرافه آثار أقدام، فقال القبطان:

ـ هيا بنا نتبع هذا الأثر، وندخل هذا الخرق.

ـ إنه يؤدي إلى الجهة الأخرى.

ـ إذاً دعنا نراها.

دخل القبطان وتبعه أموس وأموري فرأوا أنفسهم في شبه دهليز وعلى يمينهم وشمالهم جدراناً من الثلج، ثم اتسع الطريق أمامهم شيئاً فشيئاً وأدّى بهم إلى محل مرتفع، يعلو نحو سبعين قدماً عن سطح البحر فوقف الثلاثة ينظرون إلى ما حولهم فلم يروا شيئاً سوى الأمواج الزرقاء التي لا حدّ لها تلمع فوقها أشعة الشمس فتنهد القبطان وقال:

ـ لقد خاب الأمل!..

فنظر أموس إلى ما حوله وقال:

ـ إنه لأمر غريب! إنني تأكدت بأن الأثر أثر قدم آدمي... لكن ما هذا؟ اسمعا. اسمعا! فأصغى الثلاثة، وإذ بنداء عسكري يرن في الفضاء على مسافة قريبة، منهم. فنظروا إلى

بعضهم وهم يصرخون فرحاً، ثم مشوا قليلاً نحو اليمين وإذا بمركب كبير واقف بقرب الركام رأوا على ظهره كثيراً من النوتية وقسماً من الجنود يلعبون ألعاباً رياضية، فلم ينتظروا طويلاً بل انقلبوا راجعين نحو رفقائهم وأخبروهم بما جرى لهم. ولم تمض برهة قليلة، إلا وكان جميعهم على ظهر السفينة المدعوة «سان كريستوف» تحمل إلى كندا حاكمها الجديد ـ (المركيز دي دينونفيل) فحمدوا الله على سلامتهم وهنأوا بعضهم بعضاً بهذه الصدفة السعيدة.

وكان اسم السفينة (سان كريستوف) التي أقلعت من ميناء لاروشال منذ ثلاثة أسابيع تقريباً مقلة حاكم كندا الجديد وحاشيته ونحو خمسماية جندي وأسقف كندا «فاليه» وكتبته وبعض الكهنة من يسوعيين وغيرهم. ورأى جماعتنا أنهم ليسوا بأغراب بين هؤلاء الناس الذين جميعهم من الفرنسيين تقريباً. ووجد بينهم أيضاً بعض الأشراف وكثير من السيدات الذاهبات للإنضمام إلى أزواجهن في كندا. ومع ذلك لم يكن بال الهاربين مطمئناً لأنهم خافوا أن يسألهم رفقاؤهم عن اسمهم ودينهم فينكشف أمرهم ويخشى على راحتهم وحياتهم. ولم يلبثوا أن تأكدوا بأن كلاً من رفقائهم كان منهمكاً في شغله الخاص: كان ثلاثة من الجنود طريحي الفراش يقاسون آلام

الحمى الصفراء والكهنة بالقرب منهم ليلاً ونهاراً والأسقف لا يمل من الدعاء لله لشفائهم. وكان الحاكم يقضي أكثر ساعاته ماشياً على ظهر السفينة ذهاباً وإياباً وهو يطرق مفكراً زمناً طويلاً وما افتكاره إلا في صعوبات وأخطار مصلحته الجديدة. وأحياناً يأخذ كتاباً يقرأه وما ذلك الكتاب سوى ـ مزامير داود ـ أما الأشراف الذين هنالك فلم يكترثوا إلا بأنفسهم وملابسهم وبالسيدات الذاهبات لملاقاة أزواجهن.

وقد وجد أفرام سافاج ورفقاؤه مأوى وبعض الراحة على ظهر هذه السفينة. وكان أموري دي كاتينا قد غيّر ملابسه الزرقاء الدالة على أنه من حرس الملك الخصوصي بملابس سوداء اللون أشبه بملابس الجنود حتى أن كل من رآه ظنّ بأنه جندي من غير أن يداخله ريب في أمره. أما أدال فلم تفارق قط أباها العاجز الذي كان ينحل يوماً فيوماً وقواه تنحط شيئاً فشيئاً.

بعد مضي يومين أو ثلاثة وصلت السفينة إلى ميناء «كارب ليفي» فسمع دوي المدافع في الفضاء وأخذت الموسيقى تعزف بألحانها المطربة والأعلام الفرنسية تخفق فوق الرؤوس، الأيادي تصفّق والأفواه تهتف بالدعاء استقبالاً للحاكم الجديد. فلما سمع كاتينا والد أدال كل هذا رفع رأسه مستنداً في سريره

على وسادته وكان منذ أيام لم يتكلم قط غير آكل سوى القليل جداً لأن المرض والهم أثرا بجسمه تأثيراً شديداً. وقد نبّهه دوي المدافع، فنهض وتنهد طويلاً لتحققه أن أرض فرنسا أضحت بعيدة عنه.

فقالت أدال: هل تحتاج يا أبتاه إلى شيء؟ ها نحن سالمون في أميركا، فأنا وأموري بالقرب منك فمر بما تريد.

فهزّ كاتينا رأسه بحزن قائلاً:

ـ إن الله أوصلني سالماً إلى أرض الميعاد لكنه لا يسمح لي بأن أدخلها فلتكن إرادته وليكن اسمه مباركاً إلى الأبد. غير أني أريد أن أرى هذه الأرض ولو عن بعد كما رأى موسى أرض الميعاد قبل موته. تعال يا أموري أعطني يدك واصحبني إلى سطح السفينة.

بعد بضع دقائق رأى نفسه جالساً على سطحها والمياه الزرقاء تتلاطم حوله، وأصوات الجنود تملأ الفضاء بينما كانوا ينزلون منها الزوارق التي كانت تحملهم إلى الأرض اليابسة.

نظر الشيخ يميناً وشمالاً ثم تنهد طويلاً ناظراً إلى المدينة القائمة أمامه وإلى بيوتها الشاهقة وإلى الجبال الوردية المحدقة بها وقال:

إن هذه الأرض لا تشبه أرض فرنسا الخضراء الجميلة لكنها عظيمة غنية كالذي خلقها جلّ وعزا! فكونوا سعداء في هذه الأرض التي تقبلكم في حضنها وتعطيكم السعادة والغنى بعد أن أقصتكم فرنسا وطنكم العزيز. إن قدمي لن تدوس أبداً هذه الأرض حيث تعيشون جميعاً لكن روحي سترفرف عليكم دائماً وأنا طالب من خالقي الذي سألاقيه قريباً بأن يبارك ولديّ ويجعلهما سليمي القلب سعيدين إلى الأبد.

كان صوته ينخفض شيئاً فشيئاً ورأسه ينحني رويداً رويداً وأخيراً غمّض جفنيه على تينك العينين اللتين كانتا تنظران إلى ولديه بحنو لا يوصف. فخفت إليه أدال وطوقت عنقه بذراعيها صارخة:

ـ آه يا أموري، قد مات!

كان بالقرب منهم كاهن يصلي فلما سمع أدال اقترب منهم ناظراً إلى الشيخ وقال: لا شك أنه مائت. وهل اقتبل الأسرار الكنائسية؟ فأجاب أموري متردداً: لا أظن أنه بحاجة لاقتبال الأسرار. وقال الكاهن بقساوة:

ـ من هنا لا يحتاج إلى الأسرار أيها الشاب؟ بل كيف يؤمل الإنسان الحصول على الخلاص بدونها؟ لا بدّ من أن أمنحه إياها بذاتي.

عند ذلك فتّح الشيخ عينيه قائلاً بصوت ضعيف مرتجف: تركت كل ما أحبه لئلا أطيعكم، فهل تظنون أن أطيعكم في ساعة موتي؟

فأدرك الكاهن المعنى ناظراً إلى كاتينا وأدال وقال: هل أنتم بروتستان؟

فقال أموري، احفظ السكوت ولا تقل هذا أمام الشيخ المائت!

قال أموس جرين: لقد مات!.

وكانت أدال لا تزال مطوقة عنق أبيها بذراعيها لاثمة جبهته من وقت لآخر فاقترب منها أموري ليعزيها فوجدها مغشياً عليها. حملها إلى غرفة إحدى السيدات وأخذ يعالجها حتى أفاقت ثم شرع يشجعها مردداً لها مقدار حبه فشددت قليلاً وذهبا إلى حيث كانت جثة والدها.

فقيل لهم: إن الحاكم أمر بأن تلقى الجثة في البحر في تلك الليلة. وبعد أن نزل جميع المسافرين من السفينة رأى دي كاتينا ذلك الكاهن الذي كان معهم عندما مات عمه يقترب من أحد ضباط الحاكم الخصوصيين هامساً بعض كلمات في أذنه وهو يشير إليهم ثم اقترب الضابط منهم قليلاً وقال:

- من هو القبطان سافاج منكم؟

ـ أنا هو.

ـ والمستر أموس جرين؟

ـ ها أنذا.

ـ وباقي النوتية المتطوعين لسافاج؟

ـ ها نحن جميعاً.

قد أمرني الحاكم أن أبلغكم من أن مركباً صغيراً اسمه «الرجاء» ينتظركم، فإذا أردتم أن تبحروا به الآن فلكم ما تختارون لأن هذا يوصلكم إلى الجزائر الإنكليزية.

فهتف النوتية هتاف التهلل والأمل لذهابهم بسرعة هكذا عظيمة إلى وطنهم والعود إلى بيوتهم وأسرعوا يجمعون ما قد خلّصوه من الغرق من الأشياء المختصة بهم.

عند ذلك اقترب الضابط من أموري بعد أن وضع قائمة أسماء النوتية في جيبه وقال له باسطاً يده للسلام:

إنك تذكرني بلا شك لأني أنا لا أزال أعرف وجهك مع أنك غيّرت بدلتك الزرقاء ولبست بدلة سوداء عوضاً عنها.

فضغط دي كاتينا على يد ذلك الصديق قوياً وأجاب: إني أذكرك جيداً يا دي بونفيل وأذكر السفر الذي سرنا به معاً إلى (فورست فرونتناك) لكني لم أسبقك بالسلام اليوم لأن صداقتي

الآن ربما ثقلت عليك.

ـ أصمت، إياك أن تراجع على مسامعي كلاماً كهذا. إنك لا تزال صديق ثم استتلى كلامه ببعض جمل تعزية مظهراً له شدة تأسفه لنظره صديقه في هذه الحالة الموجعة. ومكرراً له أنه لا يزال ولن يزال صديقه رغماً عن كل ذلك وتركه بعد أن نظر إليه طويلاً وضغط على يده.

آما دي كاتينا فإنه عندما سمع كلام صديقه وتأكد بأنه بعد تلك المتاعب والمشقات سيعود إلى فرنسا «تحت الحفظ» ويدخل باريز كمجرم حيث يكون هزأة وسخرية لأعدائه وموضوع شفقة ورحمة لأصدقائه ـ عندما فكّر في جميع هذه التفصيلات شعر بأن روحه تتملص من كل عضو من أعضائه بألم لا مزيد عليه، شعر أن نفسه الأبية الكريمة تأبى أن تحيا بعد عار كهذا، أجل إن الأحرى به أن يقتل نفسه في تلك الدقيقة على ظهر تلك السفينة الملعونة. بل الأفضل له أن يلقي بنفسه في تلك الأمواج العميقة ضاماً زوجته الحبيبة إلى صدره، مائتاً معها في مطاوي تلك المياه الخضراء، حيث تنطلق روحاهما في قبلة متبادلة لا نهاية لها، بين حفيف الأمواج وفضاء المياه الشاسع...

نظر إلى ما حوله وإذا بالقس المعهود واقف على بضع

أقدام منه ينظر إليه خفية من وقت إلى آخر ورأى أيضاً جنديين يمشيان ذهاباً وإياباً على سطح المركب كأنهما وضعا هنالك لمراقبة حركاته، فغلا دمه في عروقه وحوّل وجهه عنهم ناظراً إلى البحر كي يخفي ما يدور في خلده، وإذا بمركب كبير مملوء من الرجال مرّ أمامه وسمع فيه أصوات فرح وتصفيق وضحك.

فحدّق النظر بهم وإذا هم رفقاؤه عائدون إلى وطنهم على ظهر المركب الذي أعطاهم إياه الحاكم كما سبق، وقد مرّ المركب دون أن يلتفت أحدهم إليه أو أن يفكّر أحدهم بأن صديقاً تعساً يتألم بينما هم يفرحون حتى أموس ذاته لم يفكّر به، إذ إنه مرّ ناظراً إليه بعدم اكتراث دون أن يشير إليه مودعاً أو مسلماً. فعظم عليه هذا الأمر، إذ إنه رأى بأنه ليحتمل العذاب من أعدائه لكن ما أمرّ اهمال الأصدقاء وعدم اكتراثهم في ساعة الضيق خصوصاً. فتنفس الصعداء مرراً وألقى رأسه بين كفيه يفكر في أحواله المحزنة.

في تلك الليلة ألقيت جثة تيوفيل كاتينا في البحر ولم يكن من يحزن عليه أو يبكيه سوى ولديه أموري وأدال.

وفي صباح اليوم التالي أخذ أموري زوجته وصعد بها إلى

سطح السفينة وأفرغ جهده في أن ينسيها عذابها الماضي، ومرارة المستقبل اللذين يتهددانها، وليبعدها عن أفكارها المؤلمة وكانت كلها أعين حب تنظر إلى حبيبها وتأسف على عدم اقتدارها على إعطائه السعادة والراحة اللتين يستحقهما. فأخذ يخبرها عن السنين التي قضاها في تلك المدينة «كوبك» وعن حياته هنالك ويشير إلى المحال التي يعرّفها بها، ويدلّها بأصبعه على الثكنة «القشلة» التي سكنها فكانت أدال تصغي إلى حديثه بكل قواها، وتنظر بفرح وتعجب إلى تلك الجبال العظيمة القائمة على يمين المدينة وشمالها وكأني بمخيلتها سائرة في تلك الغابات الكثيفة التي تحوطها.

وبقيا على هذه الحال حتى غابت الشمس وحان المساء حاملاً معه التذكارات الموجعة والأفكار المفعمة هماً ومرارة. فاقتربت أدال من أموري أكثر من الأول وأخذت ذراعه تتكىء عليها وتضمها إلى قلبها وتضع رأسها عليها طويلاً كأنه ملجأها وسندها الوحيد في هذه الدنيا.

ولما حان الظلام نزل الغريبان إلى غرفتهما وكل منهما يشجّع الآخر مع أن قلبيهما كانا مفعمين هماً وغماً حتى أن التنهدات العميقة كانت ترفع صدريهما وتخفضهما بدون انقطاع.

وكان دي كاتينا قد اعتاد النوم بقرب كوة الغرفة تاركاً هذه الكوة مفتوحة إلى الصباح. فألقى بنفسه على فراشه لكن الرقاد لَم يأته وأخذ يفكّر في وسيلة تمكنه من الهرب من ذلك المركب لكن أين يذهب عندئذٍ إن أرض كندا خطرة عليهما أيضاً كما لو كانا في فرنسا.

وأما الأحراش المجاورة فإنها مملوءة من الهنود المفترسة الآدمي كالوحوش الضارية ثم فكّر في أن أسلم مكان يمكنهم الإقامة به هو أحد الأقاليم الإنكليزية لكن كيف يا ترى تكون حياته وحياة زوجته بين قطر غريب لا صديق لهما به ولا إلمام لهما بلغته ومشربه وعادته. كانت عيشته هذه ممكنة لو لم يتركه صديقه أموس الذي ابتعد عنه ونسيه ولا غرو في ذلك إذ إن أموس ليس بقريبه ولا نسيبه. بل ما هي سوى معرفة بعض أشهر قد خدمهم بها جميعاً بلا تمنع ولا حساب. فكفى ما قد فعل... ومع ذلك لم يكن دي كاتينا يستحق معاملة أموس له إذ إنه كان يعلم أنه كريم وأن رجلاً كريماً يعز عليه أن يرى باراً يتألم دون أن يساعده...

لكن ما هذا؟ بينما كان غارقاً في هذه الأفكار سمع صفيراً منخفضاً يتكرر مراراً فجلس في فراشه وأخرج رأسه من النافذة فلم يرَ شيئاً سوى المياه السوداء في تلك الليلة الدامسة، فأطل

رأسه ثانية وهو يتنهد وانطرح على فراشه وإذا بشيء وقع على صدره فنهض في الحال وأضاء المصباح وإذا بمنديل صديقه لفت به بكلة ذهبية كان أعطاها أموري إلى أموس عند وجودهما في باريس. ففهم إذ ذاك بأن أموس ألقى بهذه كعلامة له. وشعر برعشة الفرح تختلج بين أعضائه فارتدى ثيابه بسرعة كلية وصعد على سطح المركب فلم يرَ أحداً هنالك فاقترب من حافة السفينة ونظر إلى البحر فتراءى له أن مركباً هنالك.

ـ فقال: من هنا فسمع صوتاً يقول له: أأنت دي كاتينا؟

ـ نعم.

ـ قد أتينا لنخلصك يا أموري.

ـ بارك الله بهمتك يا أموس.

ـ وهل زوجتك معك؟

ـ لا بل يمكنني أن أنبهها من نومها.

ـ جيد لكن قبل أن تذهب خذ هذا الحبل واربطه في السفينة. فتناول دي كاتينا الحبل الذي ألقاه له أموس وربطه ربطاً محكماً في درابزين المركب وعاد بخفة وسرعة عظيمتين إلى غرفته حيث كانت زوجته نائمة فنبهها من رقادها وأخبرها بما ينتظرهما فهبت منتصبة على قدميها وقلبها يتهلل فرحاً وأملاً ولم تمض مدة قليلة إلا وارتدت ثيابها وجمعت ما عندها من

الحلي وغيرها مما خف حمله وعظم ثمنه ثم صعدت مع أموري إلى سطح السفينة حيث نظرا عن بعد ذلك القس واقفاً ينظر إلى المكان الموجودين به، كأني به عالم بما يجري وقد وجد هنالك حجر عثرة، في سبيل نجاتهما. فتقدم نحو دي كاتينا والغضب آخذ منه كل مأخذ وأمسك ذراعه قاصداً أن يقول له شيئاً ما ـ تهديداً أو غيره لكنه نظر إلى وجهه وعرف أنه وجه افرام سافاج وفي الوقت نفسه رأى أموس جرين يدنو منه فألقى أموري نفسه بين ذراعيه فقال أموس: لا تخش إن الأحوال على ما يرام إننا قد أوثقناه في مركبنا، فسأل أموري متعجباً: من هو الذي أوثقتموه في مركبكم؟

الرجل الذي ترى لباسه الآن على القبطان سافاج، فإنه أتانا بينما ذهبت لإحضار زوجتك فأمسكناه وأخذناه إلى مركبنا حيث أفهمناه أن كل ما عليه أن يفعله كي ينجو هو أن يطيعنا وهكذا جعلناه يخلع ثيابه، وقد ارتداها القبطان للتوصل إلى غرضنا بسهولة.

ـ أين زوجتك؟

ـ ها هي هنا.

ـ تعال إذاً بسرعة خوفاً من أن يفاجئنا أحد فحمل أموس

أدال بين ذراعيه وأنزلها إلى السفينة وتبعهما أموري والقبطان سافاج.

وبعد أن أخذوا في المسير جعل القبطان يخلع عنه ثياب الراهب وهو يقول:

إني أفضل هذه السفينة على تلك رغماً عن صغرها أما هذه الثياب فإنها اتعبتني كثيراً لأني لم ألبسها بعد قبل الآن.

قال أموس: لا بأس في ذلك إذا أعقبته السلامة. فقولي لي أيتها السيدة هل تشعرين بتعب ما؟

قالت أدال: إني لست بتعبة البتة، لكن تعجبي عظيم، لأني لا أفهم كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه.

- إني لم أكن أدري ماذا أنتظر.

- لكن ألم تعجب لافتراقنا عنك دون أن نبدي لك إشارة وداع؟

- إني مقر بأن عدم اكتراثكم بنا عند سفركم قد ألم قلبي. لكن ها قد عدتم آه ما ألذ الحرية والهواء يا لعظم شكري لك يا أموس!

قال أموس: لا غرو في ما أفعله. إني كنت ضيفكم في فرنسا فيجب عليّ أن أضيفكم الآن.

قال أموري: وإلى أين نذهب الآن؟

أجاب القبطان: إنه يستحيل علينا السفر في البحر طويلاً لأنهم يتبعون أثرنا بسهولة فسنسير إذاً بين الغابات الكثيفة ونتحايد المدن والبلاد ريثما يأتينا الله بالفرج.

وكانوا قد ابتعدوا مسافة عظيمة في البحر حتى أن السفينة «سان كريستوف» كانت قد غابت عن أنظارهم منذ مدة طويلة. وهكذا سار الجميع والخوف والأمل يتنازعان قلب كل منهم.

في اليوم التالي تحولت سفينتهم عن مياه «الأوقيانس» وسارت في نهر عظيم يجري بين الغابات الكثيفة والجبال الشاهقة ومضى عليهم بضعة أيام لم يكدر بها صفاء عيشهم بل تعاظمت آمالهم إذ كانوا على ثقة من النجاة قال أموس يوماً إذ كانت السفينة تجري بهم، بعد أن تنهد طويلاً:

يخال لي أن حياة جديدة تدب في صدري عندما أشتم رائحة هذه الأرض وهذه الأشجار وأظن أن على مسافة مئة ميل من هنا ربما نجد مدينة أم قرية صغيرة.

قال القبطان: صدقت لكن أذكر أن السيدة لا يمكنها قطع هذه المسافة على قدميها.

لا دعنا نبقى في سفينتنا بعض أيام أخر ثم نتوجه نحو

الغابات الكائنة شمال هذه البلاد.

قال دي كاتينا: إن هذه الطريق صعبة جداً لكن لي صديق يقطن على حافة هذا النهر ولا شك في أنه يسر بمشاهدتنا ويساعدنا على قدر إمكانه. أدال أتذكرين اسماً قلته أمامك مراراً وهو اسم شارل ديلانون سيد قصر سانت ماري؟

ذاك الذي كنت تلقّبه بالدوق الكندي.

هو بعينه فإن قصره قائم على بعض أميال من حصن مار لويس وإني لمتأكد بأن صداقته لي متينة جداً وأنه سيساعدنا.

قال أموس وهو يصفق بيديه أيضاً فرحاً: إن كان لنا صديق في هذه الجهات فإننا لا نخشى شيئاً.

وهكذا مشوا سبعة أيام كانت أدال تعجب لكل ما ترى من أشجار ومياه حتى أموري علمها أسماء تلك الأشجار وأسماء العصافير التي تغرّد على أغصانها فكانت صحتها تتحسن يوماً فيوماً. وجمالها يتزايد والابتسام يجري بين شفتيها كأنه نهر متدفق فكان أموري يشعر بسعادة وغبطة عظيمتين عندما يراها على هذه الحال، لكن الرقاد لم يكن يزور جفنه وكان يقضي ليله ساهراً بقرب زوجته يتأمل ملامح وجهها ويعد أنفاسها ويفكّر في العذاب الذي ستقاسيه في تلك الغابات وفي

الأتعاب التي تنتظرها فيعض على أنامله غضباً ويفكّر بالرجوع بها إلى «كوبك» لكنه لم يلبث أن ذكر بأنهم سيلقون القبض عليهما هنالك ويرجعونهما إلى فرنسا حيث يفرّقون بينه وبينها.

وكانوا قد أطلقوا سراح الراهب في اليوم الثالث من سفرهم إذ كان حضوره يضايقهم فتركوه في غابة على شاطىء النهر. ولما كان اليوم السابع اقتربوا من قصر صديق أموري، فرست السفينة ونزلوا يمشون الهوينا بين الأشجار قاصدين ذلك المكان.

وإذ حانت التفاتة من أموس إلى النهر رأى سفينة صغيرة تجري في تلك المياه تابعة الطريق التي أتوا منها فأعلم رفقاءه بذلك ونظروا جميعاً إلى حيث أشار أموس.

فقال أموري بصوت يرتعش: إني أرى في تلك السفينة وجه الراهب الذي هو سبب شقائنا.

فنظر كل منهم إلى الآخر بحزن.

قال القبطان: يا ليتنا لم نطلق سراحه، بل يا ليتنا ألقينا به في النهر لكنا تخلصنا من شره.

قال أموس: الندم على ما فات لا يجدي نفعاً وأهم شيء علينا فعله الآن هو أن نسرع في المسير كي نخفي آثارنا عن

اللاحقين بنا وإن كانت السيدة تعبة فعلى كل منا أن يحملها في دوره أليس كذلك يا أموري؟

قالت أدال لا لا إنك لا تعلم أني أمشي بسرعة غريبة حتى أني أؤكد لك أني قادرة على مسابقتك يا ابن الغابات.

ـ هيا بنا إذاً.

وهكذا خف الجميع مسيرهم في تلك الأحراش الخضراء الهادئة. مشى الهاربون طول ذلك النهار في بطون الغابات دون أن يقفوا على أثر لمدينة أو قرية يدخلونها أم كوخ حقير يلتجئون إليه ولم يكن أمامهم سوى الأحراج المتواصلة بعضها ببعض تجري تحت أشجارها الكثيفة الغزيرة الجداول الفضية الرائقة. ولما أقبل المساء ولم يعرف لأصحابنا مكان صمموا النية على النوم تحت تلك الأشجار وما كان أعظم رعبهم وفزعهم في تلك الليلة ليس من الوحوش الضارية بل من الهنود والأميركيين الأصليين الملقبين «بالحمر» وكانوا كلما وجدوا «أبيض» أخذوه إلى قراهم وعذبوه على اختلاف الأنواع وأخيراً حرقوه حياً. وكانوا أبطالاً أشبه بالوحوش لا يخافون أحد ولا تعرف قلوبهم الرحمة والشفقة. باتوا تلك الليلة في الغابة وقد أوقد أموس ناراً عظيمة لترد عنهم البرد القارس ومازال سهراناً حتى انبلج الصباح فقاموا يأكلون شيئاً من الزاد الذي حملوه

معهم من السفينة وتابعوا مسيرهم وهم لا يعلمون إلى أين يذهبون.

وهكذا مضى النهار الثاني عليهم وقد أضناهم التعب وكان أموس يمشي أمام الجميع ويتبعه القبطان فأدال فأموري ولما كان المساء وقف أموس بغتة ووضع أصبعه عند أذنه قائلاً:

- اسمعوا.

قال القبطان: إني لا أسمع شيئاً.

قال دي كاتينا: ولا أنا.

فقالت أدال: بفرح بل أنا أسمع شيئاً، أسمع دق جرس - وقد اعتدت استماع دقّ الجرس في ساعة كهذه عندما كنت في باريس.

أجاب أموري: صدقت يا سيدتي إن هذا ما يسمونه جرس «صلاة التبشير» فهتف دي كاتينا: نعم إني أسمعه الآن وكان أخفاه عن سمعي تغريد العصافير. لكن كيف يمكن وجود جرس في بطن غابة كهذه؟

قال أموس: إننا لا نبعد عن المساكن الكائنة على ضفة النهر. نهر «الريشليو» وأظن أنه جرس كنيسة القلعة.

قلعة مار بولس إذاً قربنا من محل مقصدنا وهو قصر صديقي.

إذا كنت تثق به تماماً يا أموري يمكننا أن ننام بالقرب منه في هذه الليلة.

ـ نعم إني أثق به تمام الثقة وأؤمّنه على حياتي بدون تردد.

ـ حسن هذا إذاً اتبعوني بسرعة كي نصل إلى هنالك قبل هجوم الليل. لكن يخال لي سماع وقع أقدام. تعالوا نختفي خلف هذه الأشجار لنرى من يمشي في هذه الغابة في وقت كهذا. فاختفوا كما أشار لهم أموس وانتظروا بضع دقائق وإذا بشيخ يمشي الهوينا وهو قصير القامة شنيع المنظر يلبس ثياباً رثة يحمل على ظهره بقجة وإذ كان سائراً من جهتهم حانت منه التفاتة فرآهم فلم يظهر تعجباً أو استياء بل تحول عن طريقه ومشى نحوهم كمن أراد الاقتراب منهم ثم قال أموس: من هذا الرجل؟ يخال لي أنه ليس من الحمر بل لباسه يبرهن أنه شحاذ أجنبي.

لم تلبث أدال أن صاحت وهكذا كل من كان معها عندما وقع نظرهم على ذلك الرجل، وكان مرآه مريعاً جداً إذ لم يكن لرأسه قمة كرؤوس سائر البشر، ولم يكن ينبت الشعر به، بل كان أعلى الرأس قد قطع. وكان مكانه مكسو بجلدة ذات لون مخيف. وقد أضحت حافتها خطاً قاتماً يدور حول الرأس!

فهتف أموس لقد سلخت جلدة رأس هذه الرجل!

صرخ دي كاتينا: ويلاه أنظر إلى يديه!

فنظر إليهما الجميع ورأوا لا أثر للأصابع بهما، فقال افرام سافاج: إني رأيت أشكالاً غريبة في زماني، لكني لم أر بعد منظراً كمنظر هذا الرجل الذي لا جلدة رأس له ولا أصابع، كما أنه يظهر بأن إحدى عينيه قد قلعت ـ ليتني أقدر على معرفة جنسيته وعمره، ولغته. لكن ها هو قادم إلينا.

وإذا بالشيخ يقول: مساء سعيد يا أولادي، أظنكم من ساكني قصر سان لويس فاسمحوا لي أن أقول لكم بأن لا تتأخروا في هذه الغابة. إذ إن الليل في الأحراج مخطر جداً، للسيدات خصوصاً.

أجاب دي كاتينا: إنّا ذاهبون إلى قصر شارل دي لانو، سانت ماري ونود الوصول إلى هنالك بأسرع ما أمكن لكن يعز عليّ أن أراكِ مهشماً بهذه الصورة يا سيدي.

ـ إذاً لاحظت شيئاً من عذاباتي؟ ولكن لا بأس في ذلك لأن الذين عذبوني لم يفعلوا ذلك بسوء نية. لكنهم جهلاء لا يعرفون الخالق العظيم. وإني أسامحهم بسهولة لأننا جميعاً خطأة، وقد جعلوني باحتمالي بعض العذابات الجسدية أكفّر عن ذنوبي الكثيرة. فضلاً عن أنهم أبناء رعيتي. فسأله دي كاتينا من أنت إذاً يا سيدي؟

إني شخص وضيع حقير أدعى «انياتس مورات» من جمعية اليسوعيين وقد بعثني رؤسائي إلى هنا لنشر تعليمات الدين المسيحي القويم، ولا يخفى عليكم كل ما يقاسيه المرسلون من الهنود. لكني سبقت وقلت إننا لا نخاف العذاب، ولا نهاب الموت. بل نعمل الواجب علينا بسرور ونحمل إلى الجهلاء الإرشادات والنصائح اللازمة، وحبذا الاستشهاد بعد ذلك!

فتعجب أموري من هذا الكلام، وسأله:

- إلى أين أنت ذاهب الآن؟

- إني ذاهب إلى «كيبك» حيث أقابل أسقف هذه المدينة إذ عندي كلام أقوله له بخصوص رعيتي.

- وبعد ذلك أعود إليهم بلا شك؟

- إلى الذين عذبوك؟

- بل إلى حيث يسوقني الواجب.

فنظر دي كاتينا إلى أموس وقال: أموس إني أمضيت حياتي بين الأبطال. لكني لم أرَ رجلاً أكثر شجاعة من هذا.

أجاب أموس: وأنا أقسم لك بشرفي إني رأيت في زماني رجالاً أهلاً للقب الرجولية، لكني لم أجد بعد رجلاً أكثر رجولية وطيبة من هذا الشيخ.

فقال الشيخ بخجل: إياكما أن تقولا كلاماً كهذا، إن عيشتي بسيطة للغاية لا شجاعة فيها ولا طيبة.

ـ هل عندك زاد تعيش منه، أو سلاح تدافع به عن نفسك في ساحة الخطر؟

ـ أما الزاد فإن الله قد وضعه في هذه الغابات إذ إني اقتات من أعشابها، وأما السلاح فلا حاجة لي به.

ـ وما الذي تحمله على ظهرك إذاً؟

ـ هذا ما أسميه كنيستي إذ إني أحمل هيكلاً صغيراً، وكأساً، وثياباً وكل ما يلزم لتلاوة القداس. لكن لا تضيعوا الوقت معي أسرعوا بالسير إلى بيتكم، لكن قبل الوداع أود أن أعطيكم بركتي فشعروا بأن قوة عليا أثرت عليهم وجثوا جميعاً أمام ذلك الشيخ الجليل فرفع يده وباركهم قائلاً: فلترض عليكم السماء! ثم نهض وشكروه وافترقوا وهو يقول: الوداع، فليرافقكم الله، وليحميكم من كل خطر!

لما اقتربوا من القصر شعروا بأن ليلتهم ستكون سعيدة وأنهم سيلاقون السلام في ذلك البيت وإذا بجنديين واقفين على حدود القصر للحراسة وقد منعاهم عن الدخول، وسألاهم عن أسمائهم قال دي كاتينا إننا أصدقاء.

ـ ومن أين تأتون؟

ـ من كيبك.

ـ وإلى أين تذهبون؟

ـ إنّا ذاهبون لزيارة مسيو شارل دي لانو، سيد سانت ماري.

ـ إذاً تفضلوا. وإني أرى سيدة معكم، فإني أرحب بك يا سيدتي بالنيابة عن والدي وكان الذي يتكلم فتى إفرنسي الهيئة واللهجة، وأما الذي كان معه فكان يخال أنه من الكنديين، فتابع الأول كلامه أرجوكم المعذرة على سؤالاتنا هذه، إذ إننا نخشى دائماً قدوم الهنود لهذه البقاع، لا شك في أنك تعبة يا سيدتي، فإن والدتي تكون مسرورة بزيارتك، وأما شارل دي لانو فهو والدي. ثم وجّه كلامه إلى أموري قائلاً: يخال لي أني رأيتك قبل الآن يا سيدي.

ـ يخال لي أني رأيتك أنا أيضاً. أما أنا فاسمي أموري دي كاتينا ولا شك في أنك تدعى أشيل دي لانو. فانحنى أشيل وقال ربما لا تعرف صديقي هذا مشيراً إلى الرجل الواقف بالقرب منه، فاسمح لي أن أقدّمه لك: هو موريسون دي لاهوت الشهير! وكان اسم هذا البطل قد اشتهر لدى الجميع. وكيف لا وذكره يملأ قلوب الهنود رعبةً. وفهموا أن وجوده

هنالك ليس إلّا ليحمي القصر من خطر يتهدده. ثم كلّمه أشيل مشيراً إلى بصيص نار تراءت لهم عن بعد: ماذا تفكر في هذه النار التي تراها هنالك؟

قال دي لاهوت: إني لا أحبها.

ـ إذاً تظن بأنها إشارة إلى وجود بعض الهنود؟

ـ أجل.

ـ على أي شاطىء من النهر؟

ـ على الشاطىء القريب منا.

ـ ربما تفرقوا في الأحراج المجاورة للقصر. والحالة هذه فإنّنا في خطر جسيم.. لكن ما لنا ولهذه الأفكار المقلقة؟ دعنا نلاقي كل هم في حينه، والآن هلموا بنا إلى القصر يا أسيادي لترتاحوا من تعبكم.

دخلوا صحن الدار ورأوا ثلاثة صفوف من الرجال والنساء والأولاد قائمين حول كرسي عال وضع بينهم يجلس عليه شيخ جميل المحيا، عظيم الهيبة. عريض الكتفين. تبدو على وجهه ملامح القوة والشجاعة. وكانت ثيابه من المخمل الغالي الثمن. وكل حركة من حركاته تنبىء عن ذكائه المتوقد وشرف أصله، وامتيازه الرفيع. فأخذ ينظر إليه دي كاتينا ومن كان معه، وإذا بنظره محدّق بهم إذ شعر بأنهم غرباء فتقدمهم ابنه

يسير نحو أبيه وقال:

ـ أبت هذا هو مسيو دي كاتينا الذي التقينا به منذ عدة سنوات في «كيبك».

قال والده متعطفاً: أهلاً بك مسيو دي كاتينا وبحاشيتك وضعط على يد أموري. قال هذا: سيدي إن هذين الرجلين من أعز أصدقائي، ولا من حاشيتي كما تظن. فهذا صديقي مسيو أموس جرين وهذا القبطان سافاج. أما زوجتي فقد أرسل بها الآن ولدك العزيز إلى سيدتي امرأتك لأنها تعبة للغاية.

أهلاً بكم جميعاً، إني أذكرك جيداً يا مسيو دي كاتينا لأني لم أرَ في حياتي أكثر من رجل من أمثالك إذ إنك شجاع شريف. إني أذكر أيضاً أباك صديقي الأعز. كيف لا وقد خدم معي في معركة «روكروا» ولا يخفى عليك أيضاً أن أحد أولاد عمي قد تزوج بفتاة من عائلتك فأهلاً ومرحباً بك أيها النسيب العزيز!

قال هذا وأخذ دي كاتينا بين ذراعيه وضربه على كتفه ثلاثاً مداعباً.

فشعر أموري بفرح عظيم لترحيب سيد سانت ماري به وقال: أشكرك يا مولاي من صميم فؤادي لكنني لن أثقل عليك

بضيافتي، إننا قاصدون نواحي بحيرة (شامبلان) وأؤمل أن نكون قد ارتحنا من مشقة السفر بعد يوم أو يومين فنسير عندئذ في طريقنا شاكرين لطفك وكرمك.

ستعد لكم عدة غرف حيث تمكثون ليس يوماً أو يومين كما تقول. بل زمناً طويلاً. ذلك لأني منذ سنين لم أستقبل أحداً من أقربائي الذين يجري دمنا الشريف في عروقهم. وثق بأني أقاسي كثيراً من الوحشة في غربتي هذه، لأني لا أجتمع بأمثالي الأشراف. نعم إني كثيراً ما أجالس حاكم هذه البلاد الفرنساوي وبعض الكهنة والضباط، لكنهم من صغار الأشراف، فلا تحلو لي معاشرتهم.

ها أني أحدثكم وأنسى واجباتي، لا شك في أنك تعب وجائع يا مسيو دي كاتينا أنت وصديقاك فتعالوا إلى القاعة لنأكل قليلاً.

إني أذكر أيضاً بأنك تلعب الورق جيداً، وهذا يسرني، لأني مغرم في مثل هذه الألعاب، ولا شك في أننا سنقضي ساعات لذيذة وأؤمل أني سأغلبك أكثر من مرة.

وكان حر الصيف يتلاشى شيئاً فشيئاً. وأقبل الخريف بغزله وأشجانه. فصمتت الأصوات في الغاب وتوردت وجنات الأوراق الخضراء على الأشجار. وتمايلت الغصون دلالاً

لتعطف النسيم العليل إليها وحزن الجو لقرب الأمطار والثلوج فخلع حلّته الزرقاء النقية، وارتدى ثوباً رمادياً حديدياً كأني به ثوب حداد.

وكان ضيوف قصر سانت ماري يرون هذه التغيرات في الطبيعة والحزن ملء قلوبهم، نظراً لهمومهم وللأخطار التي تتهددهم. وبعد أن ارتاحوا من تعبهم اجمعوا الرأي على مواصلة سيرهم في اليوم التالي، قال أموس جرين:

لا بد من سفرنا الآن إذ عما قليل تتراكم الثلوج فيدركنا الهنود تابعين آثار أقدامنا في سيرنا.

قالت أدال: نعم، نعم هيا بنا إني لا أخشى الهنود ولا الأمطار، ولا الأخطار، ولا...

وبينما كانت تتكلم وقع نظرها على محيا زوجها وهو يبتسم لها كيفما تكلمت فخفت إليه وألقت بنفسها بين ذراعيه. وكان أموس والقبطان يتناقشان بأمر السفر. فأمسكت يد أموري وأخذت تلمس كلاً من أنامله مداعبة باسمة متلطفة كأنها رضيع بين يدي أمه وتمتمت قائلة: نعم إني لا أخشى شيئاً بقربك يا أموري، لأن حبك يلاشي عذابي. والسهر على راحتك ينسيني الحرص على حياتي، فإن مت كفاني أغماض يدك لجفني،

وإن مت أنت أموت معك فعلام الخوف والفزع! هيا بنا إلى الأقاليم الانكليزية فهناك نعيش بسلام وأمان. أما هنا فالخطر يتهددنا في كل حين، إذ لا بد من رجوع ذلك الراهب إلينا، يحمل أوامر بعودتنا إلى باريس.

فخذني يا أموري وسر بنا إلى الأقاليم «الانجليزية».

وكان هذا الفكر يعذب أموري جداً حتى أنه كان العامل الوحيد الذي يدفعه للسفر. أما سيد القصر وابنه فلم يكن لهما معرفة بما يدور في خلدهما لأنهما كانا يجهلان بأنه بروتستاني هارب من فرنسا، ولذا ألحّا عليه كثيراً بالبقاء.

قال مسيو دي لانو: إن قصري هذا حقير لكن قلوبنا مفعمة حباً لكم يا دي كاتينا، فابق عندنا إلى أن ينقضي فصل الشتاء، ويتنفس الربيع بالأزهار، ألا تشعر نفسك هنا في بيتك بين أصدقاء مخلصين لك؟

قالت مدام دي لانو: إذ رأت دي كاتينا مصراً على السفر، أو على الأقل أترك لنا زوجتك هنا، إني ابنة هذه البقاع، وآعلم حق العلم أن الغابات مملوءة بالأخطار فلا تعجب إذ رأيت أوراق الأشجار حمراء إذ إنها ترى دم القتلى يجري تحتها في كل يوم.

فكان لهذه الكلمات الرهيبة وقع عظيم في نفس أموري. فحملق بحبيبته طويلاً، وقال والحب والحزن يتنازعان فؤاده: ترى ماذا عليّ أن أفعل؟ بودي أن أقضي فصل الشتاء هنا. لكن ثق يا سيدي أن أسباباً شخصية تحول بيني وبين ما أتمناه من صميم الفؤاد.

فوجّه سيد القصر كلامه إلى دي لهوت قائلاً:

ـ أنت شجاع والصديق المخلص. بماذا تشير إلى صديقنا هذا؟

فأطرق دي لاهوت هنيهة وأجاب: إن الأخطار محدقة بنا من كل جهة إلا أن السفر براً أقل خطراً من السفر بحراً.

فاذهب غداً مع أصدقائنا وأوصلهم إلى مكانهم سالمين إن شاء الله. لكن الأفضل أن تبقى السيدة هنا.

فهتفت أدال: اتفرقني عن زوجي وتأخذه بعيداً عني؟ لا. لا.

فدنت منها مدام دي لانو مطيبة خاطرها: الأفضل أن يكون الأمر هكذا أيتها العزيزة أنت تجهلين الخطر في الغابات. فالأوفق أن يذهب زوجك مع دي لهوت وصديقيه أولاً ثم يعود أحدهم فيأخذك إليهم وهكذا صار. بعد أن أخذوا

توصية من مسيو دي لانو إلى حاكم بواتو ودعوا الجميع في صباح يوم جميل وساروا في الغاب بينما كانت أدال تفكر في أنها ربما لن ترى بعد حبيبها في غير أحلامها ودموع الألم والمرارة تسيل على خديها.

وكانت المسافة بين قصر دي لانو و «بواتو» نحو اثني عشر ميلاً بحراً وضعف ذلك براً. فمشى المسافرون في الغاب يتقدمهم دي لهوت ويعقبه دي كاتينا فالقبطان، فأموس جرين. الواحد بعد الآخر وبندقية كل منهم إلى جنبه. وكان دي لهوت ينظر يميناً وشمالاً، ويدقّق النظر في الأرض كمن يبحث عن آثار أقدام. وظلوا على هذه الحال حتى منتصف النهار، وكانوا قد قطعوا نصف المسافة تقريباً فجلسوا تحت شجرة للراحة ومناولة الطعام، وبعد برهة نهضوا لمتابعة سيرهم مضت ساعة أخرى من الزمان دون أن يسمعوا ما يزعجهم أو يروا ما يرعبهم. وكان الجو صافياً وزرقة السماء في منتهى الجمال، وأشجار الغاب تدلي عليهم أغصانها النضيرة لتقيهم من حرارة الظهر لكن أنّى للفكر التلذذ بهذه المناظر والقلب مملوء رهبة وحيرة! ولم تكن لحظة حتى أشار إليهم دي لهوت بالوقوف وجثا في الحال، وأدنى أذنه من الأرض، ثم نهض يهز رأسه فسأله أموس: هل سمعت شيئاً؟

فلم يجب، بل وضع أصبعه على شفتيه مشيراً بالسكوت.

وجثا على الأرض ثانية يتسمع ثم نهض يقول سيروا بشجاعة:

ـ هل من خطر؟

ـ الهنود...

ـ أمامنا؟

ـ لا بل خلفنا.

ـ وهل المسافة بيننا وبينهم بعيدة؟

ـ نحو مئتي قدم.

ـ وكم عددهم؟

ـ أظنهم اثنين.

ـ وماذا نفعل؟

ـ نتبعهما عوضاً عن أن يتبعانا.

وعادوا سائرين بين الأشجار الكثيفة، وهم يتركون طرَيقاً ويتبعون أخرى حتى وصلوا ثانية إلى حيثما كانوا قال دي لهوت هذه آثار أقدامنا.

قال أموس: نعم لكني أرى بينها آثار أخرى أعرفها حق المعرفة هي آثار أقدام الهنود.

ـ صدقت إن رجلين مرًا على هذه الطريق بعد أن

اجتزناها، ولا شك في أنهما على إثرنا الآن فالأوثق لنا أن نختفي وراء هذه الأشجار وننتظر وقوع الحوادث.

فوقفوا صامتين وراء شجرة عظيمة. وظلوا هنالك نحو عشر دقائق وكان كل منهم يعد دقات قلب رفيقه. فلم يسمعوا صوتاً ولا وقع أقدام. قال دي لهوت قد اختفيا كما اختفينا

- هل رأيتهما؟

- كلا، إلا إني واثق بفعلهما هذا.

- وهل لهما علم بوجودنا هنا؟

- لا أدري إذ ليس بوسعهما أن يريانا، لكنهما يعلمان أنّا اختفينا كي نفتك بهما، فهما على حذر هيا بنا نتابع سيرنا.

- وإذا اتبعانا؟

- لا أظنهما فاعلين. هما اثنان ونحن أربعة لكن حيث ترى اثنين من الهنود: ثق بوجود مئات منهم على مسافة قريبة.

فهتف أموري: الحمد لله الذي ألهمني على إبقاء أدال في قصر دي لانو؟

وكان دي لهوت يتمتم ها هما تابعان لنا ثم همس في أذن أموري: «افعل كما أفعل أنا» وخلع حذاءه وأعطاه إلى أموس! ففعل أموري كذلك وحمل كل منهما بندقيته على ظهره. ثم

قال دي لهوت والآن يجب أن ننقسم إلى قسمين أنت أيها القبطان تمشي مع أموس على رجليك فقط أما أنا ودي وكاتينا فنمشي على يدينا ورجلينا.

سيرا أنتما في طريقكما ونحن نختفي وراء تلك الأشجار فتبعه أموري إلى حيث أشار ولم تكن برهة إلّا وسمعه يقول: إني أرى خيالهما، إياك أن تتحرك ورأيا على بعد بعض خطوات منهما شبحين: الأول منهما طويل القامة، ضخم الجسم، يملأ الشعر وجهه وجبهته، وعيناه البراقتان تقدحان شرراً كأنهما جمرتا نار، وهيئته أقرب للحيوان المفترس من الإنسان الشرير. وكان يمشي بسرعة عالي الرأس، مخيفاً، مهوّلاً، وعيناه المريعتان تنظران بغضب إلى ما حوله. فمر أمام دي لهوت ودي كاتينا من دون أن يراهما، فاطمئنا نوعاً. إلا أنهما رأيا وراءه فتى يشبهه كل المشابهة مع أنه لا يتجاوز الرابعة عشر من سنيه وكان الفتى ينظر إلى جهتهما بإمعان وما لبث أن خفّ إلى رفيقه وأنبأه بوجود أحد بين تلك الأشجار. فأرسلت عيناه نوراً جهنمياً وانقلب راجعاً إليهما، فأسرع دي لهوت محكماً بندقيته وأطلق النار، فوقع ذلك الرجل المخيف كالصاعقة يختبط في دمه القاتم اللون. وهو يضرب الأرض بيديه ورجليه، وما عتم أن ضحك ضحكة طويلة عالية،

مريعة، فلما رآه الفتى على هذه الحال، أسرع يجري في الغاب لكن لم تكن لحظة، إلا وسمعا إطلاق نار يتبعه صراخ وأنين قال دي لهوت مسروراً: نحن قتلنا الأب وأحد صديقينا قتل الابن.

وإذ بـالقبطان وأموس أمامهما، فسأل القبطان: من كان يضحك هكذا؟

أجاب دي لهوت مشيراً إلى المائت: هذا هو الذي ضحك والضحك عند تسليم الروح عادة قديمة عند الهنود. قد مات هذا الجبار المهول، وقد كان رئيس قبيلة عظيمة من أبناء جنسه. وأما الفتى الذي قتلته أنت أيها القبطان فهو ثاني أولاده، لكن قبيلته لن تدع دمه يهرق دون أن تأخذ بثأرهما ولذا أصبح الخطر المحدّق بنا أعظم مما كان...

ثم دنا من القتيل وقال: قلت لكم إنه كان رجلاً عظيماً ورئيس قبيلة، وهذا شاهد حق على قولي.

قال هذا وأراهم قلادة في عنقه شكت من أصابع الآدميين. واستتلى كلامه: كل واحدة من هذه الأصابع تمثل حياة، فإني أرى ٤٢ أصبعاً منها ١٨ بأظافرها و ٢٤ بلا أظافر وهذا معنوي، أما الظفر فيعني أن صاحبه قتل كما قتلنا الآن هذا الرجل وعدم وجود الظفر يعني أن صاحبه أحرق حياً.

فارتجفت أعضاء دي كاتينا وأطرق متكئاً على بندقيته، فقال له دي لهوت: إنك لجندي باسل يا صاح فما لي أراك ترتعش؟

- إني تعب قليلا أعطيني جرعة من الكونياك.

- بطيبة خاطر. خذ اشرب ولا تخف، أما أنا فإني مزمع على أخذ هذه القلادة معي إلى القصر كغنيمة أتينا بها من سفرتنا هذه.

وقطع القلادة من عنق القتيل ووضعها في جرابه، ثم تناول أيضا بندقيته وحملها على كتفه وقال: هيا بنا نعود إلى أصدقائنا، لكن فلنسترح قليلا بقرب النهر، وإذا تبع أثرنا الأعداء يظنون بأنّا اجتزنا النهر! وربما مضينا الليل هنا. وتوجهوا جميعا إلى شاطىء النهر وجلسوا يأكلون ويتحدثون بما جرى لهم في ذلك النهار. وما غابت الشمس إلا وكان دي لهوت غارقاً في سبات عميق وبعد برهة نام أموس وصديقه القبطان، إلا أن أموري لم ينم.

لماذا تشعين في الزرقاء أيتها الكواكب؟ إن الحزين ينظر إليك من غير أن يراك. وأنت أيتها المياه الغزيرة. إن المعذب لا يصغي إلى أسرار أنغامك الشجية. فاخفضي صوتك اجلالاً للظلام مانح الرقاد، ومعطي السكينة والأحلام ولكن أنّى

للمحب رقاد وهو منشغل في مناجاة من يهواه بالروح.

فكّر أموري طويلاً في حالته وراجع في مخيلته كل فصول حبه وعذابه وإذ خطرت فتاته البعيدة عنه على باله أغمض عينيه هنيهة ولفظ بتأن اسمها المحبوب الذي يحوم دائماً على شفتيه كما تحوم صورتها في فؤاده.

أدال!

وإذ بنداء لهوت يناديه:

ـ ألم تنم بعد؟

ـ لا لم أنم.

ـ ألم تسمع شيئاً؟

ـ لا لم أسمع سوى نعيق الغربان.

ـ أما أنا فقد سمعت في نومي إطلاق نار من بعيد فانتبهت.

ـ قلت سمعت ذلك في نومك؟

ـ نعم لأني أسمع في النوم كما أسمع في اليقظة.

ـ يا لك من رجل غريب عجيب.

ـ إني لمتأكد بأن هذه الغابات مملوءة من الهنود ولا أدري كيف سلمنا من شرهم إلى هذه الساعة. إن قائداً عظيماً كالذي قتلناه لا يسير في الغابات مقتصاً عن الأثر إلا لغاية عظيمة

مخيفة وربما أضمر شراً لأحد القصور القائمة على شاطىء النهر. فلننبه صديقنا الآن وهيا بنا نعود.

مشوا وكان دي لهوت يسير بهم في طريق مؤدية إلى قصر مسيو دي لان، أحد أصحاب مسيو دي لانو حتى إذا داهمهم سوء يمكنهم الالتجاء إلى بيت صديقهم هذا.

وبعد مشي ساعتين تقريباً في ذلك الليل الدامس، قال دي لهوت ها أننا الآن في أراضي القصر وإني لمتعجب كيف لم نلتق بعد بأحد من رجاله، مع أنه يضع دائماً حرساً على حدوده حتى يشيروا إليه كلما دخل أحد أراضيه.

وكان الظلام ينقشع شيئاً فشيئاً لقرب الفجر، فقال أموس إني أرى أشباحاً هنالك فلنذهب تواً إليهم!

مشوا برهة قاصدين الأشباح لكن هؤلاء ظلوا واقفين في أماكنهم لا يبدون حركة فأظلمت جبهة دي لهوت وأشار إلى الأمام سائلاً: رباه! أين القصر؟ لا بد أن يكون قد أحرقه الهنود في هذين اليومين لأني لا أرى له أثراً ولم يبق حجر من حجارته ليدل على المكان الذي كان القصر قائماً عليه.

وكان تأثير هذا الخبر عظيماً عليهم حتى أن دي لهوت نفسه الذي كان قد اعتاد على الأخطار منذ حداثته، شعر برعشة

خوف فأخذ يركض هو ورفاقه نحو تلك الأشباح الساكنة.

وكانت تلك الأشباح رجال مسيو دي لان ومسيو دي لان نفسه. قد ربط كلاً منهم على شجرة بأغصان لينة، وقطعت أرجلهم حتى الركبة وأعينهم دافقة من محاجرها بهيئة شنيعة منكرة. ولحمان جسدهم ممزقة كثياب بالية. فلم يحتمل دي كاتينا النظر إلى هذا المشهد المريع فاختبأ خلف شجرة وألقى رأسه على يده ونفسه حزينة حتى الموت!

أما دي لهوت فجثا على ركبتيه رافعاً يديه نحو السماء، وتمتم صلاة حارة بينما كان افرام سافاج وأموس جرين ينظران شزراً تارة إلى بنادقهما، وطوراً إلى ما حولهما. ثم نهض دي لهوت ناظراً إلى تلك الجثث الهامدة التي ذاقت أمر العذابات في نزاعها، وقال لا أرى أثراً للنساء والأولاد ربما أخذوا الأولاد ليحرقوهم في ضيعهم وربما حفظوا النساء لخدمتهم الشخصية.

قال أفرام سافاج: فلنلحق بهم ونخلص هؤلاء الأبرياء من أيديهم الشريرة.

فضحك دي لهوت بمرارة وقال: إنك شجاع يا صاح لكن لا تنسَ أننا أربعة وأن الهنود يعدون بالمئات بل الألوف ثم علينا أن نسرع إلى سانت ماري ونخبرهم بالخطر المحدق بهم.

قال دي كاتينا كمن أفاق من نوم عميق: سانت ماري؟ هل من خطر على سانت ماري؟؟

لا شك في ذلك. إن هذه الفظائع جرت ليلة أمس، ونهار البارح تبعنا في الأحراج قائدهم الذي قتلناه وكانوا ينتظرون رجوعه هذه الليلة المنصرمة فاليوم يجدون جثته وجثة ولده. فيداهمون قصر سانت ماري في هذا المساء فلنعجّل إذاً في سيرنا.

ساروا بجد واجتهاد وهم لا يتلفظون بكلمة فرأوا ناراً عن بعد وسمعوا أصواتاً محزنة تتألم وتلتمس المساعدة ففهموا أنها أصوات النساء والأولاد في معسكر الهنود. وكان الهنود يسيرون أفواجاً أفواجاً في الغابات، وهؤلاء يستترون بين الأشجار الكثيفة عندما يرونهم، حتى وصلوا إلى حدود الأحراج الكائنة بقرب أراضي سانت ماري، فالتفت دي لهوت وخاطب رفاقه قائلاً: أتعلمون ماذا يجب أن نفعل قبل أن نخرج من هذه الغابة؟

ـ ماذا نفعل؟

ـ إن الريح شديدة في هذا الصباح تعصف عائدة على معسكرهم فيجب أن نضع ناراً في الغابات، يجب أن نحرق أعداءنا.

ـ صدقت إن فكرك هذا لمن أحسن الأفكار التي تخطر على بـال إنسان.

فأعدوا حزماً عـظيماً من الأغصان الناشفة وفرقوها في عدة أماكن وأوقدوها وأسرعوا متوجهين نحو القصر ثم نظروا إلى الوراء وإذا باللهيب والدخان يملآن الفضاء كأن السماء تحترق بكليتها ففرك دي لهوت بيديه وقال: سيموت كثيرون منهم في هذه الحريقة وينجو قسم كبير أيضاً لأنهم يهربون إلى الشاطىء الثاني على مراكبهم التي تراها دائماً مستعدة في الريشليو.

ولما وصلوا إلى القصر وجدوا كل من كان هنالك واقفاً ينظر إلى مشهد الغابات الغريب ويتساءلون من أين أتت هذه النار، وعندما رأى مسيو دي لانو دي كاتينا بسط له يده بسرور هاتفاً: أهلاً بك يا سيدي إني سعيد برؤيتك سالماً تحت سقف بيتي، ومتى أكلت وارتحت من تعبك تراني أنتظرك في القاعة حيث نلعب الورق.

فقاطعه دي لهوت: عندنا تلسية أخرى أهم من لعب الورق اليوم يوجد في الغابات نحو ٦٠٠ هندي وسيهاجموننا في هذا المساء بلا شك. إن صديقك دي لان يا سيدي قد مات هو وكل من في قصره وأمّا القصر ذاته فلم يبق له أثر.

فارتعش مسيو دي لانو لكنه تمالك نفسه لأنه كان جندياً

يفتخر بملاقات أعظم المصائب بوجه باسم فقال: قلت أنهم ماتوا جميعاً؟

ـ لم يبق منهم أحد.

ـ وأحرق القصر؟

ـ لم يبق منه حجر.

ـ وكيف تخلصتم أنتم من الهنود؟

ـ تخلصنا منهم، لكنهم لم يسلموا من شرنا لأننا قتلنا قائدهم وابنه. وأحرقنا الغابات كما ترى كي نشتت شملهم.

ـ حسناً صنعت يا دي لهوت. هل أنت تعب؟

ـ لا أظنني تعباً لأني مستعد للسفر مرة ثانية كما لو كنت مرتاحاً منذ عدة أيام.

ـ إذاً خذ معك بعض رجال وعد إلى الأحراج عساك أن تكتشف شيئاً مما يضمره لنا هؤلاء الأشرار.

ـ سأذهب بعد خمس دقائق.

ـ جيد ونحن نحضّر كل شيء في غيابكم ثم التفت إلى أدال قائلاً: سيدتي إني آسف حدوث هذه القلاقل إبان زيارتكم لي. لكننا ننهي كل شيء بالسلامة، ونقتل هؤلاء الأشرار لنريح أراضينا من جيرتهم المشؤومة.

بعد ساعة من الزمن امتلأ قصر سانت ماري من رجال القصر وعائلاتهم فحملت النساء أولادها إلى قاعة من الطابق الأسفل ووضعت هناك بعض النساء لملاحظتهم. أما البواقي، فبعد أن نقلن من بيتهم إلى القصر أغلى وأثمن ما لديهن من الذخائر جلسن لمراقبة العدو وحشوا البنادق الفارغة. ثم أحضرت المراكب والفلائك المختصة بسانت ماري، وكانت راسية في النهر تحت نوافذ القصر متأهبة للسفر إذا قضت الحاجة بذلك.

قال أموس جرين إلى سيد القصر تقول إنه على الشاطىء الثاني يوجد قصر سان لويس وهو بيت أحد أصدقائك، وها أن المراكب جاهزة فلماذا لا تبعث بالسيدات والأولاد إلى هنالك فتأمن على حياتهم.

بودي أن أفعل ذلك لكن لا يمكنني إرسال رجال لحراستهم إذ إن عددنا قليل جداً، ٥٢ رجلاً لمقاومة مئات من الهنود. ومن جهة أخرى لا أجسر على إرسالهم بدون رجال خوفاً من الهنود أنفسهم فربما ملأوا الماء كما ملأوا الغابات.

ـ صدقت.

أما أنت يا مسيو دي كاتينا فخذ هؤلاء الخمسة عشر رجلاً وحافظوا على الجهة الغربية ودي لهوت ورجاله يحرسون الجهة

الشرقية، وأنا ومن معي ندافع عن الشمال ويكفي خمسة رجال لمراقبة جهة النهر.

ـ جيد، وهل عندك قسم وافر من القوت والبارود؟

ـ عندي منه شيء كثير، فلا تخف من هذا القبيل.

أما أموس، فأخذ كيساً كبيراً وملأه بارودا وأسرع به إلى تحت الأشجار الكائنة أمام القصر ووضعه على الأرض وستره بالتراب والأغصان اليابسة حتى أن رؤيته لا توهم الهنود، ثم عاد إلى البيت واضعاً يده في جيبي بنطلونه، وهو يغني أنشودة صيد حماسية، وفرح كثيراً بصنيعه هذا الذي لم يكن يدري به أحد، إذ تأكد من أنه سيذهب بحياة كثيرين من الهنود.

سأل سيد القصر ألم يعد دي لهوت بعد؟

أجاب أحد رجاله وكان يدعى جان: سمعنا إطلاق نار منذ دقائق قليلة يا سيدي، وربما كانت هذه إشارة بأنه عائد في الحال.

ـ هل تريد أن تنام قليلاً يا مسيو دي كاتينا؟

ـ لا، لا أقدر.

ـ إذاً ماذا نفعل لقتل الوقت؟ تعال نلعب الشطرنج.

فذهبا إلى القاعة وأخذ مسيو دي لانو يلعب باجتهاد كأنه

لم يكن عالماً بالخطر الذي يتهددهم. وأما أموري فلم يجلس للعب الاّ ليرضي صديقه هذا إذ إنه كان حزيناً جداً رغماً عن حضور أدال بالقرب منه وكانت يدها تلامس يده. وكانت مدام دي لانو تسير من نافذة إلى أخرى ناظرة تارةً إلى الأحراج وطوراً إلى النهر، وبعد برهة قالت لزوجها: أرى رجالاً آتين من الأحراج.

وفي الوقت ذاته دخل دي لهوت يتبعه رجاله وهو يقول:

ـ أتوا هيا بنا للحرب.

ـ قال سيد سانت ماري: وكم عددهم؟

ـ لا أدري، إنهم لا يقلّون عن الألف، وقد قتلنا خمسة منهم يلزمنا شجاعة عظيمة لأن كل واحد منا عليه بمقاومة ثلاثين من هؤلاء الوحوش الضارية.

لا شك في ذلك ثم إن مدافعنا تفتك بهم قبل أن يجتازوا النهر إذا أرادوا الهرب.

أحاط الهنود القصر من الجهة الشرقية، فاشتعلت نار القتال وصارت أصوات البنادق تدوي في ذلك الفضاء، والمدفع يدوي فوق رؤوس الأعداء ويصب عليهم النار والموت لكنهم تنحوا عن ذلك المكان، وأتوا جهة أخرى

يطلقون ناراً على أهل القصر ويقتلون الواحد منهم بعد الآخر.

فقال مسيو دي لانو إلى دي لهوت:

ـ بماذا تفتكر بكل هذا؟

ـ لا أرى العاقبة حسنة لأنه قد مات كثير من رجالنا.

ـ إذاً لم تكن تنتظر موت أحد منا عندما ترى ألف محارب يضربون بيتاً صغيراً كهذا.

أنظر رجلاً آخر يموت من أحسن رجالنا، مسكين هو.

قال هذا عندما رأى أحد رجاله الواقف بالقرب منه واقعاً على الأرض يختبط بدمه. فمال عليه يلمس يده، فوجدها باردة فقال: لقد مات! ثم تناول بندقيته وأطلقها على أحد الهنود الذي كان جالساً على شجرة يراقب حركاتهم، فهوى ذلك الرجل إلى الأرض، لكنه نهض يمشي على رجليه فأطلق لهوت عليه بندقيته قائلاً: خذها هذه المرة بدون خطأ. فصاح الهنود صيحة عظيمة، وكانت تزداد قوتهم وحماستهم عند موت أحدهم، فيهجمون على القصر كأنهم وحوش كاسرة.

قال دي لهوت إلى مسيو دي لانو: أنظر إلى ذلك الرجل الذي يمشي الهوينا في الوسط، وعلى رأسه قبعة رمادية اللون، هذا هو قائدهم الأعظم فإذا قتلته أفتخر بذلك كأني قتلت مئة

من أحسن الهنود، وأكثرهم بطشاً.

ـ هل هو باسل إلى هذا الحد؟

ـ نعم، إنه لباسل. وإلاّ فلا يجعلونه قائداً لهم. صوّب بندقيته نحوه لكن الرصاص خرق قبعته فقط، ولم يؤذه قط.

فنظر إليه القائد بازدراء، وعاد يمشي الهوينا بين رجاله.

وإذا بصوت مريع يصيح في القصر. فأسرع مسيو دي لانو إلى جهة الصوت فوجد زوجته ملقاة على جثة وحيدها. فظهر شيء من التأثر على وجهه رغماً عن قوته لامتلاك عواطفه، ثم قال وصوته يرتجف قليلاً: إن ولدي مات بشرف في ساحة القتال، كما مات كثيرون من رجال عائلته قبله.

وكان القتال قد احتدم في الجهة التي وضع فيها أموس كيس البارود، ففرك أموس يديه فرحاً وقال في نفسه: ها أن ساعتي أتت. وأطلق بندقيته أولاً وثانياً وثالثاً، على موضع الكيس فانفجرت الغبراء، وتصاعد منها لهيب مخيف كأنه نبع من نار وكان الهنود يصيحون صيحات الألم والنزاع بينما كان أهل القصر يهتفون هتاف الظفر. وكان الهنود قد خسروا قسماً عظيماً من أحسن رجالهم فعزموا على الابتعاد من القصر مؤقتاً للراحة ولطلب نجدة أخرى لمساعدتهم، فأخمدت النار،

وحملوا بنادقهم سائرين نحو الأحراج، فقال دي كاتينا بفرح: ها إنهم قد أقلعوا عن عزمهم بقتلنا، إنك خلصتنا يا أموس بفعلك هذا.

فهزّ دي لهوت رأسه قائلاً: هذا لا يمكن أبداً.

ـ كيف لا يمكن؟ إنهم خسروا عدداً وافراً من الرجال.

ـ نعم، لكن خسرانهم مهما كان وافراً لا يضاهي ربع ما خسرناه نحن بل إنهم ذاهبون يتشاورون في ما سيفعلون وثق بأنهم لا يلبثون حتى يعودوا إلى هنا لكن ربما مضت بضع ساعات قبل أن تشتبك الحرب ثانية فيمكننا والحالة هذه أن ننام ونرتاح قليلاً.

وكان كل منهم تعباً. فالتف أموس بردائه وكذلك فعل أفرام سافاج. وما مضت بعض دقائق حتى سمع شخيرهما أما دي كاتينا فذهب إلى أدال التي كانت ترتجف خوفاً وشجعها ببعض كلمات حبية ثم ألقى بنفسه على فراشه ونام نوماً طويلاً خالياً من الأحلام. وكان المساء قد أقبل عندما استيقظ من نومه، وسمع إطلاق سهم ناري فنهض للحال وذهب إلى أصدقائه فوجدهم يتناقشون في أمر الهنود، ومدام دي لانو لا تزال بقرب جثة ولدها، ولم تكن فارقته بعد لحظة واحدة.

فسألهم ما الخبر؟ هل عاد العدو؟

ـ إنه لم يعد بعد لكننا نراهم آتين من حدود الأحراج. وربما قصدوا إحراق القصر.

قال مسيو دي لانو: عندنا ٢٥ امرأة وأربعة عشر طفلاً فلنفكر إذاً بواجباتنا نحوهم. إني لا أرى مراكب للهنود في النهر اليوم فلا مانع إذاً من إرسالهم إلى قصر سان لويس حيث يمكثون بأمان.

قال دي لهوت: حسناً تفعل إذا أرسلت رجالك أيضاً وذهبنا جميعاً إلى هنالك لأني أرى من رابع المستحيلات مقاومة الهنود بعددنا الصغير.

فتمتم الجميع نعم. نعم مشيرين إلى ارتياحهم لهذا الفكر، إلاّ أن مسيو دي لانو هزّ رأسه سلباً وأجاب: كيف يترك هذا القصر الفخيم العزيز ونهرب أمام شرذمة من الهنود؟

كلاّ إن هذا لن يكون أبداً! إنما نرسل النساء والأولاد في هذا المساء ويخبرون أهل قصر سان لويس بما جرى لنا فيرسل إلينا نجدة تساعدنا على الفتك بهؤلاء الأشرار.

فتنهّد دي لهوت وقال: افعل ما بدا لك يا سيدي وأنا أبقى بقربك وأدافع عنك وعن بنيك إلى آخر نسمة من حياتي. لكني أرى أنه لا يجوز تضحية رجال كثيرين دون أن نتأمل بالحصول على نتيجة. . .

لا يوجد عندنا سوى أربعة قوارب ومركبين، وهي تكفي بالكاد لحمل النساء والأولاد، فلا يبقى محل لرجل واحد.

فقال دي كاتينا: إذاً لا حاجة لنا للمناقشة بهذا الموضوع. لكن من يجذّف بهذه المراكب الصغيرة؟

ـ إن المسافة للقصر المجاور قريبة جداً، وإن نساءنا لأنشط منا في إدارة المجاذيف.

قال أموس: إن الحظ يخدمنا. ها إن السماء تتلبد بالغيوم وسيكون الظلام حالكاً جداً، فلن يستطيع الهنود.رؤية المراكب السائرة.

اجتمعت النساء، وأخذت الأمهات منهن أولادهن. فدنا أموري من زوجته وقال بصوت هادىء: إن المكان قريب جداً يا أدال، مسافة ساعة تقريباً، فلا تخافي.

ـ لكني أرفض الابتعاد عنك. أريد أن أكون بقربك دائماً كي أنسيك همومك بقبلاتي وحبي. لا تفصلني عنك يا أموري.

ـ سيري أيتها العزيزة، وقولي لمن في القصر أن يبعثوا إلينا بخير رجالهم.

ـ دع باقي السيدات يفعلن هذا، وأنا أبقى معك أرجوك...

ـ لا تلحي عليّ بذلك يا فتاتي المحبوبة، لأني لن أسمح لك به. إني أشعر بشجاعة وقوة عظيمتين عندما أثق تماماً أنك سالمة آمنة. أما أنا فلا خوف عليّ سأسير إليك بأقرب الأوقات.

فصمتت أدال إذ لم يكن بوسعها سوى أن تطيع، لكنها ضغطت يدها على ساعده بينما كانت الدموع تسيل من مقلتيها.

فأخذ يطيّب نفسها ويشجعها، وإذا بصوت أحد المراقبين في النوافذ يقول : إني أرى قارباً صغيراً رسى بقرب القصر.

فارتاع الجميع لهذا الخبر، وظنوا أن الهنود قد استولوا على الماء أيضاً. لكن ما لبث المراقب أن قال: لا يوجد في هذا القارب أكثر من رجل واحد، وأظنه راهباً.

قال رفيقه: إنه يسوعي واليسوعيون يوجدون دائماً بقرب الخطر، قال آخر لا بل إنه فرنسيسي. ألا ترى برنسه؟

وبعد برهة دخل الراهب إلى القصر ونظر شزراً إلى الواقفين حوله ثم دنا من أموري ووضع يده على كتفه قائلاً: أرأيت أنك لا تقدر أن تهرب مني؟ ها إني التقطتك أيتها البذرة الخبيثة قبل أن يفسد زرعك الأرض الطاهرة.

قال مسيو دي لانو: ماذا تعني بهذا الكلام يا أبتاه؟ إن الشاب الذي تخاطبه بهذه اللهجة لهو صديقي أموري دي كاتينا ابن عائلة افرنسية شريفة الأصل.

ـ نعم هذا هو أموري دي كاتينا الكالفينست الكافر. وقد تبعته إلى سان لورانس وإلى الريشليو، وإلى هنا وسأتبعه إلى آخر الدنيا إذا لزم ذلك كي أقبض عليه وأرجعه معي.

ـ إلى أين ترجعه معك؟

ـ إلى فرنسا حيث سيعود هو وزوجته إذ لا محل للكفار في كندا.

فضحك دي لهوت وقال: إذا كنت تأخذنا جميعاً معك إلى فرنسا اليوم يكون شكرنا لك عظيماً.

قال مسيو دي لانو بقساوة: أذكر أيها المحترم أنك تحت سقفي وإني لا أسمح لأحد بإهانة ضيوفي ومخاطبتهم بهذه اللهجة.

فأخرج الراهب ورقة من جيبه وقال: أنظر إلى هذا إنه أمر أتيت به من الحاكم لتسليم ضيفك وإرجاعه إلى «كيبك».

ثم التفت إلى أموري وقال: لقد وجدتك هذه المرّة لن أتركك إلا في فرنسا بين يدي الملك.

فابتسم أموري ابتسامة تمازجها المرارة: إنك بفعلك هذا ايها الأب برهنت على كونك جندياً قوياً، لكني لا أرى في مغاملتك الحب والشفقة اللذين أمر بهما الإنجيل. فسنرى في هذا الآمر عندما ننتهي من همومنا الحاضر.

وكانوا قد رأوا ناراً على مسافة غير بعيدة من القصر، فقال دي لهوت: ها إن الهنود قادمون إلينا، فيجب أن تسير المراكب في الحال.

شعرت أدال أن أموري يضمها إلى صدره وقد أودعت شفتاه خدها قبلة محرقة. وبعد برهة وجدت ذاتها في المركب بقرب مدام دي لانو فساروا على وجه الماء بينما كانت الغيوم تتفجّر والمطر يسيل بغزارة من كبد الجو.

فقال دي لهوت: شكراً لله على هذه الزوبعة.

لكن النار عظمت جداً في الغاب وامتد شعاعها على النهر فانجلت فيه المراكب، فتضعضع أهل القصر ورأوا عدداً وافراً من الهنود يستعد لركوب الماء والإلحاق بالمراكب السائرة.

فقال مسيو دي لانو: إنهم سيمرون أمام القصر إذ لا طريق آخر لهم، فأطلق عليهم المدفع يا دي لهوت ودعه يمحي آثارهم الرديئة.

دوّى صوت المدفع الرهيب في ذلك الليل الدامس وفتك بالمركب الأول، إلا أن المركب الثاني نجا وسار على وجه الماء كطير سابح في الفضاء فصاح أموري:

ـ رباه، ! إنهم لاحقون بالنساء ولا شك في أنهم سيقبضون عليهن، هيا بنا نلحق بهم ونخلّص نساءنا من أيديهم!

قال مسيو دي لانو وهو مقطب الحاجبين: إنك قليل الصبر يا سيدي أما أنا فلن أترك قصري العوبة لهؤلاء الهنود.

ـ قصرك؟ وما هو القصر؟ بيت مركب من حجر وخشب تبنيه أو تبني عوضه متى شئت. لكن نساؤنا...

آه إني أكاد أجن!

فوضع دي لهوت يده على كتفه بدالة قائلاً: إن مراكبنا سارت قبل مراكب الهنود بزمن وربما هم الآن في قصر سان لويس بأمان وعلى أي الأحوال لا يوجد عندنا مراكب كي نلحق بهم.

ـ بل يوجد مركب.

ـ هذا المركب الذي أتى به الراهب وهو زورق صغير لا يحمل أكثر من رجل واحد.

ـ إذاً أنا آخذه. قال هذا وتدحرج في السلم وخرج من

القصر لا يعي على شيء وإذ دنا من الزورق شعر أن يداً لمست كفته. فالتفت وإذ بالراهب يقول:

- إن هذا الزورق يخصني، وأنا أفعل به ما شئت.
- ويحك أيها الشيطان إنك هدمت أركان سعادتي.
- بل إني وجدتك ولن أضيعك ثانية.

فحمل أموري فأساً وجده أمامه وهمّ أن يضربه به. فلم يظهر أثر للخوف على وجه الراهب، بل ظل ثابت الجأش ورسم إشارة المسيحي على وجهه فرمى دي كاتينا الفأس لما رأى هذه الإشارة، وانقلب راجعاً إلى القصر وإذ بأبوابه قد انفتحت، ودخله بعض الهنود.

فأسرع إلى الداخل ليرى ماذا جرى بأصدقائه وإذ بهم متجمهرون في أعلى السلم وهم يقتلون الهنود الواحد بعد الآخر، وكانوا نحو عشرة رجال فعاد اثنين منهم إلى رفقائهم يخبرانهم بما جرى، وما لبثا أن عادا مع جمهور كبير وظلوا يراقبون حركات أعدائهم من الطابق الأسفل، فإذا حاول أموس أو دي لهوت أن يضع يده على سلاحه صوّب الهنود بنادقهم إليه وكان سكوتهم هذا مخيفاً. فظل أصحاب القصر صامتين ينتظرون نجدة من عند أصدقائهم ورجاؤهم بالنجاة محصور في هذا الأمل الوحيد. وإذا أقبل الصباح رأوا مركباً كبيراً آتياً عن

بعد فاستبشروا لكنها لم تمض برهة حتى خاب أملهم إذ رأوا أن المركب مملوء بالهنود، ولما اقترب منهم عرفوا بين تلك الأوجه الغريبة وجهين يعرفونهما تمام المعرفة: مدام دي لانو وأدال!

وكان مسيو دي لانو من أشجع الرجال. لم يتمالك أن ارتعشت أعضاؤه لهذا المنظر والتفت يكلّم دي كاتينا، لكن هذا كان عندما رأى المركب وفيه زوجته قفز من النافذة إلى النهر وأخذ يسبح إليها دون أن يفكّر في ما هو فاعل، بل إن فكراً واحداً كان يدفعه، وهو أن مكانه بقرب زوجته في ساعة الخطر، وقال في نفسه: سيكون نصيبي ونصيبها واحداً فنموت أو نحيا معاً وما ألذ الموت وهي بين ذراعيّ وشفتاها تلمس شفتيّ!

وكان هنالك رجل آخر متحمساً وهو الراهب فلما رأى ما فعله دي كاتينا فزع أن يهرب من يده مرّة أخرى، وتبعه ملقياً نفسه في النهر يسبح على إثره، لكن قواه خانته لأنه لم يكن شاباً كأموري فضلاً عن ثقل ثيابه وضخامتها فشعر بثقل الماء ودنو الأجل. فرفع عينيه إلى السماء وتلا صلاة المنازعين وختمها بتسليم روحه بين يدي الله، فأستلمته الأمواج وبعد أن تلاعبت به قليلاً غاص تحت الماء.

أما أموري وصل إلى المركب أصعده الهنود إليه، وتابعوا سيرهم. فهتف أموس: ويلاه! قد أخذوه هو أيضاً!

قال مسيو دي لانو: إن مسيو دي كاتينا فعل ما يجب عليه فعله فلو كنت شاباً مثله لحذوت حذوه وذهبت إلى زوجتي.

قال دي لهوت: أنظروا كيف أن الهنود يغادرون القصر. فإنهم يخرجون منه زرافات زرافات ولم يبق منهم فيه أحد.

ـ وما معنى هذا اللغز؟

ـ لا أدري كيف يتركونا عندما يرونا في قبضتهم.

وكانوا ينظرون من النوافذ إلى النهر، وإذ بمراكب كثيرة آتية إليهم فهتفوا: ها قد أتى أصدقاؤنا والحمد لله!

ثم نزلوا إليهم في الحال، وركبوا القوارب التي أحضرت لنقلهم وكان سيد سانت لويس قد أتى بنفسه لمساعدة صديقه. فدخل هذا زورقه، وصافحه متشكراً. فقال سيد سانت لويس:

ـ يا عزيزي شارل، إنك دافعت عن بيتك مدافعة الأبطال لكني لا أرى إلا خمسة من رجالك، فما معنى هذا؟

ـ إني كنت على ثقة من صداقتك يا عزيز، وإنك ستأتي لتغيثني. نعم إني دافعت عن بيتي لكني خسرت بهذه المدافعة أشياء لا تثمَّن، ولا تعوّض: فقد مات ولدي، وها إن زوجتي

الآن بين يدي الهنود، في هذا المركب الذي تراه سائراً هنالك أمامنا.

ـ وصل النساء والأولاد سالمون، أما المركب الذي كانت فيه زوجتك والسيدة الافرنسية انكسرت دفته، وهذا سبب وقوعهما في يدي الهنود. أما الآن فلا حاجة بنا ألى طول الكلام. فلنلحق بهم بسرعة لأن حياة أحبابنا وموتهم يتعلقان بوقت قليل نضيعه أو نكتسبه.

لم يستقبل الهنود دي كاتينا بشراسة، بل بعكس ذلك. لكنهم فتشوه فلم يجدوا معه سلاحاً، فأجلسوه بين السيدتين، وكان وجه أدال أشبه بوجه الأموات، فوضعت يدها في يده دون أن تفوه بكلمة. فهمس أموري في أذنها والحزن يقطع فؤاده: معبودتي كلميني! قولي لي إنك لا تتألمين!

ـ لماذا أتيت إلى هنا؟ كنت قادرة على التجلد واحتمال أمر العذابات عندما كنت أظنك آمناً من الخطر، أما الآن فلا قوة لي على مشهد آلامك فلِمَ أتيت يا أموري؟

ـ هل أصبحت فاقد الرشد كي أتركك وحيدة بين أيديهم؟ أو هل تلاشى حبك من فؤادي كي أستطيع الراحة عندما أنت تتوجعين؟

ـ لكن فكر نجاتك كانت سلوتي الوحيدة.

ـ لا، إن حياتينا قد امتزجتا، ولا يجب أن يفترق الواحد عن الآخر بأي ظرف كان، وقد يلذ لي شرب الكأس المرة إن لمستها شفتاك. فلماذا نخشى الموت!

ـ أنا لا أخشاه قط. فإن عشنا نتذكر هذه الأيام بابتسامة كحلم عبر، وإن متنا نموت معاً وندخل الحياة الأخرى يداً بيد...

وإذ بصوت مدام دي لانو يخاطب أموري: قل لي يا سيدي، ماذا جرى بمسيو دي لانو؟

ـ لم يجر به شيء يا سيدتي. إنه لا يزال على قيد الحياة.

ـ الحمد لله على ذلك، إنه لجندي شجاع وأنا أفتخر به. لكن ولدي أشيل، آه من يرد إليّ ولدي! إني لن أرى شمس الغد لأن الهنود سيقتلونا اليوم لا محالة. ولذا تراني أشعر بفرح عظيم، إذ تطير روحي عما قليل إلى حيث تمكث ثمرة أحشائي الغالية.. آه! كم أكون سعيدة! سأضمه إلى قلبي كما كنت أضمه وهو طفل رضيع، ستقبل شفتاي جبهته الجميلة ويديه المحبوبتين كما كنت أقبله في صغره..

لما ابتعدوا نحو عشرة أميال عن قصر سانت ماري، أوقف

الهنود المركب بقرب الشاطىء وأنزلوا أسراهم، ثم ساروا يمشون في الغاب وهم يتبعون طريقاً ويتركون أخرى وكان إثنان منهم قد انتشلا المركب من النهر، وأخفياه بين الأشجار الكثيفة.

مشوا ذلك النهار بطوله، وكانت مدام دي لانو قد اعتادت هذه المشقات منذ طفولتها ولأنها من الهنود أنفسهم، أما أدال فكانت تعبة للغاية، تمشي مستندة على ذراع أموري سندها الوحيد وهي تنظر إليه من وقت إلى آخر فيتبادلان ابتسامة الغرام رغماً عن آلامهما.

قرب المساء وصلوا إلى مكان أشبه بقرية. وكانت هنالك أشجار عظيمة جلس تحتها كثير من الهنود، وقد أوقدت بينهم نار عظيمة وضع في وسطها عمود.

فتجلدت مدام دي لانو، وقالت إلى رفيقها بالافرنسية:

- إن هذه النار معدة لاحراقنا فسنظهر لهؤلاء الوحوش أننا لا نخشى العذابات وإننا نعرف أن نموت بشرف.

فارتجفت أدال وأخفت يديها بين يدي أموري، فقال هذا:

- إنهم لم يعاملونا بسوء بعد، فربما أرادوا أن يبقونا أحياء، وربما جعلت هذه النار لمأرب آخر.

فهزت مدام دي لانو رأسها قائلة: إياك أن تملق ذاتك بهذه الآمال. إن معاملتهم إيانا بالسكوت تعني أنهم أعدوا لنا عذابات مبرحة. إنهم سيقتلوننا لا محالة، أنت لأنك جندي، وأنا لأني عجوز. أما أدال فيتزوج بها أحد قوادهم.

إن هذه الكلمات ولدت في قلب كل من الحبيبين وجعاً لم يحدثه فكر الموت، فخارت قوى أموري، وكاد يسقط على الأرض لو لم تكن أدال بجنبه وتمسكه، وقالت له:

ـ لا تخف يا أموري، إن هذا الأمر الفظيع لن يكون أبداً وها إني أقسم لك بحبي أني لن أحيا بعدك. فإن لم يأتني الموت ثق بأني سأذهب للقائه.

فنظر بحرقة إلى الوجه المحبوب الذي يكلمه فقرأ فيه حباً أكيداً لا يبيده إلا الموت وعزماً ثابتاً لا تزعزعه المصاعب فتأكد أن أدال ستفعل ما قالت وأن عاراً كهذا لن يلحق بهُ بعد موته...

... ما أغرب تقلبات الزمان، وما أمرها! إنه لم يخطر على باله قط قبل الآن بأنه سيأتي يوم به يتمنى من صميم فؤاده موت هذه الفتاة التي أحبها بكل قواه وكاد هواها يسري في عروقه مع دمه، يوم به يشتهي أطباق هاتين العينين اللتين أذاقتاه لذات روحيةً يستحيل التعبير عنها بالكلام، بنظراتهما الطاهرة

المؤثرة، يوم به يود سكوت هذا الصوت الذي ينقل إلى أعماق روحه هزات طرب، وألم وحلاوة... أدال تموت؟؟ نعم، تموت. ألف مرة ولا تكون زوجة لرجل آخر ولو بعد موته، إذ خيل له بأن ترابه سوف يرتعش حنيناً إليها، وغيرة عليها.

أدخلهم الهنود إلى كوخ صغير عاري الأرض والجدران، وتركوهم هنالك وحدهم وخرجوا. فقالت مدام دي لانو: وضعونا هنا وذهبوا يناقشون كبار قوادهم ماذا عساهم أن يفعلوا بنا. ها إن أحدهم آت إلينا وستظهر لكما الآن صحة ما أقول.

دخل أحد القواد عليهم، وكان هو الذي قصد قتله دي لهوت أمس ذلك اليوم، في إبان المعركة بقرب القصر. فدنا من مدام دي لانو، ودون أن يرفع قبعته عن رأسه قال لها بغلاظة كلية مخاطباً إياها بالإفرنسية.

- أنت أيتها السيدة الهندية الأصل، سأعطيك في هذا المساء أمثولة تعلمك كيف تتفقين مع أعداء أبناء جنسك.

أجابته بجسارة مهينة: يجب أن ترفع قبعتك عن رأسك أيها الأحمق عندما تكلمني أنا ابنة أشرف عائلة فيما بينكم، وكان أبي قائد قوّادكم ارفع عن رأسك هذه القبعة التي تدل على قذارة أصلك أنت الذي ينكره الأوروبيون لأن أمك أوروبية ساقطة، كما أنك دخيل بين الهنود. أتحسب ذاتك

جندياً وقائداً أنت الذي مع ألف من أحسن رجالك وأقواهم، لم تقدر على دخول قصر صغير لم يوجد للمدافعة عنه أكثر من خمسين رجلاً..؟ يا لك من قائد مجنون أبله!

فمر في عيني ذلك القائد بريق غضب جهنمي وأمسك باهمها ووضعه على نار غليونه. فلم ترفع يدها، ولم يظهر للتأثر أثر على ملامحها، بل كانت تنظر إلى الخارج بعينين فاكرتين، كما لو وضعت يدها في الماء البارد. وكان ينظر إليها بقسوة وازدراء منتظراً صيحة ألم أو أنين لكنه لم يكن شيئاً من ذلك، فترك يدها غضباً وخرج من الكوخ مكرراً اللعنات عليها. أما هي فقهقهت طويلاً وقالت بصوت عال جداً: إنه لا معرفة له بكيفية تعذيب مسجونيه. يا له من غبي!

وإذ ذاك وقع نظرها على أموري، فقالت بشفقة:

ـ مالي أراك شاحب اللون يا مسيو دي كاتينا؟

ـ لا صبر على احتمال هذا، ولا حيلة لي. فلو كان سيفي معي لهجمت عليهم كالوحش ومزقت لحمانهم تمزيقاً!

ـ هون عليك وافتكر في نفسك أيضاً إذ إنك ستموت مثلي. أما أدال فتكون زوجة للكلب الذي خرج من هنا الآن.

ـ أدال، ماذا أفعل؟ وأخذ ينتف شعر رأسه كالمجنون.

وعدتك فلا تشك بكلامي وثق أني لن أحيا بعدك. ألست أنت حياتي؟.... وخنقتها العبرات.

- ومتى يقتلوننا يا ترى؟

قالت مدام دي لانو: الآن لكنهم يقتلونني أنا أولاً ثم تتبعني أنت.

إذ شعرت أدال بدنو الحقيقة المريعة. ألقت بنفسها على عنق زوجها وأخذت تخاطبه بعبارات متقطعة، محزنة:

- كيف تموت وتتركني؟ ألست أنت الأب، والأخ، والصديق، والحبيب، والقريب، وسندي الوحيد في هذه الدنيا؟ أولست أنت الذي أقسمت لي مراراً بأن حبك لن يتخلى عني ولا دقيقة واحدة. وأنك تساعدني في كل ظرف من ظروف حياتي؟ أموري، خذني معك! دعنا نموت معاً. متعانقين، ونترك هذه الحياة المرة لحياة أخرى سعيدة. خذني معك لأني وحيدة ولأني أحبك!

قالت مدام دي لانو والدمع يترقرق في عينيها لوعة على هذين الحبيبين التعيسين: نعم يا ولدي، موتا سوية. اقتلا أنفسكما ولا تدعا هؤلاء الأشرار يتحكمون بكما.

قال أموري واليأس يقطع صوته: ولكن من أين لنا أن

نموت سوية؟

فأخرجت مدام دي لانو طبنجة صغيرة من جيبها، ووضعتها خفية في قبضته وقالت: قد أخذت هذه معي عند مغادرتي القصر، كي أقتل بها ذاتي عندما تدفعني الظروف إلى ذلك. أما الآن فأريد أن أموت حرقاً كي أبرهن لهؤلاء الوحوش أني أكثر شجاعة من أعظم باسب فيهم. فخذ هذه إذاً وفي آخر دقيقة تقتل أدال لم تقتل نفسك وهكذا تكونان قد تخلصتما من أيديهم الشريرة. فأبرقت أسرة أموري وأراد أن يشكرها وإذ بثلاثة رجال داخلين، فدنا أحدهم من مدام دي لانو وكلمها بلغة لم يفهمها رفيقاها، وأشار إليها أن تتبعه. فالتفتت إلى صديقيها وقالت: ها قد أتت ساعتي، فالوداع إذاً. وابتسمت لهما ثم خرجت من الكوخ ثابتة القدم، عالية الرأس.

قالت أدال: وأتت ساعتنا أيضاً يا أموري، فاقتلني. ثم ابتسمت له ابتسامة كأنها بكاء وقالت: إن عذوبة الموت من يدك توازي عذوبة الحياة بقربك!

فضمها إلى صدره بقوة وحنو، واضعاً رأسها على ساعده وتأمل برهة في وجهها اللطيف وكانت دموعها تسيل على خديها فتمتم بحرقة: «أنت شقيقة روحي، أنت حياتي الزائلة»! ثم أغمض جفنيها الرخصين ولثمهما طويلاً الواحد بعد الآخر

هامساً في أذنها: الوداع، الوداع!

ـ لا تودعني يا أموري، ها أني أموت بين يديك، وبعد الموت تطير روحانا نحو السماء وتتلامسان وتتعانقان في الهواء وتعيشان أبداً.

فنظر إلى الطبنجة وحدق في عيني أدال، وقال والبكاء يطرد الابتسام عن شفتيه: أتسامحيني ما أنا فاعل يا أدال؟

ـ أسامحك يا أموري؟ إنك لست بمخطىء نحوي كي أسامحك. إني أحبك وأباركك ألف ألف مرة. فقط ضمني إلى قلبك مرة أخرى، وخذ حياتي بقبلة.

فصوب الطبنجة نحو صدر حبيبته وكانت يده ترتعش من شدة الانفعال، فنظر إلى خارج الكوخ قبل أن يطلق النار، وسأل الله الشجاعة على تتميم ما هو فاعل، وكانت خارج الكوخ شجرة عظيمة فرأى يداً ضخمة تحاول التسلق على تلك الأغصان وما لبث أن رأى وجه صديقه القبطان سافاج بين الأوراق الخضراء. ولما رآهما هذا خف إليهما يتبعه أموس، ومسيو دي لانو، وصديقه سيد سانت لويس، ورجاله، ودي لهوت الشجاع الأكبر. وكان هؤلاء قد وصلوا في وقت كان الهنود متجمهرين حول جثة مدام دي لانو، فأضرموا حول حلقتهم ناراً مخيفة التهمتهم فمات منهم من مات، وهرب الباقون. لكن ذلك القائد

الذي كان مزمعاً على الإقتران بأدال بعد موت زوجها أسرع إلى الكوخ شاهراً خنجره على أموري. فتقدم نحوه هذا بأسرع من لمح البصر وفرغ طبنجته في صدره فوقع الهندي يختبط بدمه، ولم تمض برهة حتى لفظ روحه.

* * *

انتهت هنا عذابات الحبيبين. وقد عاشا طويلاً بهناء وسرور في مدينة نيويورك حيث أقاما لهما بيتاً جميلاً تكتنفه حديقة غناء. ورزقهما الله أطفالاً آية في جمال الطلعة. وكان المتأمل يرى في الذكور منهما عيني أموري الآمرتين المتوسلتين، وشجاعته وصفاء ضميره، بينما كانت الفتيات تشبه أدال في استدارة الوجه، واللطف، والرقة، والحنوّ وكانت ترى دائماً على ثغرهن ابتسامتها الفتانة وكثيراً ما كان أموري يسأل زوجته:

ـ هل تذكرين تلك الأيام؟

ـ نعم أذكرها وذكرها عزيز لديّ. لأن حبك الذي يجعلني الآن من أسعد نساء العالم قد ملأها مرارة وعذوبة.

(انتهت)

مؤلفات مي زياده

أدب - قصة - نقد - اجتماع - تاريخ - عمران - فن - حضارة

باحثة البادية	كلمات واشارات ج ١
وردة اليازجي	كلمات واشارات ج ٢
عائشة تيمور	ظلمات وأشعة
بين الجزر والمد	الصحائف
المساواة	سوانح فتاة
غاية الحياة	ابتسامات ودموع
الحب في العذاب	رجوع الموجة

الحب في العذاب

رواية أدبيّة تاريخيّة

ليس في الثلث الاول من هذا القرن صوت أدبي نسائي اشجى من صوت مي زياده.

وليس من فكر كفكرها يلتمع فيضيء داعياً إلى الحرية والتقدم مجاراة لركب الحضارة في شتى الميادين والسبل.

وهي في كل ما كتبت تجسد طموح الأقلام المستنيرة إلى التجديد الأدبي إبداعاً في الشكل التعبيري وفي المضمون الفكري، فضلاً عن انها تجسد طموح المرأة العربية إلى الحياة، وطموح الامة إلى الدخول في حركة العصر وبناء المجتمع والوطن.

.... الحب في العذاب رواية تطفح بالمشاعر الإنسانية العميقة بين حبيبين عاشقين، فالحبيب يفتدي حبيبته بكل غال ورخيص من اجل المحافظة عليها، وانتشالها من الغوغائية والفوضى، التي كانت سائدة ايام الثورة الفرنسية.

فهل ينجح «آموري دي كاتينا» في المحافظة على حبيبته «آدال كاتينا» وانتشالها من الفوضى؟ أم يتركها فريسة للذئاب المسعورة التي كانت تلاحقها؟

الحب في العذاب رواية تهز مشاعر القارىء وتبعث فيه شعوراً وإحساساً عميقاً يبقى غائراً في القلب والوجدان، وكانه يابى أن يدخل زاوية النسيان، وفق تنقل العواطف والأحداث في اندفاعها وانحسارها، ووفق فوران الأحاسيس وهدوئها، باسلوب عربي تجلت فيه مقدرة مي زياده في جمالية الأسلوب والتعبير اللغوي السليم.

الناشر